الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز



متتالية روائية

دوريس ليسنج

بن يجوب العالم

ترجمة : بثينة الناصري

دوريس ليسنج

- كاتبة إنجليزية ولدت فى إيران ٢٢ أكتوبر ١٩١٩، حيث كان والدها يعمل ضابطًا فى الجيش البريطانى. واتخذت لقبها "ليسنج" من زوجها الثانى.
- لم تكمل دراستها النظامية وعكفت منذ سن مبكرة على دراسة الأدب منذ القرن التاسع عشر.
- تميزت أعمالها الأدبية بالنضال ضد المظالم والاستعمار والتمييز العنصرى وبالتأييد لحقوق المرأة.
- لفتت إليها الأنظار بقوة عند صدور روايتها الأولى "العشب يغنى" عام ١٩٥٠ ثم توالت أعمالها ومع صدور روايتها "المفكرة الذهبية" تحولت "دوريس ليسنج" إلى أيقونة للحركات النسائية على الرغم من أنها لم تنضم يومًا إلى إحداها.
- من أهم أعمالها "الإرهابية الطيبة"، "تحت جلدى"، "الشق"، "ماراو دان"، "تعليمات الهبوط إلى الجحيم"، "الطفل الخامس"، "بن يجوب العالم".

حصلت على العديد من الجوائز منها جائزة الدولة النمساوية للأدب الأوروبى، وجائزة أمير آستورياس فى الأدب، وجائزة لوس أنجلوس تايمز للكتاب، وحصلت على لقب وصيفة شرف من الجمعية الملكية للآداب، ونالت شهادة فخرية من جامعة هارفارد، وذلك قبل أن تتوج مسيرتها الإبداعية بالحصول على جائزة نوبل فى الآداب لعام ٢٠٠٧.

الجائزة: جائزة نوبل فى الآداب

أكبر جائزة فى العالم، وأعلى مرتبة من جميع التقديرات، تمنح فى فروعها المختلفة كل عام فى العاشر من ديسمبر، وهو تاريخ وفاة صاحبها الصناعى السويدى ومخترع الديناميت "ألفريد نوبل" الذى أسسها عام ١٨٩٥، كدعوة لتحقيق السلام فى العالم.

ومنذ عام ١٩٠١ أصبح العالم كله ينتظر توزيع الجائزه على الأدباء والعلماء ودعاة السلام، الذين يقومون بإنجازات أدبية وعلمية وخدمات اجتماعية نبيلة تهدف إلى رقى الإنسانية وتطورها.

وجائزة نوبل فى الآداب هى أرفع جائزه أدبية فى العالم، وهى تمنح لقمم الإبداع فى فروعه المختلفة: رواية.. شعر.. مسرح، وأول من حصل عليها من العالم العربى الكاتب المصرى "نجيب محفوظ" عام ١٩٨٨.

بن يحوب العالم

ليسنج، دوريس.
بن يجوب العالم: متتالية روائية/ دوريس ليسنج؛ ترجمة: بثينة الناصرى.ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩
٢٥٢ ص ؛ ٢٢ سم.
تدمك ٨ ٧٩٠ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القصص الإنجليزية.
أ ـ الناصرى، بثينة (مترجم)
ب ـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٧٨٣٦/ ٢٠٠٩

I.S.B.N- 978 - 977 - 420 - 790 - 8

ديوى٨٢٣

بن يجوب العالم

متتالية روائية

دوريس ليسنج

ترجمة : بثينة الناصري



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٩

• الكتاب: بن يجوب العالم Ben, in The world.

• تأليف: دوريس ليسنج Doris Lessing.

• ترجمة: بثينة الناصرى.

• يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من المؤلفة للهيئة المصرية العامة للكتاب.

• الطبعة الأولى ٢٠٠٩.

• طبع فى مطابع الهيئة المصرية للعامة للكتاب.

«سلسلة الجوائز»

مازال أمام سلسلة الجوائز الكثير من الأحلام الكبرى، التى تعمل بدأب على تحقيقها، فلقد شهدت السنوات الأخيرة احتفاءً غير مسبوق بالأعمال الأدبية فى شتى أنحاء العالم، وزادت أعداد الجوائز المهمة وأشكال تكريم المبدعين، فازدادت بالتالى الروائع الأدبية، التى تنتظر الترجمة والنشر فى سلسلة الجوائز.

ولأننا نضع نصب أعيننا قطع المسافة بين الواقع والمأمول.. بين الممكن والمستحيل فقد قطعنا خطوات كبيرة وجادة للتغلب على التحديات التى تواجه عملية الترجمة بداية من احترام حقوق الملكية الفكرية للمؤلف ومرورًا بتطوير شكل الكتاب، ووصولاً إلى قناعة بأن النصوص الأدبية لها وضعها الخاص باعتبارها مؤلفات جمالية متفردة ومن ثم تكون ترجمتها إبداعًا موازيًا يتحمل المترجم وحده عبء النهوض به. كما أننا استحدثنا «ذاكرة الجوائز» كرافد للسلسلة لتقديم الآثار الأدبية، التى شكلت ذروة خالدة

فى مسيرة الإبداع العالمى ولم تترجم بعد، أو أنها ترجمت ونفدت طبعاتها، إيمانًا من السلسلة بأن الأعمال الأدبية يكون لها دائمًا تأثير لا يمحى بمرور زمنها وحتى يتسنى للأجيال الجديدة قراءتها.

لقد انطلقنا من نجاحات تحققت فى مجال ترجمة الأدب فى مصر والعالم العربى، ولذا شرعنا فى تأسيس بنك معلومات رأينا أن الترجمة بحاجة إليه، ويشمل هذا البنك كل الأعمال الأدبية التى حازت جوائز دولية أو محلية فى كل أنحاء العالم، أو حققت أصداء قوية، وأثرت فى وجدان مجتمعاتها بشكل يؤهلها للحصول على جوائز أكبر، كما أنه يوفر قاعدة بيانات كبيرة عن كل المترجمين من كل اللغات، لكى يتابع القارئ العربى ما تم إنجازه والمهمات التى تنتظر السلسلة.

إن الترجمة كانت وستظل هى الحل السحرى للعديد من مشكلات الاختلاف بين الشرق والغرب، وهى وسيلة التواصل والحوار، وترجمة الأدب بالذات هى الجسر، الذى تعبر عليه أفكار الشعوب وعاداتها ومعارفها بدون قيود، فالأدب كان وسيظل أساس التقدم والخير والحق والحرية والجمال.

ولذا ستسابق سلسلة الجوائز الزمن لتحتفى بأكبر قدر ممكن من حائزى الجوائز فى العالم، تلك الجوائز التى حققت مصداقية كبيرة وسمعة حسنة حتى يتوفر للقارئ المصرى والعربى عمل اتفقت على جودته لجان

متخصصة، مهمتها التحكيم لمنح جوائز دولية ومحلية لأهم الكتب وأكبر الكُتّاب.

ولسوف تتنوع اللغات المُتَرجم عنها فى أعداد السلسلة القادمة، ولسوف تقتحم سلسلة الجوائز جوائز جديدة. وأصواتًا لم يتعرف إليها بعد القارئ العربى، وذلك بفضل زخم الأعمال الإبداعية فى العالم وبفضل تنوع الجوائز المستحدثة، التى لاقت اختياراتها ترحيبًا واحترامًا من النقاد والمتابعين للمشهد الإبداعى.

د. ناصر الأنصارى

أسلوب القص الشعبى

فى الرواية تلجأ درويس ليسنج على غير عادتها إلى اسخدام تكنيك القفز على الأحداث لإعلام القارئ مسبقًا بالأحداث المستقبلية والنهايات السعيدة أو البائسة للشخصيات، وتوضح درويس ليسنج ذلك فى حوار إذاعى أدارته معها دار نشر بارنز ونوبل بتاريخ ٢٣/٨/٢٠٠٠.

«هذا التكتيك من التراث الشفهى الشعبى، لا أعرف عدد الناس الذين استمعوا إلى راوى قصة شعبى، فهذا مايفعلونه إنهم يقاطعون الشخصية الرئيسية بشخصية ثانوية ويقولون «لن نرى «جون جاكسون مرة أخرى، فقد انتهت قصته وسوف يذهب للزواج، يعيش حياة سعيدة» وهو تكنيك ممتع، هذا يوقظ الجمهور المستمع ويعيد تركيز الانتباه إلى القصة بتكثيف أكبر، وقد فكرت أن استخدم هذا الأسلوب فى هذه الرواية».

ملاحظة المؤلفة

وصف لى «الأقفاص» بتفاصيلها البائسة قبل عشر سنوات، شخص رآها فى معهد أبحاث فى لندن، هنا أصبح مكانها فى البرازيل، بسبب متطلبات الحبكة، ولكنى على يقين من أنه ليس هناك مثل هذه الظاهرة المحزنة فى البرازيل.

وقد أخلت السلطات شوارع مدينة ريو من عصابات الأطفال المجرمين، ولم يعد يسمح لهم بمضايقة السواح.

شكر وامتنان

أقدم امتناني العميق كالعادة لوكيل أعمالي جوناثان كلاوز، وخاصة للمساهمات التي قدمها مشكورًا لهذه الرواية عن «بن لوفات» الطفل الخامس وامتناني أيضًا لـ «سوزيت ماسيدو» لتقديمها المشورة حول الجزء البرازيلي من هذا الكتاب لـ «مارتن كوبيرتاري» الذي قدم كل العون والمعلومات عن ظروف شمال غرب الأرجنتين، وهي بقعة بالغة الجمال من هذا العالم.

ـ "كم عمرك" ؟

ـ "ثمانية عشر"

لم ينطق بالجواب فورًا، لأن بن كان يخشى ما يتوقع أن يحدث الآن، وهو أن يضع الشاب خلف الزجاج الذى يحميه من الجمهور، قلمه الجاف على الاستمارة التى كان يملؤها ، ثم يتفحص زبونه بنظرة يعرفها بن جيدًا. سمح الموظف لنفسه بلحظة لهو سريعة ولكن بدون استهزاء. رأى أمامه رجلا قصيرًا، بدينًا أو على الاقل ثقيل القوام ـ يرتدى سترة أكبر من مقاسه ـ قد يكون عمره فى الأربعين على الأقل. وبذلك الوجه! كان وجهًا عريضًا، قوى الملامح، فم ممدود بابتسامة- هل هناك مايستدعى الضحك؟ أنف عريض بمنخرين واسعين ، عينان خضراوان ، بأهداب بلون الرمل، تحت حاجبين رمليين كثين. كانت له لحية قصيرة مرتبة لا تناسب الوجه. شعر أشقر يبدو ـ مثل ابتسامته ـ صادمًا ومزعجًا، طويلاً يتهدل إلى الأمام مستقيمًا ، وفى خصل ناشفة على

الجانبين ، كما لو أنها تقليد ساخر لقَصَة شعر رائجة. ومما يزيد الطين بلة، إنه يتحدث بلكنة راقية ، هل يسخر ؟ انغمس الموظف فى هذا الفحص الدقيق لأنه كان منزعجًا من بن إلى حد الغضب. قال بنبرة محتدة " لا يمكن ان تكون فى الثامنة عشرة . هيا .. ما عمرك الحقيقى؟"

كان بن صامتًا، حذرًا بكل ذرة فى كيانه ، مدركًا أنه فى خطر. تمنى لو لم يأت إلى هذا المكان الذى يكاد يطبق بجدرانه عليه. كان يتصنت للأصوات من الخارج، ناشدًا طمأنينة الحياة العادية. بعض اليمامات كن يتناغين على شجرة عادية على الرصيف، وكان معهن، يتأمل كيف جلسن متشبثات بالأغصان بمخالب وردية كان يشعر كأنها تضغط حول إصبعه، كانت اليمامات سعيدات بالشمس وهى تسطع على ظهورهن. هنا فى الداخل ، ثمة أصوات لم يكن يفهمها إلا بعد أن يفصل أحدها عن الآخر. فى هذه الأثناء كان الشاب أمامه ينتظر، يحرك بين أصابعه قلمه الجاف. رن جرس تليفون إلى جانبه. حوله كان العديد من الشبان والشابات يجلسون خلف الزجاج. البعض منهم يستخدم أدوات تطقطق و تهتز ، وبعضهم يحدق فى شاشات تظهر وتختفى عليها الكلمات. كان بن يعرف أن هذه الآلات الضاجة قد تخفى عداء له. تحرك الآن بخفة إلى أحد الجوانب ليتخلص من انعكاسات الزجاج التى كانت تزعجه، وتمنعه من رؤية هذا الشخص الغاضب منه، بوضوح.

قال:"نعم . أنا فى الثامنة عشرة" .

كان متأكداً من هذا. حين ذهب للبحث عن أمه - قبل ثلاثة شتاءات - ولم يطل المقام لأن أخاه المقيت بول كان قد جاء - كتبت له بكلمات كبيرة على قطعة ورق مقوى:

- اسمك بن لوفات.

- اسم أمك هاريت لوفات.

- اسم أبيك ديفيد لوفات.

- لديك أربعة أخوة وأخوات : لوك وهيلين ، وجين وبول. كلهم أكبر منك.

عمرك خمسة عشر عاماً.

على الوجه الآخر للورقة كتبت :

- ولدت فى ...

- عنوان بيتك هو ...

كانت هذه الورقة قد أصابت بن بعاصفة من الغضب اليائس حتى أنه حين أخذها من أمه، وركض خارج المنزل، شخبط أولا على اسم بول ثم أسماء بقية إخوانه، ثم سقطت الورقة على الأرض وحين التقطها شخبط على وجهها الآخر بقلمه الجاف الأسود طامسا كل الكلمات حتى لم يعد عليها سوى فوضى كبيرة من الخطوط المتشابكة.

ذلك الرقم ، خمسة عشر، ظل يقفز رداً على أسئلة - كان يشعر - أنها تلقى أمامه ."كم عمرك؟"

وبإدراكه بأهمية الرقم ، ظل يتذكره، وحين كانت السنة تبدأ جديدة عند الكريسماس، وهو ما لا يمكن أن يخطئه أحد، كان يضيف سنة إلى عمره. الآن أنا فى السادسة عشرة، الآن فى السابعة عشرة. الآن، لأن شتاءً آخر قد مر، أنا فى الثامنة عشرة.

"حسنًا، متى ولدت ؟"

فى كل يوم منذ شخبط بذلك القلم الأسود الغاضب على كل الكلمات فى الورقة المقوى، بدأ يفهم أية غلطة ارتكبها. وكان قد أتلف الورقة كلها، فى نوبة غضب جامحة ، لأنها لم تعد ذات قيمة. كان يعرف اسمه ويعرف "هاريت" و "ديفيد" ولم يكن يهتم بإخوانه وأخواته الذين كانوا يتمنون موته.

لا يتذكر متى ولد.

وهو يتصنت كما يفعل لكل صوت ، سمع الأصوات تعلو فجأة فى المكتب ، كان يقف فى طابور الناس المنتظرين خارج إحدى الواجهات الزجاجية، بدأت امراة فى الصراخ على الموظف الذى كان يكتب لها استمارة، وبسبب هذا الغضب النافث فى الهواء، أخذت كل الطوابير تتحرك وتتداخل وكان أناس آخرون يتمتمون ثم بصوت أعلى يطلقون بما يشبه النباح، كلمات غاضبة قصيرة مثل "أبناء الحرام" و"اللعنة" ـ وهذه كلمات يعرفها بن جيداً ويخافها. شعر بقشعريرة خوف تتزلق من أعلى رقبته إلى عموده الفقرى.

أبدى الرجل الذى خلفه نفاد صبر قائلا" لا أملك اليوم كله إذا كنت تملكه"

"متى ولدت ؟ ما التاريخ؟"

قال بن"لا أعرف" .

وهنا وضع الموظف حداً لهذا ، مؤجلا المشكلة بقوله "اذهب وجد شهادة ميلادك. اذهب إلى مكتب السجلات المدنية . هذا سوفس ينهى المسألة . لا تعرف رب عملك السابق، لا تعرف عنوانك. لا تعرف تاريخ ميلادك"

بهذه الكلمات، انتقلت عيناه عن وجه بن وأشار برأسه للرجل الواقف خلفه ليتقدم و يأخذ مكان بن الذى خرج من المكتب شاعراً بأن كل شعر جسده وشعر رأسه قد وقف ، كان محاصراً ومذعوراً . فى الخارج كان ثمة رصيف ، وناس ، شارع صغير ملىء بالسيارات وتحت الشجرة العادية حيث تتحرك اليمامات، هادلة، راضية، كان ثمة مصطبة. جلس على أحد طرفيها وفى الطرف الثانى كانت امرأة شابة ألقت عليه نظرة سريعة ثم أخرى، عبست، وغادرت المكان وهى تنظر وراء ظهرها إليه بتلك النظرة التى يعرفها بن ويتوقعها. لم تكن خائفة منه ولكنها سرعان ما ستكون كذلك. كان جسدها متعجلا و حذراً، مثل من يهرب، دخلت أحد المحلات وهى مازالت تلتفت إليه.

كان بن جائعاً ولا نقود معه. كانت هناك بعض كسرات الخبز على الأرض، رميت لليمام. جمعها

بسرعة وهو يتطلع حوله فقد سبق أن وبخ لذلك. جاء الآن رجل عجوز ليجلس على المصطبة ، وقد ألقى على بن نظرة طويلة ، ولكن قرر ألا يستجيب لحدسه، بل أغمض عينيه . وتحت حرارة الشمس تفصد وجهه الشائخ عن حبات عرق صغيرة. ظل بن جالسًا وهو يفكر كيف ينبغى عليه أن يعود إلى المرأة العجوز وكيف سيخيب أملها فيه. كانت قد أمرته أن يأتى إلى هذا المكتب ويطالب بتعويض البطالة. التفكير فيها جعله يبتسم ـ ابتسامة مختلفة تمامًا من تلك التى أزعجت الموظف. جلس يبتسم ابتسامة صغيرة كشفت عن أسنان لامعة من خلال اللحية. وراقب كيف تنبه الرجل العجوز من غفوته ليمسح حبات العرق التى كانت تجرى على وجهه مخاطبًا العرق:" ماذا ؟ ماهذا؟" كما لو أنه قد ذكره بشىء ما. ثم، حتى يدارى نفسه، وجه الكلام محتدًا إلى بن "على ماذا تضحك؟"

ترك بن المصطبة وفىء الشجرة وصحبة اليمام ومشى عبر شوارع، وهو يعرف أنه يسير فى الاتجاه الصحيح ، لمسافة ميلين تقريبًا. الآن يقترب من مجمعات سكنية كبيرة . سار نحو أحدها مباشرة وداخلها رأى المصعد يهبط نحوه بسرعة بصوت هسيس وارتجاج، حاول بن أن يجبر نفسه على ركوبه ولكن خوفه من المصاعد أخذه إلى السلم. واحد، اثنان، ثلاثة، إحدى عشرة سلمة رمادية باردة، متصنتًا للمصعد وهو يدمدم ويرتطم بالجانب الآخر من الحائط. فى الطابق كان هناك أربعة أبواب. ذهب

مباشرة إلى أحدها حيث تنبعث رائحة لحم قوية، جعلت لعابه يسيل. أدار مقبض الباب، وهزه وابتعد واقفًا يحدق منتظرًا فى الباب الذى فتح عن امرأة عجوز واقفة تبتسم. قالت "آه .. بن .. هذا أنت" وأحاطته بذراعيها ساحبة إياه إلى الغرفة. فى الداخل، وقف متحفزًا قليلاً يلقى نظراته فى كل اتجاه، وقبل كل شىء نحو قطة رمادية كبيرة تجلس على مسند كرسى. كان شعرها واقفًا. ذهبت المرأة إليها وقالت "لا تخافى لا تخافى . كل شىء على مايرام يا بسبس"، وتحت يدها المهدئة زال خوفها وأصبحت قطة صغيرة ناعمة. ثم ذهبت المرأة العجوز إلى بن وبنفس الكلمات قالت "لا تخف يا بن. كل شىء على مايرام. تعال واجلس" ترك بن عينيه تغادران بسبس ولكنه لم يفقد حذره ، ملقيًا عليها نظراته بين حين وآخر.

كانت هذه الغرفة هى كل عالم المرأة العجوز . على موقد غاز كان ثمة قدر فيه مرقة لحم، وكان هذا ماشمه بن عند الباب . قالت المرأة مرة أخرى" كل شىء على مايرام يابن" وأفرغت مرقة اللحم فى طبقين ووضعت قطعًا من الخبز بجانب طبق بن وجلست أمامه ثم التقطت بالملعقة شيئًا من المرقة وضعته فى صحن للقطة وتركته على الأرض عند الكرسى، ولكن القطة لم تجازف ،ظلت فى مكانها ساكنة وعيناها ترقبان بن.

جلس بن وكانت يداه على وشك أن تغوصا فى كوم اللحم حين رأى المرأة العجوز تهز رأسها له.

التقط ملعقة واستخدمها ، مراقبًا كل حركة، محاذرًا، يأكل بعناية، مع أن جوعه كان واضحًا. أكلت المرأة قليلاً وكانت معظم الوقت تراقب بن وحين أنهى طعامه ، كشطت كل ماتبقى فى القدر وصبته فى طبق بن .

قالت "لم أكن أتوقع قدومك" قاصدة أنها كان يمكن أن تطبخ المزيد، وأضافت "شبّع نفسك بالخبز" .

أنهى بن مرقة اللحم ثم الخبز. لم يتبق شىء آخر للأكل سوى بعض الكعك الذى دفعته أمامه ولكنه تجاهله.

والآن وقد أصبح انتباهه خالصًا، قالت ببطء وباهتمام كما لو أنها تخاطب طفلا" بن ، هل ذهبت إلى المكتب" كانت قد علمته كيف يصل إلى هناك.

"نعم"

"ماذا حدث؟"

"قالوا : كم عمرك ؟"

هنا تنهدت المرأة العجوز ووضعت يدًا على وجهها تدعكه كما لو أنها تمسح أفكارًا صعبة. كانت تعرف أن بن فى الثامنة عشرة من عمره: لقد كرر ذلك كثيرًا . وهى تصدقه. كان ذلك الحقيقة الوحيدة التى ظل يرددها . ولكنها كانت تعلم أن من يجلس أمامها هنا ليس فى الثامنة عشرة من عمره وقد قررت ألا تستمر فى التفكير فى ما يعنيه هذا. هذا ليس شغلى

اهو عليه. كان هذا يلخص ما تشعر به: مياه عميقة!
شكلة ! اخرجى منها!

كان يجلس مثل كلب يتوقع توبيخًا، كاشفًا عن سنانه فى تكشيرة تعرفها وتفهمها الآن، تكشيرة اسعة تكشف عن أسنان، تعنى الخوف.

"بن يجب أن تعود إلى أمك وتسألها عن شهادة ميلادك. من المؤكد أن الشهادة لديها . وهذا سينقذك من كل التعقيدات والأسئلة. هل تذكر الطريق إلى هناك ؟"

"نعم . أعرف "

"حسنًا. أعتقد أنه يجب عليك أن تذهب بأسرع وقت. غدًا مثلاً ؟"

ثبت بن عينيه على وجهها مستوعبًا كل حركة من عينيها، فمها، ابتسامتها، إصرارها. لم تكن المرة الأولى التى تطلب منه أن يذهب إلى بيته للبحث عن أمه. لم يكن يرغب فى ذلك ولكن إذا قالت له إن عليه أن يفعل ذلك... بالنسبة له ماكان صعبًا هو هذا: هنا عنده صداقة، دفء ، عطف ولكن هنا ايضًا إصرارًا على أن يعرض نفسه للألم والارتباك والخطر. ظلت عينا بن مثبتتين على ذلك الوجه، ذلك الوجه المبتسم. بالنسبة له فى تلك اللحظة كان وجه العالم المحير .

"أنت ترى يابن، أنا أعيش على تقاعدى، ليس لدى إلا القليل لأعيش عليه. أريد أن أساعدك. ولكن لو كان لديك بعض النقود - وذلك المكتب سوف

يعطيك نقودًا ـ فسوف يساعدنى ذلك . هل تفهم يا بن ؟ " نعم إنه يفهم. يعرف النقود. لقد تعلم ذلك الدرس الصعب. لإطعام بدون نقود.

والآن كما لو أن ما تطلبه منه ليس شيئًا كبيرًا وإنما شىء يسير. قالت "حسنًا . إذًا اتفقنا"

نهضت "اسمع. لدى شىء أعتقد أنه مناسب جدًا لك "

مطوية على كرسى، كان ثمة سترة وجدتها فى محل خيرى ، وقد فتشت حتى وجدت سترة بأكتاف عريضة. السترة التى يرتديها بن كانت قذرة وممزقة أيضًا. خلعها، وارتدى الجديدة التى كانت مناسبة لكتفيه وصدره ولكنها كانت مهدلة عند الخصر "انظر، يمكنك أن تربطها" كان هناك حزام وقد ضبطته حوله . وكان مع السترة بنطلون أيضًا. "والآن أريدك أن تستحم يابن "

خلع السترة الجديدة وبنطلونه مطيعًا وهو يراقبها طوال الوقت.

"سوف أتخلص من هذا البنطلون يا بن. ولدى هنا ملابس داخلية جديدة."

كان يقف عاريًا، يراقب. فى حين ذهبت إلى باب مجاور يؤدى إلى حمام صغير. اتسع منخراه مستنشقًا رائحة الماء. وأثناء انتظاره تفحص كل روائح الغرفة، الرائحة المتلاشية لمرقة اللحم الطيبة، رائحة دافئة صديقة، الخبز الذى يشبه فى رائحته الإنسان

ثم رائحة وحشية نتنة. القطة ـ التى مازالت ترصده، رائحة فراش مستخدم، غطاؤه مسحوب لتغطية مخدة لها رائحة مختلفة، كما تصنت أيضًا. المصعد كان صامتًا، خلف جدارين. كانت هناك دمدمة فى السماء، ولكنه يعرف الطيارات ولم يكن يخاف منها. لم يسمع على الإطلاق حركة المرور تحت- لقد أغلق عنها وعيه.

رجعت المرأة العجوز وقالت "هيا يابن!" وتبعها، نزل فى الماء وربض فى الحوض." اجلس " قالت له. كان يكره الخضوع للزلق الخطر ولكنه يجلس الآن فى ماء ساخن يغمره حتى وسطه. أغمض عينيه وكشر عن أسنانه، كانت تكشيرة الاستسلام لقدره هذه المرة، وتركها تغسله. كان يعرف أن هذا الغسيل ضرورة لابد أن يقوم بها من وقت إلى آخر. كانت شيئًا متوقعًا منه. فى الواقع لقد بدأ يستمتع بالماء.

الآن حين لم تعد عينا بن مثبتتين على وجهها، سمحت المرأة العجوز لنفسها، أن تشبع فضولها الذى لا يطفأ ابدًا.

بين يديها كان ظهر عريض قوى، يحد جانبى عموده الفقرى شعر بنى، وعلى الكتفين كتل من الفرو المبلل. كانت تحس أنها تغسل كلبًا. على أعلى الذراعين كان ثمة شعر ولكنه ليس كثيفًا، ليس أكثر مما يمكن أن يكون فى جسد رجل عادى. كان صدره كثيف الشعر ولكنه لم يكن مثل الفرو. كان صدر رجل.

سلمته الصابونة ولكنه تركها تنزلق منه إلى الماء، وبحث عنها بغضب ، وقد وجدتها هى وصبنته بقوة ثم استخدمت دشًا يدويًا صغيرًا لغسل الصابون عن جسده. قفز من الحمام ولكنها أعادته وغسلت فخذيه ومؤخرته ثم أعضاءه التناسلية. ولم يكن يخجل من هذا ولا هى. بعدها، يستطيع أن يخرج، وقد فعل ذلك ضاحكًا، نافضًا نفسه فى المنشفة التى كانت تمسكها. كان صوت ضحكته يسرها، يشبه النباح. فى سنوات غابرة، كان لديها كلب ينبح بهذا الشكل.

جففت جسده كله ثم قادته إلى الغرفة الأخرى عاريًا وجعلته يرتدى ملابسه الداخلية الجديدة وقميصًا من المحل الخيرى والبنطلون. ثم وضعت منشفة على كتفيه، ولكنه هز نفسه احتجاجًا، قالت "نعم يا بن . لابد من ذلك " .

سوت أولا لحيته، كانت غليظة وصلبة، ولكنها أجادت عملها. والآن شعره ولكن هذه مسألة مختلفة. حيث كان خشنًا وكثًا. المشكلة كانت فى شعر قمة رأسه، إذا قص قصيرًا بدا مثل جذاذات ملوية على قحفة رأسه. وهكذا فقد كانت الضرورة تستدعى ترك الشعر طويلاً فى قمة رأسه وفوديه. قالت له بأن أى حلاق شاطر يمكن أن يجعله مثل نجم سينما، ولكنه حين لم يفهم هذه الجملة، عدلتها إلى "يمكن أن يجعلك وسيمًا جدًا يا بن حتى أنك لن تعرف نفسك" .

ولكنه لم يكن سيئ المنظر الآن وكان يشع برائحة النظافة.

كان المساء فى أوله وفعلت ما كانت ستفعله لو كانت وحدها. أحضرت من الثلاجة علب بيرة، ملأت كأسها وملأت له واحدًا. سيقضيان الأمسية بما يحبه أكثر من أى شىء آخر. مشاهدة التليفزيون.

عثرت أولا على ورقة كتبت عليها :

السيدة إلين بجز

١١ ميموسا هاوس

هالى ستريت ، لندن ، اس آى ٦

قالت:" اسأل أمك عن شهادة ميلادك، وإذا كان عليها أن ترسل فى طلبها، قل لها إنها تستطيع الكتابة إليك دائمًا على عنوانى ـ هذا هو عنوانى"

لم يجب . كان مقطب الجبين.

"هل تفهم يابن؟"

"نعم"

لم تعرف إذا كان قد فهم أم لا، ولكنها اعتقدت أنه فهم.

كان ينظر إلى التليفزيون . نهضت وفتحته وعادت مارة بالقطة "لا تخافى لا تخافى بسبس. كل شىء على مايرام" ولكن القطة لم ترفع عينيها لحظة عن بن.

كانت أمسية سهلة ممتعة. لم يكن يصر على شىء معين يشاهده. أحيانًا كانت تحول من قناة إلى

أخرى، حاسبة أنه يشعر بالملل. كانت يحب برامج الحيوانات البرية ولكن لم يكن أحدها على التليفزيون هذه الليلة. وكان هذا شيئًا جيدًا. حقيقة، لأنه كان يتحمس كثيرًا فتعرف أن غرائزه الوحشية قد استثيرت. كانت تفهم منذ البداية أنه يسيطر على غرائزه التى يمكنها أن تخمنها. مسكين بن ـ كانت تعرف أنه كذلك ولكن لا تعرف كيف ولماذا.

عند النوم كانت تفرش على الأرض الحشية التى ينام عليها. وتضع بطانيات إلى جانبها فى حالة الحاجة إليها. ولكنه عادة لا يستخدم الأغطية. وكانت القطة وهى ترى هذا العدو على الأرض تقفز إلى السرير وتنام إلى جانب المرأة العجوز. ومن هناك لا يكون بن فى مرمى نظرها ولكنها كانت تشعر بالأمان. حين أطفئت الأنوار لم تكن الغرفة شديدة العتمة، لأن قمرًا كان يتوسط السماء فى تلك الليلة.

تصنتت المرأة منتظرة أن يتغير تنفس بن إلى ما تسميه تنفس الليل. كان ذلك، بالنسبة لها، مثل الاستماع إلى حكاية، رواية أو مغامرة يمكن أن تفهمها القطة. فى نومه كان بن يهرب من الأعداء مطاردًا ومدافعًا. كانت تعلم أنه ليس بشريًا :"ليس واحدًا منا" كما كانت تقول. ربما كان نوعًا من "إنسان الغاب"(*).

---

(١) الأصل فى الرواية استخدم كلمة yeti فى وصف بن والكلمة تطلق على مخلوق أسطورى نصف حيوان بشر يغطيه الشعر يعيش فى جبال الهملايا. ولكنى ارتأيت استخدام «إنسان الغاب» فهو أقرب إلى إدراكنا وأكثر شيوعًا فى منطقتنا ـ (المترجمة).

فى أول مرة رأته ، فى سوبرماركت كان يجوس خلسة ليس هناك كلمة أخرى تصف حركاته ـ وهو يتطاول لاختطاف قطعة خبز. لقد لمحت فيه يومها الرجل المتوحش ولم تنس ذلك أبدًا. كان قنبلة موقوتة من الرغبات الجامحة والجوع والإحباطات، وكانت تعرف ذلك حتى وهى تقول للمشرف فى السوق "لابأس. إنه معى" وسلمته فطيرة كانت قد اشترتها لتوها لنفسها التهمها وهى تقوده إلى خارج المكان أخذته إلى البيت وأطعمته. غسلته وإن كان قد احتج على تلك المرة الأولى. ورأت كيف كان رد فعله تجاه قطعة لحم باردة كان شيئًا مخيفًا. ولكنها اشترت المزيد من اللحم له. فى هذا كان يظهر اختلافه الكبير. اللحم، لا يشبع منه. وكانت هى امرأة عجوزًا تأكل قليلاً من هذا، قطعة من ذاك ـ تفاحة، جبن، كعكة، ساندويتش. مرقة اللحم فى ذلك اليوم كان صدفة سعيدة ، فهى لا تأكل دائمًا ذلك النوع من اللحم.

فى إحدى الليالى، حين ذهب ثلاثتهم للنوم، استيقظت على إحساس بالضغط على ساقيها. كان بن قد زحف الى سريرها وتمدد عليه. رأسه قرب قدميها وساقاه مثنيتان . كان انزعاج القطة هو الذى أيقظها ولكن بن كان غارقًا فى النوم. كان مثل كلب يحشر نفسه، قريبًا، بحثًا عن رفقة ودفء. وعصر الألم قلبها فقد كانت تعلم بإحساسه بالوحدة. فى الصباح صحا مرتبكًا. وبدا وكأنه يعتقد أنه ارتكب

خطأ ولكنها قالت له "لابأس يابن. المكان واسع" كان سريرًا كبيرًا، اشترته عند زواجها.

كانت تراه مثل كلب ذكى يحاول دائمًا أن يتوقع الطلبات والأوامر. ليس مثل القطة على الإطلاق. تلك كانت نوعًا مختلفًا من الحساسية. كما لم يكن مثل قرد، لأنه كان بطيئًا وثقيلاً. لا يشبه أى شىء عرفته سابقًا. إنه بن، إنه نفسه - أيا كان . كانت سعيدة لأنه سيجد عائلته، لم يكن يتكلم كثيرًا عنها، ولكنها فهمت أنها عائلة ميسورة. كما تشى به لكنته الراقية التى لا تتوقعها مع المظهر الذى كان عليه. كان يبدو أنه يحب أمه. وإذا كانت هى الغريبة تستطيع أن تعامله بطيبة - هذا كان رأيها - إذًا لابد أن عائلته سوف تفعل ذلك بالتأكيد. ولكن إذا لم ينجح هذا المسعى وعادة إليها مرة أخرى، فسوف تذهب معه إلى مكتب السجلات المدنية للبحث عن شهادة ميلاده. كانت الأمور مشوشة عليها فى هذه الناحية حتى أنها تركت محاولة فك طلاسمها. كان يكرر أنه فى الثامنة عشرة وكان عليها أن تصدقه. كان طفلاً فى نواح عديدة ولكن إذا نظرت مليًا لذلك الوجه حسبت أنه فى منتصف العمر، بتلك التجاعيد حول عينيه.

خطوط صغيرة ولكن تظل الحقيقة أنها لايمكن أن تكون لابن الثامنة عشرة. لقد ذهبت بعيدًا فى تفكيرها حتى ظنت أن الناس الذين ينحدر منهم ينضجون بسرعة وفى هذه الحالة يموتون شبابًا، طبقًا لأفكارنا. منتصف العمر فى العشرين وشيخوخة فى

الأربعين، فى حين أنها، إلين بجز، كانت فى الثمانين ولم تبدأ تحس بعمرها إلا قريبًا إلى حد أنها كانت تأمل ألا تضطر إلى الذهاب إلى مكتب السجلات المدنية والوقوف فى طابور، الفكرة ذاتها تتعبها وتزعجها. غفت وهى تستمع إلى أحلام بن واستيقظت لتجده قد اختفى. والورقة التى كتبت عليها عنوانها اختفت ايضًا وكذلك ورقة العشرة باون التى تركتها له. ورغم إنها توقعت هذا فعليها الآن أن تجلس واضعة يدها على قلب متعب. فمنذ أن دخل حياتها قبل أسابيع ، دخل معه القلق ايضًا. كانت تجلس وحدها فى حين يغادر هو إلى مكان ما، وهى لا تنفك تفكر: أين بن ؟ ماذا يفعل؟ هل يتعرض للاحتيال مرة أخرى؟ طالما سمعت منه كثيرًا "أخذوا نقودى" " سرقوا كل شىء" المشكلة أن المعلومات تخرج منه متناثرة وبصعوبة.

"متى حدث ذلك يا بن؟".

"كان صيفًا" .

"كلا ، أقصد فى أية سنة ؟" .

" لا أعرف . كان ذلك بعد المزرعة".

"ومتى كان ذلك ؟".

"كنت هناك مدة شتاءين".

كانت تعرف أنه ترك عائلته وهو فى الرابعة عشرة، إذًا أين كان طوال أربع سنوات؟

أخطأت أمه إذ حسبت أنه غادر المنزل مرة واحدة . فقد كان وعصابته من الهاربين من المدرسة يعسكرون فى منزل خال فى أطراف مدينتهم، ومن هناك كانوا يقومون بهجمات سريعة، ينشلون من المحلات، يسطون عليها ليلاً، وفى إجازات آخر الأسبوع كانوا يذهبون إلى المدن القريبة يتسكعون فى الشوارع مع الشباب المحلى آملين فى معركة وبعض المتعة. كان بن قائدهم؛ لأنه كان قوى البنية وكان يدافع عنهم. هذا ماكانوا يظنونه ولكن السبب الحقيقى، أنه كان ناضجًا فى داخله، كان رجلاً بالغًا، أشبه بوالد، فى حين أنهم كانوا جميعًا من الأطفال. وقد ألقى القبض عليهم واحدًا واحدًا، ليرسلوا إلى دور رعاية الأحداث أو إلى آبائهم ومدارسهم. ذات مساء كان يقف على طرف زحام من الشباب يتقاتلون - لم يكن هو يقاتل خوفًا من قوته ومن غضبه - وكان يدرك أنه وحيد، بدون صحبة. مرة كان عضوًا فى عصابة من شباب أكبر منه كثيرًا ولكنه لم يسيطر عليهم كما يفعل مع الذين أصغر منه. أجبروه على أن يسرق لهم، وكانوا يستهزءون به، ويضحكون على لكنته الراقية. وقد تركهم وانتقل إلى الضاحية الغربية؛ حيث وقع مع عصابة الدراجات النارية التى كانت فى حرب مع عصابة منافسة. كان يتمنى أن يقود دراجة نارية ولكنه لم يتعلم قيادتها أبدًا. على أية حال، كان يكفيه أن يكون قرب هذه الآلات. كان يحبها جدًا. وقد استغلته العصابة فى حراسة دراجاتها بينما

يذهبون إلى مقهى أو حانة. كانوا يعطونه الطعام وأحيانًا حتى بعض النقود. فى إحدى الليالى وجدته العصابة المنافسة يحرس نصف دزينة من الدراجات فضربته، كانوا اثنى عشر لواحد وتركوه ينزف. وحين عادت عصابته واكتشفت اختفاء دراجتين، كانوا على وشك ضربه مرة أخرى ولكنهم وجدوا لدهشتهم أن هذا الغبى الخامل قد تحول إلى مجنون مثل عاصفة يقاتل وهو يصرخ، حتى كاد يقتل واحدًا منهم . وقد تجمعوا حوله وجلسوا عليه حتى هدأ. لم تكسر له أية عظمة ولكنه مرة أخرى، كان ينزف وفى حالة يرثى لها. أخذته إلى الحانة فتاة تعمل هناك ونظفته وأجلسته فى زاوية وأعطته ما يأكله وأعادت إليه، بحديثها، عقله ثانية . وفى النهاية هدأ وربما كان يشعر بالدوار. تقدم منه رجل وجلس بقربه وسأله إذا كان يبحث عن عمل. هكذا وجد بن نفسه يعمل فى المزرعة. ذهب مع ماثيو غرندلى لأنه كان يعرف أن من يعثر عليه من أفراد العصابتين ، سوف يستدعى رفاقه ليشبعوه ضربًا.

كانت المزرعة بعيدة عن أى طريق عام، على درب ترابى. كانت مهجورة وكذلك المنزل الذى كان واسعًا واجزاء منه مغلقة حيث يتسرب الماء من السقوف. كانت المزرعة قد ورثها مارى غرندلى، وماثيو غرندلى وتيد غرندلى عن والدهم قبل عشرين سنة. مزرعة وليس أموالا. كانوا مكتفين ذاتيًا يعيشون من مواشيهم

وأشجار الفاكهة وحديقة الخضراوات، وقد قاموا ببيع الحقول المزروعة برسيمًا، واحدًا بعد آخر إلى المزارعين الجيران. ومرة كل شهر كانت مارى وماثيو والآن مارى وبن ـ يسيران إلى القرية التى تبعد ثلاثة أميال لشراء مواد البقالة والشراب من أجل تيد. وكانا يسيران لأن سيارة العائلة متعطلة، صدئة فى باحة البيت.

وكانت مارى ـ حين تشتد الحاجة إلى نقود من أجل الطعام والكهرباء والضرائب ـ تقول لماثيو: " خذ ذلك الحيوان إلى السوق وبعه بأى ثمن " وكانت الفواتير تتراكم لعدة أشهر وغالبًا لا تدفع إطلاقًا.

كان الجميع يميلون إلى نسيان هذا المكان المخجل. فأهالى المنطقة يشعرون بشىء من العار بسببه وبشىء من الأسف لحال آل غريندلى. وكان من الشائع أن "الصبيّين" ـ ولكنهما أصبحا من كبار السن الآن ـ كانا أبلهين وغير متعلمين . وكانت مارى ـ التى تدير المزرعة ـ تتوقع أن تتزوج ولكن ذلك لم يحدث. كانت تأمر أخويها بما يفعلانه: إصلاح هذا السياج، تنظيف تلك الحظيرة، حلاقة الخراف، زراعة الخضراوات. كانت تصدر أوامرها إليهما طوال اليوم وكانت تشعر بالمرارة لاضطرارها إلى ذلك. ثم أصبح ماثيو هو الذى يقوم بالعمل كله، أما تيد فقد كان يشرب حتى الثمالة فى غرفته. لم يكن يثير المشاكل ولكنه لم يكن يعمل. وقد أصيب ماثيو بالتهاب المفاصل ومرض فى صدره وسرعان ما أصبح العمل

شاقا عليه، ولم يعد يستطيع ان يفعل شيئًا سوى إطعام الدجاج ورعاية الخضروات .

أعطيت غرفة لـ (بن) بأثاث فقير ـ شديدة الاختلاف عن الغرف البهيجة التى ولد ونشأ فيها. كان يستطيع الأكل بقدر مايريد، وكان يعمل من الفجر حتى حلول الظلام كل يوم، مدركًا أنه يقوم بكل العمل ولكنه لم يكن يعرف أنه لن تقوم للمزرعة قائمة بدونه. هذه المزرعة أو أى شىء شبيه بها، سوف تنتفى إذا ماأصدرت المفوضية الأوروبية أوامرها وحين تطوف عيون تجسسها فى السماء على رءوس الجميع إلى الأبد.

المكان كان فضيحة ، ياالخسارة الأرض الطيبة. يأتى الناس عبر الدرب المؤدى إليه وعبر باحة المزرعة آملين شراءها. وكان التليفون قد تم قطعه لعدم الدفع ـ وتستقبلهم مارى، امرأة عجوز غاضبة تطردهم وتصفق الباب فى وجوههم.

وفى المزارع المجاورة حين تطرح أسئلة عن آل غريندلى كان الجيران يميلون إلى الغموض واقفين بصفهم ضد الموظفين الرسميين و الفضوليين . لو حدث وفقدوا المزرعة فماذا سوف يحدث لهذين المسكينيّن تيد وماثيو ؟ سوف يجدون أنفسهم فى دار عجزة وماذا عن مارى ؟ كلا .. دعوا المساكين يعيشون زمنهم، ولديهم ذلك الفتى الذى أتى من المجهول لا أحد يعرف من أين ، ويبدو عليه كأنه إنسان الغاب ولكنه يجتهد بالعمل.

ذات مرة حين ذهب بن مع مارى إلى القرية ليحمل لها البقالة، أوقفه رجل قائلا له "أنت مع آل غريندلى كما يقولون، هل يعاملونك جيدًا ؟"

سأله بن "ماذا تريد؟"

"كم يدفعون لك ؟ ليس كثيرًا، فأنا أعرف آل غريندلى. سوف أجزل عطاءك لو أتيت معى. أنا توم واندسوورث.." كرر الاسم ثم قال له ".. وأى شخص يمكن أن يدلك على مزرعتى . فكر فى الامر"

سألت مارى حين أخبرها بن "ماذا قال؟"

لم يوقع بن عقدًا ولم تذكر له شروط العمل. كانت مارى قد أعطته جنيهين حين ذهبا إلى القرية ليشترى معجون أسنان وماشابه. أعجبها اهتمامه بنظافته الشخصية وارتدائه ملابس مرتبة.

قالت له الآن:" إنى احتفظ بأجورك لك يا بن . انت تعلم هذا ."

كيف له ان يعلم؟ هذه أول مرة يسمع بهذ . كانت مارى تظن أنه أبله مثل أخويها، ولكنها ترى الآن بوادر مشاكل فى الافق.

قالت "أنت لا تريد أن تتركنا يابن. لن تفلح مع أى شخص آخر. عندى مبلغ لا بأس به ادخرته لك . يمكنك أن تأخذه فى أى وقت"

أشارت إلى دولاب عال فى غرفتها ثم جلبت مقعدًا وجعلته يقف عليه وأمسكت ظهر المقعد له.

كانت هناك عملات ورقية ملفوفة فى الدولاب. وفى عينى بن، بدا المبلغ أكبر مما تخيله.

سأل "هل كل هذا لى ؟"

قال مارى"نصفه لك"

وحين خرج من الغرفة ، خبأته فى مكان آخر.

كان يصعب عليه فراق مارى، رغم أنه كان مولعًا بالبقرة أيضًا ويستمتع بحركات الخنازير. كان يشعر بطيبة مارى معه. كانت تصلح ملابسه وقد اشترت له كنزة صوفية جديدة للشتاء، وكانت تعطيه الكثير من اللحم . ولم تغضب منه أبدًا كما كانت تغضب من أخويها.

كان يعيش حياة لا تخطر على بال أحد. كانوا كلهم يذهبون إلى النوم مبكرًا بدون أن يشغل تفكيرهم شىء ولم يكن هناك تليفزيون. كان تيد بعد أن يثمل ينام وهو يشخر منذ الساعة التاسعة أو العاشرة ومارى تظل تستمع إلى أخبار الراديو ثم تذهب إلى غرفتها بعد ذلك ، أما بن فقد كان يتسلل من شباك غرفته حين يهدأ المنزل وينطلق فى الحقول والغابات وحيدًا وحرًا، بذاته. كان يصطاد ويأكل حيوانات صغيرة أو طيورًا. ذات مرة لبد خلف شجرة ساعات ليراقب صغار ثعلب يلعبون. كان يجلس مسندًا ظهره إلى جذع شجرة يستمع لصوت البوم. أو يقف إلى جانب البقرة وذراعه حول رقبتها، دافنًا وجهه فيها شاعرًا بالدفء يتسرب منها إليه، وهبات نَفَسها

الساخنة العذبة على ذراعيه وساقيه وهى تدير رأسها تتشممه. كانت تعنى له الأمان والعطف. أو كان يقف مستندًا على عمود السياج يحدق فى سماء الليل. وفى الليالى الصافية كان يغنى أغنية صغيرة للنجوم بصوت مثل النقيق، أو يدور راقصًا، يرفع ساقًا ويدبك بها. مرة حسبت مارى العجوز أنها تسمع ضوضاء دفعها الفضول إلى معرفة كنهها، ذهبت إلى النافذة ولمحت بن ، فأحنت رأسها فى الظلام لترى وتسمع. وقد جعل ذلك فروة رأسها تقشعر و تسرى البرودة فى جلدها. ولكن ما ذا يعنيها ما يفعل فى أوقات لهوه؟ بدونه من يطعم الحيوانات ومن يحلب الأبقار ومن ينظف الخنازير؟. كانت مارى غريندلى تشعر بالفضول إزاء بن ولكن ليس كثيرًا . فلديها من المشاكل فى حياتها ما يحول دون الاهتمام بالآخرين. وكان قدوم بن إلى المزرعة مثل عطية الله لها.

ثم وقع تيد على السلم وهو ثمل ومات. وكان يجب أن يعقبه ماثيو، الرجل نصف المشلول الذى لا يكف عن السعال، ولكن مارى هى التى أصابتها نوبة قلبية. وفجأة أصبح كل المسئولين الرسميين فى غاية الفضول وطالب أحدهم برؤية الحسابات وسأل بن أسئلة شخصية، وأوشك بن أن يقول شيئًا عن النقود التى تخصه ولكن غرائزه صرخت به (خطر) فأطلق العنان لساقيه.

عمل فى قطف التفاح فى إحدى المزارع ثم قطف الفراولة. وكان القاطفون الآخرون بولنديين ، معظمهم

من الطلبة، جلبهم مقاول عمال، وكانوا شبابًا مرحين مصرين أن يقضوا أوقاتًا طيبة رغم ساعات عملهم الطويلة. كان بن يراقبهم صامتًا وراصدًا وفى قمة حذره. كانت هناك كرافانات للنوم ولكنه كان يكره الأماكن المغلقة والهواء الفاسد وكان حين ينتهى من تناول الطعام معهم ، ليلاً ويستمع إلى أغانيهم ونكاتهم وضحكاتهم ، يأخذ كيس نوم إلى الغابة .

حين انتهى موسم القطاف كان لديه مبلغ جيد من المال، وكان سعيدًا لأنه كان يعلم أنه ـ بدون المال ـ لا حول له ولا حيلة. ولكن أحد الشبان الذى كان يغنى ويلقى النكات سرق نقوده من سترته حين كانت معلقة فوقه على شجرة أثناء نومه. أجبر بن نفسه على العودة إلى المزرعة مفكرًا بكل تلك النقود فى الدولاب ونصفها يعود إليه، ولكن المنزل كان مقفلاً والحيوانات اختفت، وكانت هناك أعشاب برية قد نمت حول المنزل. لم يهتم بماثيو الذى بالكاد كان يتحدث إليه ماعدا بعض الملاحظات الفظة، كما أنه حين مات الكلب العجوز قال "لا نحتاج إلى كلب آخر، لدينا بن"

ذهب للبحث عن أمه ولكنها كانت قد انتقلت مرة أخرى، وكان عليه أن يستخدم ذكاءه للعثور عليها. وجد المنزل ، ولكن لم يكن يعتبره بيتًا، ولم يستطع دخوله لأنه رأى أخاه بول هناك ، والغضب من عدوه أخذ منه كل مأخذ.

وهكذا اتخذ الطريق القديم إلى لندن، لندن الغنية حيث لا بد أن يكون هناك بعض الخير له أيضًا. هناك وجد عملاً ولكنه وقع ضحية احتيال ايضًا، فأحبط ، ثم عثرت عليه إلين بجز يتضور جوعًا فى سوبرماركت.

على الرصيف المعتم خارج ميموسا هاوس، لم يكن ثمة أحد فى الجوار ولكن بن كان يعرف كيف يستطيل الظل فى الليل ويصبح عدوًا، وحين انعطف على زاوية كاد يصطدم بسكران يترنح ويشتم ويتمتم. استدار بن بخفة ليتفاداه وركض عبر شوارع خالية بدون أن يزعجه الظلام. قبل وصوله إلى رتشموند بدأ فى استخدام عبور المشاة قائلاً لنفسه: اذهب عند الضوء الأخضر، توقف عند الأحمر . هناك أناس فى الشارع الآن، الكثير منهم. استمر فى سيره مسترشدًا بغريزته التى كانت تعمل جيدًا إذا لم يربكها بالخرائط والتوجيهات، ثم وجد نفسه فى شارع عام وكان جائعًا.. دخل مقهى مكتوبًا عليه "إفطار طوال اليوم" وكما يحدث دائمًا فى مكان جديد، أخذ يحدق بقوة فى الوجوه بحثًا عن تلك النظرة المتفاجئة التى قد تتحول إلى خطر. ولكن كان الوقت مبكرًا والناس لم يستجمعوا كافة حواسهم ليبدءوا فى الملاحظة. اهتم بأن يأكل إفطاره ببطء وبعناية وترك المقهى وهو يشعر بالرضا عن نفسه. انطلق ثانية ، وعند منتصف النهار كان يعبر حقولاً والشمس تنشر دفئًا فى كل مكان. ثم وجد نفسه فى غابة. رأى طائر دج يتقلب فى أوراق

الشجر المتساقط.. اصطاده بسهولة ونزع ريشه وأكله فى قضمتين. جاءت أنثى الطائر تبحث عنه. أشبع الطائران ودمهما الساخن شهوة تراوده دائمًا، واستمر يحث فى سيره، دون أن يهرول لأنه يعرف أن ذلك يدفع الناس وراءه. من محطة خدمة اشترى زجاجة مياه وخرج من المحل لينظر إلى دراجة نارية تهدر وهى واقفة. سار بن إليها مدفوعًا بحبه للماكينة اللامعة البراقة القوية. وقف يبتسم ابتسامة السرور الصغيرة . خنق الشاب صاحب الماكينة أية شكوك خطرت له بصدد هذا الرجل الملتحى غريب المنظر لأنه رأى فيه نفسه، ولوعًا مثله، فقال له "راقبها لحظة " ودخل إلى المحل. حين خرج كان بن يربت على المقبضين وثمة نظرة على وجهه أجبرت الشاب الذى لا يطيق عادة أن يلمس إحدى ماكينته أن يقول "اركب " وقفز بن وانطلق الاثنان.

"أين تذهب؟"

صاح بن فى وجه الريح "فى هذا الاتجاه"

زمجرت الماكينة العظيمة وهدرت وشقت طريقها. كانا يتمايلان وسط الزحام وكان بن يهدر أيضًا : شيئًا مثل أغنية أو صيحة انتصار والسائق الشاب كان يسمع كل هذه الضوضاء خلفه و يضحك ويصرخ أيضًا وبدأ يغنى أغنية حقيقية لم يكن بن يعرفها رغم إنه شارك فى غنائها.

كانت هذه مدينة صغيرة ، استدارت الدراجة النارية بحدة إلى اليسار وفى لحظة تركت الشوارع

خلفها وانطلقت باتجاه الريف، ولكن بن كان يصرخ "أنزلنى هنا ، أنا ذاهب فى الطريق الخطأ "

صاح الشاب "لماذا لم تقل؟" واستدار بالماكينة استدارة خطرة أمام السيارات والشاحنات وأسرعا إلى مركز المدينة. "هنا؟" صرخ الشاب أجابه بن صارخًا "نعم" .

كان على الرصيف فى مركز المدينة، والدراجة كانت تسرع مبتعدة والشاب يرفع له إبهامه عاليًا.

أدار بن وجهه حيث يعرف الطريق وسار فيه وهو يفكر بالدراجة النارية وأسنانه تبرق بيضاء من بين لحيته من السعادة. لقد غطيا مسافة كبيرة. سوف يصل بن إلى مايريد أن يصل إليه قبل ساعات مما اعتقد. وفى الواقع هاهو يسير فى الطريق الذى يعرفه جيدًا فى منتصف الظهيرة. هاهو المنزل. المنزل الكبير الرائع الذى تحيطه الحديقة من كل جوانبه وهناك .. كان ينظر إلى النوافذ ذات القضبان وفجأة انتابه غضب بارد، شديد. قضبان. القضبان كانت من أجله. لقد وقف هناك وهز تلك القضبان بقبضتيه القويتين ولكنها لم تتزحزح مطلقًا. إلا أن قشورًا من الطلاء تساقطت من الحائط الذى ثبتت عليه القضبان، مما يعنى عبث قوته. ولكن الغضب الذى يستشعره الآن يتضاءل أمام حاجة أقوى ، تشده إلى البيت. أمه ، كان يريد أن يرى أمه. بسبب عطف تلك السيدة العجوز ، جال بخاطره عطف آخر وفهم أن

هـذا مـاكـان: هـى مـثل الـسـيـدة الـعـجـوز، لم تؤذه وقـد جاءت لـتنقـذه من ذلك المكـان .. ومن الـبـاب الأمامى خرج أطفـال صغار يتراكضون. لم يعرفهم وفكر: طبعًا لقد انتقلت عـائلتى ولن تكون أمى هنـا الآن. واستدار من المنـزل، بيته، وبدأ يمشـى فـى هذا الـطـريق وذاك. عبر الـشـوارع ، مثل كلب يتـأثر بـرائحة، ولكنهـا لم تكن رائـحـة يطـاردهـا. فـقـد رأى فـعلا الـبـيت الآخـر الـذى انتقلت إليه الـعـائلة.. ولكن انتظر، كان ثمة منزل آخر، بعد ذلك، وكان عنوان ذلك المنـزل الذى كتبته أمه على الـورقـة المقـوى الـكـبـيـرة. كـان ذلك هـو المـنـزل الـذى يتحرك نـحوه ولكنه لم يكن البيت الـذى يحتـاجه. لم يسبق له أن ذهب إلى المنـزل الـذى يسكنون فيه الآن، ولا يـعـرف كيف يـصل إليه. ولـيس فـى ذهـنـه خـارطـة للشوارع والروائح والأشجار والأبواب. ماذا الآن ؟

خيبة أمل مثل عواء آذت صدره ثم فكر: انتظر، المنتزه، ستكون هناك. وذهب إلى المنتزه الصغير حيث كان يلعب مرارًا مع إخوته وإخواته، أو بـالأحرى حيث كـان يـراقـبهم وهم يلعبـون؛ لأنهم كانـوا يشـتـكون من فظاظته. حين كان يلعب فمع نفسه أو مع أمه.

كانت هنـاك مـصطـبـة يعرفـهـا جيـدًا. كانت أمه تحب ذلك المنتـزه وتلك المصطبة، وكانت تجلس هنـاك أحيـانًا طوال وقت مـا بعد الـظهـيـرة. ولـكن المـصطبة كانت فـارغة. كان بن يفهم شيئًا واحدًا ، إنه إذا تمشى طويلاً فـى مكـان مـا فإن النـاس يبدعون فـى ملاحظته. وقـد تـمـشـى وقـتًـا طـويلاً حـسـبـمـا تجـرأ، وهـو يـلـقـى

نظرات على وجوه الناس بحثًا عن "النظرة" ثم جلس على مصطبة يستطيع منها أن يرى (المصطبة) التى كان يعتقد أنها خاصة بأمه. انتظر. وشعر بالجوع ثانية. ترك المنتزه للبحث عن المقهى الصغير الذى كان يرتاده مع عصابته، العصابة التى رأسها وقادها، ولكن المقهى كان قد اختفى. اشترى ساندوتيش لحم من ماكنة وعاد إلى المنتزه وهناك رآها، رأى أمه، تجلس مع كتاب فى يدها. كان ظلها يتمدد على الحشائش ويكاد يصل إليه. كان يعيد فى ذهنه كل الأشياء التى يجب أن يسألها إياها، عنوانها الجديد، عمره بالضبط، تاريخ ميلاده، هل لديها شهادة ميلاد؟ كان يحس بسعادة غامرة تملؤه مثل ضوء الشمس، ثم وهو جاهز لأسئلته، جاهز لتحيتها، رأى قادمًا نحوها عبر حشائش المنتزه ـ بول، كان بول، الشقيق الذى يكرهه بشدة إلى حد أن أفكار قتله ملأت ساعات طفولته. هاهو هناك.. شاب طويل على شىء من النحافة وبذراعين طويلتين ويدين عظميتين وعيناه ـ ولكن بن كان يعرف تلك العينين بدون ان يراهما ـ واسعتان، زرقاوان ضبابيتان. بول كان يبتسم لأمه. ربتت على المصطبة إلى جانبها وجلس بول واحتوت الأم يد بول بين يديها. اهتز بن غضبًا حتى أن عينيه أظلمتا وكأنهما على وشك النزف. كان يريد أن يزيحه و .. كان ثمة شىء واحد يعرفه، وكان يعرفه جيدًا، بسبب أشياء سيئة كثيرة حدثت.. كانت هناك بعض المشاعر المعينة التى لا يُسمح له بها. وحتى يغادره هذا الكره

وهذا الغضب فلن يستطيع أن يقترب من أمه، من أخيه بول. ولكن المشاعر كانت تزداد سوءًا، كان بالكاد يستطيع أن يتنفس، ومن خلال عينين حمراوين شاهد أمه وذلك الجلاد، النصاب الذى حال دائمًا بينه وأمه، يقفان ويسيران معًا مبتعدين. تبعهما بن ولكن على مسافة معقولة. وقد تحول غضبه الآن إلى إصرار ألا يدعهما يريانه. لم يلبد متخفيًا ، ذلك للغابات، وإنما وقف منتصب القامة، وسار هادئا، سار خلف الاثنين. ثم كان هناك منزل أكبر من المنزل الذى انتقلوا إليه أولا، له حديقة ، ورآهما يفتحان بوابة ويتركانها ترتد ويدخلان المنزل معًا.

فكر بن فى الأمر محاولاً الوصول إلى نتيجة. المنزل الذى انتقلت إليه أمه بعد المنزل الكبير. كان صغيرًا. يتذكر قولها: " يكفى إنه يسعنى أنا وبول" والتى فهمها على أنها "ولكنه لا يسعك أنت أيضًا". إذا انتقلت إلى منزل أكبر فهذا يعنى أن الآخرين هناك أيضًا ؟ أو بعضهم ؟ وهو يعرف أنهم كلهم قد كبروا ولكن ما يذكره هو نمو العائلة ـ نمو الأطفال. فى ذهنه ، ذلك البيت كان مزدحمًا بالأطفال والناس. لن يكون هناك مكان للكثير من الناس فى هذا المنزل.. كان عليه أن يبطىء غليانه، أن يهدأ قليلاً، أن يفقد الرغبة فى القتل. دار حول مربع المبانى، عاد، تسكع فى الجوار، عاد، وكانت واجهة هذا المنزل الجديد هذا تبدو جامدة مثل وجه غير ودود. ثم رأى والده يمشى بسرعة على الرصيف. كان يمكن له أن يرى بن

لو رفع عينيه ولكنه كان مقطبًا، منهمكًا بالتفكير، ولم يرفع عينيه. كان بن يعرف أنه لا يستطيع أن يتلكأ هناك مدة أطول. فالناس يلاحظون، للناس عيون ترصد دائمًا، حتى لو حسبت أنك لا ترى إلا جدرانًا ونوافذ مصمتة. كانت ثمة عيون من حيث لا تدرى. دار حول مربع المبانى مرة أخرى وفى هذه المرة رأى ليوك يدخل المنزل و معه طفل صغير: أن يكون ليوك أبًا، فكرة لايمكن استيعابها أبدًا. خطر فى باله أن العائلة كلها موجودة هنا ـ عائلته. يمكنه أن يدخل عليهم ويقول "ها أنا " ثم ماذا؟ يعرف أنهم تفرقوا بسببه ، تشاجروا حوله. لم يقف معه إلا أمه. جاءت إليه فى ذلك المكان الذى يحتفظون به بخراطيم مياه مجمدة وأخذته إلى البيت.. ولكن الآخرين أرادوا أن يظل هناك، أرادوه ميتًا.

الظلام ينتشر، ومصابيح الشوارع مطفأة ، والليل الرفيق يهبط. ولكن فى الليل يجب ألا تتسكع على الرصيف أمام منزل ما. تجاوز المنزل الذى التمعت أنواره برفق عليه ، تدعوه للدخول. سار عائدًا مرة أخرى. سمع أصوات التليفزيون. يمكنه أن يدخل ويجلس لمشاهدة التليفزيون معهم. وهو يفكر فى ذلك تراءى له كيف أن بول سوف يصرخ بأنه لن يستطيع أن يبقى معه فى نفس الغرفة، تراءى له وجه والده الجامد الذى يبدو مشيحًا عنه أبدًا. لنفترض أنه دخل مباشرة وقال لأمه:" من فضلك أريد شهادة ميلادى.

أعطنى الشهادة وسوف أغادر"ولكن الغضب كان يتجمع فى صدره ، كل مارآه هو بول الذى يمقته كثيرًا . وكان الغضب يجعل أصابعه تتلوى، كانت ثمة رغبة ليضع هذه الأصابع حول تلك الرقبة النحيلة التى سوف تطقطق وتتكسر...

مشى بعيدًا عن عائلته، غادرها إلى الأبد، وقد أطفأ الألمُ الذى شعر به غضبه. أحس برطوبة تبلل لحيته وتسيل على ذقنه. كان جائعًا مرة أخرى. يجب أن يكون حذرًا، أناس الليل يختلفون عن أناس النهار. الأفضل عدم المجازفة بالجلوس فى مطعم.. وهكذا ذهب إلى مكدونالد واشترى قطعة لحم سمينة. رمى السلطة والخبز والتهم اللحم وهو يمشى. ثم وجد نفسه خارج المدينة. فى اتجاه لندن، إلى المرأة العجوز. كان قد تبقى معه خمسة باونات ولم يكن من المحتمل أن يحالفه الحظ مرة أخرى بدراجة نارية. كان حزينًا جدًا ووحيدًا جدًا، ولكن العتمة كانت بيته والليل كان مَرْبعه، والناس لاينظرون إليك بشكل خطر فى الليل، هذا إذا لم تكن معهم فى نفس الغرفة. أصبح الآن على الطريق الريفى وكانت السماء فوقه مضببة ترقفها النجوم التى تسبح عبرها غيوم خفيفة. قربه كان ثمة أثلة من الأشجار، ليست غابة ولكن ملاذ كاف له. وجد شجيرة احتمى بها ونام. صحا مرة ليجد قنفذًا ينخر ويتشمم قرب قدميه. كان يستطيع لو جلس أن يصطاده ولكن ما منعه لم يكن الخوف من الشوك فى راحة يديه ولكن الإحساس بالشوك على

لسانه. لا يمكنك أن تعض جسم القنفذ كما تفعل مع الطير. استيقظ عند أول نسمات الفجر المنعشة. لم يكن هناك طيور. كانت هذه مجرد شجيرات متناثرة والمنازل تلوح من بعيد وكان يمكنه أن يسمع صوت مرور السيارات. يمكن أن يصل غايته فى لندن عند منتصف النهار. أمامه ساعات من السير الحذر اليقظ. ـ ومعدته، آه من معدته ، كم كانت تتوسل الطعام. كان جوعه مؤلمًا وخطرًا. لم يكن جوعًا سهلاً: إن طعم الخبز الرهيف لن يشبعه . كانت رغبته فى اللحم ، وقد استروح طزاجة الدم، رائحته القوية. كان جوعه خطرًا . أحيانًا حين كان يذهب إلى محل جزار، تشده إلى هناك الرائحة، كان جسده يبدو متورمًا بالرغبة وذراعاه ممدودتان بدون إرادته إلى اللحم. مرة انتزع قطعة لحم وبدأ يقضمها، وكان ظهر الجزار إليه ثم جعله صوت النهش يستدير ولكن بن هرب، وبعد ذلك لم يذهب مرة أخرى إلى تلك المحلات. والآن يفكر وهو يسير كيف يمكن أن ينشب يديه فى لحم بدون أن ينفق جنيهاته الأربعة.

أخذته قدماه إلى ـ وقف خارج موقع بيناء، ينظر إلى مشهد تراب مبلل مكوم ومكائن والرجال يرتدون خوذًا صلدة. كان قد عمل هناك لبعض الوقت، وقد قبلوه بسبب منكبيه العريضين وذراعيه اللتين يمكن أن يسندا العوارض والدعامات التى تحتاج إلى رجلين أو ثلاثة لرفعها. وكان الآخرون يقفون يتفرجون عليه وهو يرفع ويسند بكتفيه ويحمل. كان يريد أن ينضم إليهم،

إلى نكاتهم، أحاديثهم ولكنه لم يكن يعرف كيف يفعل ذلك. لم يفهم أبداً على سبيل المثال لماذا كانت طريقة كلامه تثير الضحك. كانت عيونهم وهى تنظر إليه جادة وحذرة. وفى نهاية الأسبوع ، يوم الدفع. كان كل هؤلاء الرجال يعملون بشكل غير قانونى لسبب أو لآخر وكانت أجورهم أقل من نصف أجور النقابة. ولكن بن كان يكسب نقوداً كافية لمساعدة المرأة العجوز وكانت سعيدة بذلك. بعد أسبوعين من العمل.. وصل رجل جديد ومن أول وهلة وضع بن فى دماغه. كان يسخر منه، ينخر ويعوى. ولم يفهم بن فى أول الأمر أن هذه الأصوات كان المقصود بها أصواته، كما لم يفهم فوراً لماذا كان الرجل يدفعه ويحتك به بخشونة ومرة بشكل خطر حين كان بن واقفاً فى مكان عالٍ والشوارع بعيدة إلى الأسفل وكانت قدماه تتنقلان من عارضة إلى عارضة فوق الفضاء. وقد تدخل مراقب العمال بحدة ولكن بعد ذلك ظل بن يرصد الشاب عن كثب، وكان شاباً أحمر الشعر، لا تفارق الابتسامة فمه، لاهياً، يحب استعراض نفسه. وحاول بن أن يتجنبه. أسبوع آخر. كانت الأجور تدفع داخل ظلة صغيرة اعتاد الرجال اتخاذها ملاذاً للراحة أو من المطر. وكان هو وذو الشعر الأحمر فى آخر طابور الدفع، وكان هذا ما خطط له عدوه، لأنه حين استلم بن المظروف فى يده اختطفه الشاب وركض به، وهو ينخر ويحك نفسه ويقعى ويقفز: وكان بن قد أدرك أن هذه محاكاة لحركات القرد. كان قد زار حديقة

الحيوانات متنقلاً من قفص إلى آخر ينظر إلى الحيوانات التى كتبت أسماؤها قرد ـ بابون ـ الرجل الخنزير ـ بونجو ـ إنسان الغاب. لم يكن هناك إنسان غاب فى القفص ولا بونجو. وكان يحدوه الفضول حولهما؛ لأنه كان يعرف أنه يبحث عن شبيه له.

نظر بيأس إلى المراقب، آملا أن يستطيع حمايته، ولكنه رآه يبتسم ورأى على وجوه الرجال الواقفين، والظروف فى أيديهم تلك النظرة، تلك الابتسامة. وكان يعرف أنه لن يحصل على المساعدة منهم. لقد عمل أسبوعًا كاملاً بدون مقابل. كانت الرغبة فى القتل تملؤه حتى اضطر إلى المغادرة وقد سمع المراقب يناديه قائلاً: " إذا أتيت يوم الإثنين، سيكون هنا شىء لك" لم يقصد النقود وإنما عمل لأن كتفيه العظيمتين قد وفرتا على الآخرين جهدًا كبيرًا. وقد عاد يوم الإثنين، نظر أولا على الموقع، ويداه على السلك الحاجز كما لو أنه داخله وليس خارجه. كما لو انه فى قفص، وفى الأسفل كان الرجال الذين عمل معهم، ولكن ذا الشعر الأحمر لم يكن هناك بسبب خشيته من العودة بعد اختطافه أجر بن. وقد عمل بن ذلك الأسبوع ببطء وحذر يراقب الوجوه والعيون، مبتعداً عنهم أو واضعًا نفسه فى موضع من يأخذ الأثقال الكبيرة التى كانت سهلة عليه ولكن ليست عليهم . ثم فى آخر الأسبوع كان فى مظروفه نصف الأجر الذى يستحقه. كان يعرف أن أجره هو نصف ما يأخذه البناءون الحقيقيون، العمال الذين يعملون بشكل

قانونى، ولكن هذا كان نصف ذلك النصف. وكان المراقب يطرده بعينيه الثابتتين. لم يكن هو المراقب المعهود فقد كان ذلك مريضًا. لقد جاء هذا الرجل قبل يومين من عمل آخر، ليملأ الفراغ. وقف الرجال حوله يراقبونه، ووجوههم خالية من أى تعبير. كانوا يتوقعون منه أن يشتكى، أن يثير ضجة، أن يبدأ عراكًا. كانوا يثبتون أعينهم على ذراعيه الضخمتين وقبضتيه. ولكن بن كان حكيمًا. عرف أنه لن يفوز. نظر حوله بعناية، من وجه إلى آخر فرآهم ينتظرون ورأى أيضًا واحدًا على الأقل كان يشعر بالأسى نحوه. كان هذا الرجل قد قال شيئًا للمراقب الجديد الذى أعطاه ظهره وغادر ونقود بن التى يستحقها فى جيبه.

هذا الموقع ، وهذا المكان مدين لـ (بن) بمبلغ أربعين جنيهًا. نعم المراقب الحقيقى كان هناك، يقف على مبعدة من الآخرين الذين كانوا يشدون سلكًا من بكرة سلك ضخمة. هبط بن. رأى أن رجلاً ثم آخر من العمال وآخر رأوه قادمًا فتوقفوا. وقال الرجل الذى كان قد تكلم فى صالحه، شيئًا للمراقب. كان بن يريد أن يأخذ تلك النقود و يهرب خوفًا من أولئك الرجال. كان يستطيع أن يبطح أى واحد منهم أرضًا بحركة من مرفقه أو لطمة من يده ولكنهم يستطيعون أن يتجمعوا حوله، وهذا ماكان يبعث الارتعاش فيه وهو يقف هناك. كان شعر جسمه كله واقفًا. وقف المراقب يفكر ثم استدار قليلا وسحب من جيبه رزمة نقود وعدها وأعطى بن عشرين جنيهًا. والآن نظر

الجميع إليه ليروا ماذا يمكنه أن يفعل ولكنه لم يفعل شيئًا، بل سار مبتعدًا. ومع هذا كان هنا حيث اكتسب نقوده، وكان يأمل أن يعمل مرة أخرى ولكن إذا عمل هنا يمكن أن يتوقع أن يسرق واحد أو اكثر نقوده وأن يغشه المراقب. استدار إلى أول المرتفع خارج الموقع ورأى العمال يستأنفون فك السلك وهم مازالوا يراقبونه. صعد مبتعدًا عن طريقهم. ذهب إلى ميموسا هاوس. كان المصعد ساكنًا لأنه كان عاطلاً. صعد بن السلم قافزًا، سعيدًا لأنه على وشك أن يرى المرأة العجوز ولكن حين دق على الباب لم يرد عليه أحد.

فتحت الباب المقابل امراة قالت له: " لقد ذهبت إلى الطبيب" وكان معها مفتاح الشقة، وكان بن يعرف أنها والمرأة العجوز صديقتان، وكانت هى قد رأت بن داخلاً خارجًا. فتحت الباب وقالت لـ (بن) "سوف ترجع قريبًا. لا نعرف كم عليها أن تنتظر ولكنها فى صحة سيئة ، وقد قلت *لها إنها* يجب أن تذهب إلى الطبيب"

فى الداخل كانت الغرفة المرتبة غالبا، فى حالة فوضى. أولا كان الفراش قد أزيح بعجلة. وعليه فزت القطة مستيقظة، وشعرها واقف. لم يفتش بن فى الثلاجة. كان يكره مذاق الأكل البارد وأيضًا لم يرغب فى أكل طعام المرأة العجوز. جلس على السرير متجاهلا القطة ونظر إلى الخارج. كان ينتظر حمامة أن تحط على الشرفة . غالبًا مايفعل الحمام ذلك.

أدارت القطة رأسها للمراقبة أيضًا. تفصل بينهما مسافة قصيرة، بدون أن ينظرا إلى أحدهما الآخر، كانا متحدين فى انتظار مايأتى. لم تكن الباب المفضى إلى الشرفة مقفولاً. فتحه بن على مصراعيها. شطرت الباب الشرفة الصغيرة شطرين. ثم لم يتحرك بن أو القطة. أخيرًا جاءت حمامة ولكن إلى الشطر الخطأ، آمنة، خلف الباب، ثم بعدها بقليل جاءت حمامة إلى الشطر الذى... قفز بن وكان الطير فى يده. كان منهمكًا بنزع ريشه حين سمع صوت القطة التى تموء كلما رأت طيرًا هناك أو على السياج. كان صوتها أجش جائعًا. سلخ بن شيئًا من لحم الطائر ورماه لها. زحفت القطة وأكلت. كان الدم يتقاطر من فميهما. ثم لم يعد سوى ريش يتطاير وبعض بقع دم. عادت القطة للدخول. وكذلك بن. لم يكن ذلك كافيًا. هذه اللقيمات من اللحم ولكن مع ذلك فقد هدأت معدته. رأى عينى القطة تنغلقان، كانت علامة على الثقة به إلى حد النوم. تكور بن إلى جانبها على السرير. وحين جاءت السيدة بجز، مساءً، كان المخلوقان ينامان إلى جانب بعضهما. فهمت فورًا كل شىء، بعض الريش الملتصق ببقع دم على الشرفة، رائحة الدم، وحقيقة أنه لا يفصل ظهر بن عن ظهر القطة سوى بضعة انجات. لم تكن على مايرام ، وازدادت وطأة المرض عليها ونهش الألم قلبها. ولكنها كانت مرهقة بعد انتظار طويل فى عيادة الطبيب بين أناس آخرين يشتكون، وقد أعطيت بعض الحبات. ولكن ماذا كانت تتوقع؟ وبخت نفسها -

شفاء؟ وضعت بعض الأكياس على المنضدة وفكت الشال الذى تلف به رأسها وشربت ماء من الحنفية ثم وقفت فترة تنظر إلى سريرها العتيق الكبير ـ إلى القطة وإلى بن. تمددت على حافة السرير، راقبت الظلال تطوف على السقف ثم هبط الظلام. كان بن ينام نومه البائس الصاخب. كانت القطة وديعة وهادئة مثل.. قطة. غفت المرأة العجوز وهى تحس بقلبها يدق بألم فى جوانبها. صحت لأن بن كان صاحيًا ويضغط بظهره عليها.

قالت فى الظلام "بن . لست فى صحة جيدة. سأنام فى السرير يومًا او اثنين للراحة " صدر عنه صوت يعنى أنا أستمع. "هل جلبت الشهادة ؟" صمتٌ من بن وشىء مثل أنين. "هل رأيت أمك؟"

"رأيتها فى المنتزه"

كانت تعرف الجواب ولكنها سألت"هل تكلمت معها؟ " اقترب منها بن وأطلق أنينًا مرة أخرى. " لا أعرف ماذا أقترح أيضًا يابن . كنت سأذهب معك إلى المكان ـ أنت تعرف . قلت لك عنه ، حيث تحصل على الشهادة ولكنى لست على مايرام"

"عندى نقود . عندى عشرون جنيها"

"لن تكفى هذه لمدة طويلة يابن" كان يعرف أنها ستقول ذلك وهو يوافقها.

"سوف أحصل على المزيد"

لم تسـأله كيف. كـان قـد روى لـهـا قـصـة موقع البنـاء وكيف غشوه . سـوف يتعرض للغش دائمًا. بن المسكين . كانت تعرف كما يعرف هو ذلك .

حـين أطل الـصـبـاح لم تنهض من الـسـريـر ولـكن ظـلـت ممـددة علـيـه تـتـنـفس بـبطء وحـذر. قـالـت "بن أريدك أن تذهب إلى الحمام ، تخلع ملابسك وتغسل نفسك . رائحتك نتنة"

فعل بن كما قالت لم يغسل نفسه جيدًا هكذا منذ فـتـرة طويلة. ولـكنه تذكر مـاكـانت تفعله وفعل الشيء نـفـسـه. ولـكـن الآن عـلـيـه أن يـعـاود ارتـداء ملابـسه القذرة.

قـالـت:" ابـحث عن مـلابـسك الـقـديـمـة. إنـهـا في الدولاب. وخذ ملابسك الجديدة إلى محل التنظيف وحين تعود بها هنا، البسها مرة أخرى ."

كان يعرف أين يجد محل التنظيف. "كيف أعود مرة أخرى إذا كنت نائمة ؟"

"المفتاح على المنضدة. واشتر بعض الرغيف وشيئًا تأكله . واحذر يا بن "

يعرف مـاذا تـعنى ؟ لاتسرق. لا تـغـضب. راقب نفسك.

فعل كل ما طلبت منه ثم ذهب إلى محل صغير واشترى خبزًا لها ـ رائحة الخميرة دائمًا تدفع الغثيان إلى نفسه ـ وبعض اللحم لنفسه وأيضًا، علبة من أكل

القطط. فعل كل ذلك بنجاح ، وفتح الباب بالمفتاح ودخل البيت وارتدى ملابسه النظيفة. كان منتصف النهار.

كانت السيدة بجز تجلس إلى المنضدة. ويدها إلى جانبها .

"أصنع لى قدحًا من الشاى يابن"

لبى طلبها .

"وأعط القطة شيئًا "

فتح العلبة التى اشتراها للقطة وراقبها وهى تقعى لتأكلها.

قالت "أنت ولد طيب يابن" واغرورقت عيناه بالدموع ، وسمعته وهو يطلق نوعًا من النباح، يعنى أنه يريد أن يشكرها، معبرًا عن حبه وامتنانه لتلك الكلمات التى لم يسمعها من قبل إلا منها. وكانت على وشك أن ترفع يدها وتربت عليه مثل كلب، ولكنه لم يكن كلبًا، ليس من تلك الفصيلة .

شربت شايها، وطلبت بعض التوست ثم تمددت مرة أخرى ونامت والقطة إلى جانبها. وكان بن فى ملابسه النظيفة فى قمة نشاطه يشعر بشىء مثل السعادة بسبب تلك الجملة الودودة " أنت ولد طيب" لم يشعر بالرغبة فى النوم ولكن اضطجع على حشيته وغفا آملا أن تستيقظ المرأة العجوز، ولكنها نامت طوال الليل واستيقظت فى الصباح المبكر. مرة أخرى

طلبت هذا وذاك، شايًا، تفاحة، طعامًا للقطة فى صحنها. جاءت الجارة ورأت بن هناك يحمل الأكواب والصحون إلى المطبخ وشعرت بالسرور؛ لأنها كانت تدافع عن بن أمام الجيران الآخرين أو من كان يراه على السلم. الآن تستطيع أن تقول إن بن كان يعتنى بالسيدة بجز.

عقد مؤتمر مصغر عند السرير. كان امتناع المراة العجوز عن النهوض من السرير شيئًا جديدًا كانت الجارة تفهمه جيدًا، ولكن من سيعتنى بها؟ طلبت منها السيدة بجز أن تأتى لها بمعاشها؛ لأنها كانت تشعر بالوهن ـ واعتذرت وهى تطلب منها ان تفرغ صندوق فضلات القطة . كانت المرأتان تدركان أن بن لايستطيع أن يقوم بذلك : مجرد الفكرة .. مستحيلة. حتى لو كانت القطة قد اطمأنت له ولم تعد تجلس وعيناها مثبتتان على بن. حين عادت الجارة بمعاش السيدة بجز وضعته على المنضدة، وقالت وهى تنظر إلى بن "هذا لايكفى غيرها والقطة"

قالت المراة العجوز" كان يستخدم نقوده لشراء أشياء لى "ولكنهم جميعًا كانوا يعرفون الوضع.

قالت الجارة "هذا جيد إذًا" وذهبت لتنشر الأخبار بأن إنسان الغاب كان يعتنى بالسيدة بجز كما لو كان ابنها.

وهكذا مر الوقت، هانئًا، أفضل الأوقات فى حياة بن، وهو يرعى المرأة العجوز، حتى أخذ ملابسها

وأغطية السرير إلى محل التنظيف، وطبخ الوجبات المجمدة لإطعامها ـ كان عادة ينهيها لأنها كانت تأكل قليلاً. ولكن لم يستمر هذا طويلا؛ لأن النقود كانت تطير. تطير حتى لم يعد لديه شيء منها. إذا أراد أن يبقى هناك مع السيدة بجز والقطة، كان عليه أن يكسب المزيد من المال ولم يكن يعرف كيف. كانت الجارة وهى تأتى بالمعاش تتعمد عدم النظر إلى بن وكان يعرف أن ذلك انتقاد. المرأة العجوز لم تكن تنتقده ولكنها كانت ممددة على السرير وغافية أو جالسة وغافية، يدها تضغط على قلبها قائلة "بن، قدح شاى سوف يكون ذا فائدة لنا معًا. أنا متأكدة"

كان جائعًا، فقد كان يحاول أن يأكل أقل القليل. لايمكن أن يستمر على هذا الحال. أخبرها بأنه سيخرج للبحث عن عمل ورأى ابتسامتها الصغيرة الحزينة "كن على حذر يابن" قالت له وغادر بن: لم يعد له بيت فى هذا العالم.

***

سار فى شارع ـ بالأحرى قادته قدماه إلى ذلك الشارع ، مرورًا بالمسارح ومحلات الأكل ـ على الجانب الذى يتفاداه دائمًا، عابرًا إلى أن آتى إلى رصيف معين محرم. هذه المرة لم يتجاوزه . وقف خارج المسرح الذى كان يخيفه حين كان ضاجًا مليئًا بالناس، وقف على الرصيف الخالى ينظر إلى زقاق صغير كان فيه باب. كان هذا مكانًا محرمًا. كان الوقت صباحًا والسيارات

التى تعمل من مكان صغير مقفل فى الحائط يسمى نفسه "سيارات الأجرة السوبر الدولية" لم تكن واقفة هناك. فهى تأتى منذ أول المساء فصاعداً. والرجل الذى يقف خارج ذلك المكان ينظم السيارات صائحًا "خذهم إلى كامبرويل.. سويس كوتاج.. نوتنجهل .." لم يكن هناك. هذا الرجل هو ماكان يخشاه بن. فهو الذى قال له "اذهب ولا تعد مرة أخرى " كان اسمه جونستون وكان صديق ريتا.

قبل أسابيع، من عثور السيدة بجز عليه فى السوبرماركت، كان يمشى على هذا الرصيف، حذرًا كالعادة من المشاكل، حين رأى امرأة عند ذلك المدخل إلى جانب سيارات الأجرة السوبر الدولية. وقد ابتسمت له. تبع الابتسامة، صعد سلالم ضيقة خلفها ووجد نفسه فى غرفة كان يعرف أنها فقيرة وقبيحة لأنه قارنها بما كان يتذكره من بيته حين كان له بيت مع أمه. المرأة، رغم إنها حقيقة كانت فتاة، ولكن المكياج والعينين الواسعتين الجريحتين يجعلها تبدو أكبر سنًا، كانت تقف فى مواجهته، يدها على حزامها، جاهزة لانتزاعه. قالت "كم من الوقت؟"

لم يكن لدى بن فكرة عما تسأل ولكنه وقف مكشرًا عن أسنانه ـ كانت هذه تكشيرته الخائفة وليست الودية ـ ولم يجب.

"عشرة جنيهات للمداعبة وأربعون للعملية بكاملها"

قال بن " لا نقود لدى"

تقدمت نحوه ووضعت يديها فى جيوبه ، سخطًا لا توقعا. وعندها انفجرت طبيعة بن الجنسية التى كان يلجمها مثل كل غرائزه الجائعة، وانقض عليها من كتفيها، أدارها وأمسكها بقوة وأحناها حتى اضطرت أن تضع يديها على السرير للإسناد. رفع تنورتها بيد واحدة وشد ملابسها الداخلية وأخذها من الخلف، أخذا قصيرًا، حادًا وخشنًا، منشبًا أسنانه فى رقبتها، وحين بلغ الذروة أفلت نباحًا ناخرًا لم تسمع مثله من قبل. أطلقها. واستقامت واقفة، أزاحت شعرها الأشقر عن وجهها ووقفت تنظر إلى وجهه ثم إلى فخذيه المشعرين. كان الشعر الكثيف مألوفا لديها وكانت تسخر مع جونستون بأن بعض الرجال الذين يأتونها كانوا مثل الشمبانزى ـ ولكنها كانت تحاول ان تكتشف من تلك الساقين القويتين المشعرتين لماذا يختلف هذا الزبون هذا الاختلاف الكبير؟ هذا التساؤل، هذا التفحص، غير العدائى كان فيه شىء جعله يمسكها مرة أخرى ويطويها ويبدأ مرة أخرى. كان جائعًا للجنس منذ زمن طويل، وكما لو أنه لم ينه جولته الأولى لتوه، أنشب أسنانه فى رقبتها وسمعت نباحه الأجش المنتصر.

قالت "لحظة . انتظر لحظة"

دفعته فجلس على السرير وجلست هى على كرسى مقابل. كانت تحتاج إلى بعض الوقت. هذه التجربة ـ هذا الاغتصاب ـ فهذا هو ماحصل ـ كان

ينبغى أن يثير غضبها وازدراءها فهذا ماكانت تشعره عادة مع زبائنها ولكنها كانت مهتاجة بالاغتصاب المزدوج، باليدين القويتين اللتين أمسكتا بكتفيها، والأسنان فى عنقها وفوق كل شىء، ذلك النخير الأشبه بالزئير. كانت تجلس وهى تتحسس مكان عضته ولكنها لا تستطيع أن تجد جرحًا. أخرجت مرآة صغيرة من حقيبتها ولوت عنقها لترى ـ كلا جلدها لم يجرح، ولكن كان هناك ندبة وسوف تكون ثمة أسئلة من جونستون.

كل ماكان يريده بن هو أن يتمدد على السرير إلى جانبها، وينام. كان يفكر بشدة. حين كان قائد عصابة الأولاد، الأولاد الأشرار الذين كان الجميع يخشاهم، كانت هناك بنات، وواحدة أعجبت به. حاولت أن تغيره قائلة" ولكن بن، دعنا نجرب هذه الطريقة، استدر، ماتفعله ليس لطيفًا. مثل الحيوانات" وقد حاول، ولكنه لم يستطع أن يفعل ما طلبته؛ لأنه حين يكون معها وجهًا لوجه، كانت الرغبة الغاضبة العاصفة للامتلاك والهيمنة تخمد. وكانت النتيجة هى إنهما إذا كانا يريدان المضاجعة فلا بد أن تكون على طريقته، وسرعان ما سئمته بل كرهته. وبعد عدة محاولات رفضت أن تراه مرة أخرى وانتشرت بين البنات أن بن غريب الطباع وأن هناك شيئًا غير طبيعى فيه.

مع هذه الفتاة ريتا، يعرف أنها أحبته واحبت ما فعله.

دق جرس أو بالأحرى دندن من الحائط وكان هذا علامة على وجود زبون وأن جونستون فى الأسفل وزمام الامور فى يده. نهضت وضغطت على الجرس وقالت لـ (بن) "عليك أن تذهب الآن"

قال "لماذا ؟" لم يفهم أى شىء. كل ما أدركه هو إنها أحبته.

قالت "لأنى أقول ذلك " كما لو إنها تخاطب طفلا، وهى تفكر بأنها لا تتذكر أنها خاطبت زبونًا بهذه الطريقة من قبل. "اذهب" ثم أضافت" إذا أحببت يمكنك أن تأتى مرة أخرى ـ فى الصباح، فقط" ودفعته خارج الغرفة وهبط على سلمها القبيح وهو يرفع سحاب بنطلونه كما فعل الكثير من الرجال قبله.

على الرصيف حدق فيه رجل طويل فظ المنظر، ثم نظر إليه مرة أخرى. الناس دائمًا يلقون نظرة أخرى عليه .

كانت تلك زيارته الأولى لريتا وفى الصباح التالى ذهب إليها مرة أخرى. وفى هذه الأثناء كانت قد أخبرت جونستون عنه. كانا يضطجعان على السرير يدخنان فى وقت متأخر جدًا بعد توقف حركة السيارات. كان حاميها وكان يأخذ نسبة ولكنه لم يكن غيورًا. وكان طيبًا معها بطريقة لا مبالية. وقد فحص أماكن العض على رقبتها: علامات أسنان ظاهرة. وقد استمع إلى سرد مطول للعملية الجنسية. وكان هذا لأنها أحبت أن ترويها له ولكنه فى العادة لايهتم بذلك. وشرحت له أن المسألة كانت كأنها ليست مع رجل وإنما حيوان "تعرف ، مثل الكلاب".

قال جونستون "ولكنك أحببت ذلك منه" قالها لتتذكر فيما بعد أنه يعرف. كان يشعر بشيء من الفضول لا الغيرة.

المناسبة الثانية كانت مثل الأولى، ولكنه فعلها مرة واحدة مما أحبطها رغم إنها لم تكن تريد أن تعترف بهذا لنفسها، حيث تعودت أن يتركها زبائنها باردة. ولكن كانت تلك الصيحة المنتصرة فوق رأسها وذلك الشعور بالعجز بين يديه الضخمتين المشعرتين وعنف الاختراق ـ حسنًا كل ذلك كان يزيدها حماسًا ولكن لوقت قصير جدًا. وقد أخبرته بذلك. وهذا لم يكن مثلما كانت تقول له تلك البنت أن يضطجعا وجهًا لوجه ثم يقبلان بعضهما. وقد فهم ماتقوله، فى عقله على الأقل، وترك بنطلونه يسقط وتركها تستغله. ولأن هذا الفعل أعقب بسرعة الجولة الأولى فقد استطاع الاستمرار، واستمع إلى صرخاتها بفضول ودهشة، ولكنه كان سعيدًا لسعادتها.

فى تلك الأثناء لم يكن لديه نقود. حرفيًا لم يكن لديه ثمن ساندويتش برجر، طعامه المفضل. وكانت تعطيه نقودًا تكفيه للطعام. كان الوقت صيفًا وكان فى الليل يجد مصطبة أو مدخلاً. وكانت تسمح له أن يستحم فى حمامها الصغير. وكانت تشذب له لحيته. استمر هذا حوالى شهر حتى اكتشف جونستون أنها تعطيه مالا وقال "الآن يكفى هذا ، ريت . وكانت قد أدمنت على بن وطرقه الحيوانية ولم تكن تريد أن تتوقف. وقد أخبرت صديقة لها، عاهرة من الشارع

المجاور، وأخذت بن إلى غرفتها وهى مكان فقير آخر كما كانت غرفة ريتا وقد أحبت المرأة ماكان بن يفعله رغم أنه كان يفضل أن يكون مع ريتا، وقد أعطته شيئًا من النقود مقابل خدماته. ولكن حاميها أو صديقها لم يكن متسامحًا مثل جونستون وحين اكتشف المسألة أمرها ألا تقارب بن مرة أخرى. وكان يعرف جونستون وقد حذر الاثنان بن وهدداه.

وهكذا توقف بن عن الذهاب إلى ريتا وإذا صدف أن وجد نفسه فى نفس الشارع، كان يتجنب العبور إلى ذلك الجانب، وإذا رأى ريتا كان يسرع فى الهرب. لم يكن يخشى الضرب؛ لأنه كان على يقين من أنه يستطيع تدبر أمر جونستون والآخر إذا هاجماه معًا. ولكنه كان يتجنب أن يلاحظه الآخرون، أن يجلب الانتباه لنفسه وهذا ما ينبغى ألا يفعله.

بعد أسبوع من تلك الحادثة، وجدته السيدة بجز فى السوبرماركت.

والآن ، لأن هذا هو المكان الآخر فى العالم الذى يمكنه الذهاب إليه ويجد الترحيب بابتسامة، فقد عبر الشارع الصغير ومر بسيارات الأجرة السوبر الدولية، وصعد السلم. كان الباب مغلقًا. وكان يعلم وجوب النقر على الباب؛ لأنها قد تكون مع شخص آخر ولكنه الآن أطلق صرخة مثل خوار ثور وفجأة فتحت الباب وسحبته إلى الداخل وأقفلته وراءه.

كانت ريتا غاضبة من جونستون لطرد بن، وقد ذكرته بأن الاتفاق بينهما كان ينص على أن تمتع

نفسها مع زبائنها، وأن النقود التى أعطتها إلى بن
كانت مجرد فتافيت لا تقارن بما تكسبه فى اليوم.
وأنه لو حدث هذا مرة أخرى ـ عليه أن يحذر. وكان
جونستون يعرف أن هذا التهديد حقيقى. فهو لم يكن
يتعامل فقط مع السيارات، فقد كانت تعرف أسراره،
أو كان يظن أنها تعرف. كلمة واحدة منها للشرطة ـ
وأسوأ ما يمكن أن يحدث لها هو غرامة، وعلى أية
حال فالشرطة تعلم بمهنتها. فلها زبائن من رجال
الشرطة. كان جونستون يثق بها وقد قال لها ذلك بغير
حذر. ريتا، إذا لم تكن العاهرة ذات قلب من ذهب كما
تصورها الأساطير، فقد كانت عاقلة وذكية ومحبة
وكانت نصائحها له مفيدة.

بعد دقيقة من وصوله الى غرفة ريتا ، كانا
منغمسين بالجنس، وكان مثل شىء أصابته المجاعة.
ثم متذكرًا مطالبها، فعلها مرة أخرى حتى تستكمل
متعتها. ثم قالت وهى تسقط على السرير وتسحبه
إليها " أين كنت يابن؟"

"هو منعنى من الحضور هنا"

"ولكنى أقول لك تستطيع ، فى الصباح"

ويدأت العلاقة من جديد. كان يأتى كل صباح
وكانت تعطيه نقودًا يأكل بها وكان جونستون
يستجوبها"ماذا يعجبك فيه يا "ريت" ؟. لا أفهم "

ولم تكن هى نفسها تفهم، رغم إنها كانت تفكر
كثيرًا فى بن. لم تكن امرأة أو فتاة مجرية، فى الواقع

لما تبلغ الثامنة عشرة، فى نفس عمر بن - ولكن مسألة عمره لم تكن قد طرأت بعد. كانت تظن أنه ربما يكون فى الخامسة والثلاثين. كانت تحب الرجال الأكبر سنًا.

من الأشياء المشتركة بينهما، رغم إنهما لا يعلمان بذلك، إن كليهما عاش طفولة مضطربة. كانت هى قد تركت المدرسة وهربت الى لندن من والدين سيئين، وعملت فى السرقة والنشل لفترة ثم أقنعت صاحب المبنى الذى يضم مكتب السيارات الأجرة، وهذه الغرفة التى كانت تشغلها عاهرة أخرى، أن يعطيها الغرفة بعد مغادرة شاغلتها الأولى. وقد أقنعته، وكانت تجيد إقناع الناس والتأثير عليهم للحصول على ماتريد. لقد قابلت كل أنواع الناس ولكن لا أحدًا منهم مثل بن. كان خارج أى شىء سمعته أو رأته فى التليفزيون أو جربته. حين رأته عاريًا لأول مرة فكرت: أوه ! هذا ليس بشرًا" لم تكن مسألة الشعر الكثيف ولكن طريقة وقفته وانحناء كتفيه وعرض صدره وقبضتاه المدلدلتان وساقاه المنفرجتان. لم تر شبيهًا له من قبل. ثم كان هناك نباحه أو زئيره الناخر وهو يصل الذروة و أنينه فى نومه، ولكن إذا لم يكن بشريًا فما هو ؟ حيوان بشرى. هذا ما توصلت إليه ومازحت نفسها بشأنه: حسنًا ألسنا كلنا كذلك ؟

لم يتدخل جونستون مرة أخرى ولكنه كان ينتظر فرصة ليحول الأمر إلى فائدته. وجاءت الفرصة. طلب بن من ريتا أن تذهب معه إلى "المكان الذى

تحصل فيه على شهادة الميلاد" ولأن ريتا كانت عارفة بعالم الأعمال الطارئة سألته لماذا لم يمارس أعمالا "طارئة " لا تحتاج إلى أوراق ثبوتية، فأخبرها بقصة موقع البناء. وكان رد فعلها الأولى إنه إذا خدعه أى شخص فإن جونستون سوف يؤدبه ـ ولكنها كانت تعلم أن هذا لن يحدث. وسألته من أين أتته فكرة حاجته إلى شهادة الميلاد. وهكذا سمعت بقصة المرأة العجوز التى قالت له إن الشهادة سوف تساعدة لتلقى منافع البطالة. وسألته ريتا "ثم ماذا ؟" وهى تشعر فعلا بالفضول لما يدور فى هذا الرأس المشعث من خطط قانونية لا ضرورة لها .

وعند ثرثرتها مع جونستون ذكرت ريتا بأن بن كان يبحث عن شهادة ميلاده ليدخل عالم الأعمال الصحيحة ويحصل على منافع البطالة. وهنا وجد جونستون فرصته ، وفى المرة التالية التى رأى فيها بن خارجًا من عند ريتا أوقفه وقال له "أريد أن أتحدث إليك" وقد انكمش بن ضامًا قبضتيه متهيئًا " كلا.. لا أريد أن أحذرك من رؤية ريت ولكنى أريد أن أساعدك للحصول على أوراقك"

وصعد جونستون إلى غرفة ريتا، ولأول مرة اجتمع ثلاثتهم هناك فى تلك الغرف. جونستون وريتا يجلسان إلى جانب بعضهما على السرير فى حين يجلس بن قلقًا على كرسى متسائلاً إذا كان هذا فخًا ينصب له، وإذا كانت ريتا قد تحولت ضده. كان يحاول أن يفهم.

قال جونستون" إذا كان لديك جواز سفر لن تحتاج إلى شهادة ميلاد"

كان بن يعرف أن جواز السفر هو ما يأخذه الناس حين يسافرون. كانت هناك رحلة إلى فرنسا، والده والأطفال الآخرون فى حين بقى هو مع أمه. لم يكن يستطيع الذهاب معهم؛ لأنه لايستطيع أن يتصرف مثلهم.

قال إنه لايريد ـ أن يسافر الى أى مكان، وإنما يريد ورقة واحدة يستطيع أن يأخذها إلى المكتب؛ حيث وصفه كمكان يجلس فيه أشخاص خلف جدران من الزجاج وأمامهم طوابير من أناس آخرين ينتظرون نقودًا. واستغرق وقتًا طويلاً حتى يفهم من جونستون. مقابل الجواز الذى يستطيع جونستون أن يحصل عليه من صديق يطبع جوازات سفر، مطلوب من بن أن يقوم برحلة إلى فرنسا حاملاً معه شيئًا يريد جونستون أن يعطيه لصديق آخر ربما فى نيس أو مارسليا"

"ثم هل أعود؟"

لم يكن فى نية جونستون أن يشجع بن على العودة فقال "تستطيع أن تبقى قليلاً وتمتع نفسك"

رأى بن فى وجه ريتا أن ذلك لم يعجبها. مع أنها لم تقل شيئًا. ولكن فكرة أن يمتلك شيئًا يستطيع أن يضعه فى جيبه ويريه لرجل شرطة أو مراقب عمال فى موقع بناء تغلبت على تردد بن، وذهب مع

جونستون إلى الآلة فى محطة قطار الأنفاق حيث ظهرت خمس صور صغيرة أخذها جونستون معه. وحين استلم بن الجواز أصابه الذهول. فمكتوب فيه أن عمره ٣٥ سنة. وكان ممثلاً سينمائيًا اسمه بن لوفات، وعنوان سكنه مكان ما من سكوتلندا. وكان جونستون يريد أن يحتفظ بجواز السفر "للأمان" ولكن بن أراد أن يريه للمرأة العجوز ، ووعد بأن يعيده فورًا.

حين وقف خارج باب السيدة بجز عرف أن المكان كان خاليًا: كان يستطيع أن يستشعر انعدام الحياة فيه. لم يدق الباب ولكنه دق على باب الجارة وسمع القطة تموء. كان عليه أن يدق ثانية ثم أخيرًا حين ظهرت على الباب ورأته قالت "السيدة بجز فى المستشفى وقطتها معى" وكان بن قد استدار ليهبط السلم حين قالت "سوف تحب منك أن تزورها هناك يا بن".

وقف مصدومًا: فالمستشفى هى أكثر مكان يخيفه، مبنى كبير ملىء بالضوضاء والناس يشكل خطرًا عليه. تذكر الذهاب إلى الأطباء مع أمه وكان كل واحد منه يلقى عليه (تلك) النظرة. وقد فهمت الجارة أنه كان خائفًا. وقد سبق لها أن تناقشت مع السيدة بجز حول بن وعرفت كيف كان صعبًا عليه أن يعيش حياة عادية، تعرف مثلاً أن بن ينزل السلم بأكمله؛ لأنه يخاف من المصعد.

قالت بلطف:" لا تقلق يا بن سوف أقول لها إنك جئت لزيارتها ثم قالت "انتظر.." وتركته واقفًا هناك وعادت بورقة فئة عشرة جنيهات وضعتها فى جيب قميصه وقالت له "اهتم بنفسك يا بن" قالتها كما كانت المرأة العجوز تفعل.

عاد بن إلى غرفة ريتا. وكان يفكر فى العطف، كيف أن بعض الناس رأوه ـ هذا كان تعبيره ، رأوه حقًا ولم ينفروا منه، كأنهم تقبلوه فى دواخلهم ـ كان هذا شعوره. وريتا ؟ نعم، كانت عطوفة وتشعر بالود نحوه ولكن ليس جونستون: كلا ، كان عدوًا. ومع ذلك هناك الآن فى جيبه جواز سفر باسمه عليه وهوية له. إنه بن لوفات وينتمى إلى بريطانيا العظمى، التى كانت بالنسبة له حتى الآن مجرد كلمات، أصوات ، لاشىء حقيقيًا. الآن يشعر كما لو أن أذرعًا تحيط به.

فى تلك الأثناء كانت ريتا وجونستون يتعاركان. قالت إنها لاتحب مايخطط له جونستون مع بن. ماذا سوف يحدث له فى فرنسا؟ لم يكن يتحدث اللغة. إنه لا يستطيع أن يعيش إلا هنا. وقد أنهى جونستون الجدال بقوله " ألا ترين يا "ريت" أنه سينتهى خلف القضبان فى كل الأحوال؟" وكان يعنى السجن ولكن ريتا فهمت شيئًا آخر، كان جونستون قد ذكره مرة فى نقاش حول بن . قال إنه فى أحد الأيام سوف يضع العلماء أياديهم على بن. صرخت ريتا فى جونستون بأنه قاس وأصرت على أن بن إنسان لطيف، إنه

يختلف قليلاً عن الآخرين فحسب. هذا كل مافى الأمر.

حين وصل بن إلى غرفة ريتا، دخل على هذا الشجار. فى ذهنيهما كانت كلمة "قضبان" تعنى قفصًا. لم يكن جونستون يهتم بما سوف يحدث لهذا الوحش ولكن ريتا كان تصرخ . إذا "هم" وضعوا بن فى قفص فسوف يزأر ويهدر ويخور وسيكون عليهم أن يضربوه أو يخدروه، نعم كانت تعرف ماذا تعنى الحياة وماذا يفعل الناس وماذا يتوقع المرء.

جلس بن وجواز سفره فى يده، مترددًا أن يسلمه لجونستون. وكان ينظر إليهما من تحت حاجبيه الكثيفين وكان يعرف أنهما يتعاركان بشأنه. فى بيته كان أفراد عائلته يتجادلون حوله طوال الوقت. ولكن أكثر ما أزعجه ليس الجو المشحون بالغضب ولكن الروائح الكثيرة التى تملأ الغرفة. كانت هناك رائحتها، الأنثى، وهذه لا بأس بها ولكن ماكان يشع من جونستون هو الذى يجعله يرغب فى العراك أو الهرب. كانت رائحة الذكر القوية الخطرة وكان بن يعرف دائمًا حين يكون جونستون على الرصيف أو يتصنت على السلم ليراقب ريتا. كانت هناك أنواع من الآثار الكيماوية فى الهواء تختلف عن الروائح البشرية، كما تختلف رائحة المرور عن رائحة اللحم الخارجة عن مطعم وجبات سريعة. أراد ان ينهض ويخرج ولكنه كان يعرف أن عليه أن يبقى حتى تحل

المشكلة. كانت ريتا تحاول إثناء جونستون عن عمل شيء.

قالت ريتا لجونستون إن عليه أن يحاول إيجاد عمل لـ (بن) و"رعايته" .

قال جونستون :"تقصدين؟"

"تعرف ماذا أقصد"

" لا أستطيع أن أمنع أى شخص من أن يوقعه فى ليلة ظلماء أو يدفعه تحت حافلة . إنه يوتّر الناس . ريت ، تعرفين ذلك "

" ربما يستطيع أن يكون سائقًا لديك؟"

" أوه ، هيا ، لابد إنك تحلمين "

ولكن ريتا أخذت جواز السفر من بن وقالت إنها سوف تهتم به، ووضعته فى الدرج. ونزل الثلاثة إلى السيارات الأجرة التى كانت مرصوفة بين السيارات العادية . قال جونستون لـ (بن) "اصعد" وقد فتح باب إحدى السيارات. نظر بن إلى ريتا ـ هل أفعل ذلك ؟ وهزت رأسها موافقة. حالما جلس بن خلف عجلة القيادة، شع وجهه بالحبور والنشوة طرأ على ذهنه الدراجات اللامعة الهادرة السريعة التى كانت متعته الوحيدة فى الحياة. والآن كان يجلس خلف مقود ويستطيع أن يضع يديه عليه يحركه ذات اليمين وذات اليسار. كان يصدر من فمه صوتًا مثل برررررر ويضحك.

شد جونستون ريتا إلى المشهد بلكزة من كتفه حتى جعلها تقف قرب مقعد السائق. لقد أرادها أن ترى وقد فعلت.

قال"الآن أدر المفتاح يابن"

لم يشر إلى المفتاح ولكن وجه بن التفت إلى ريتا انتظاراً للتعليمات. انحنت ريتا إلى الداخل ولمست المفتاح.

حرك بن المفتاح بين أصابعه، فتحه وأغلقه حين زمجرت الماكينة ، فتحه وعادت السيارة إلى الحياة ولكنها دمدمت زمجرت وماتت . كانت سيارة متهالكة مستعملة تعود لسائق كان يعود للسجن من فترة لأخرى بجرائم سرقة السيارات.

قالت ريتا "حاول مرة أخرى " كان صوتها يهتز لأنها كانت تفكر : مسكين بن ، إنه مثل طفل عمره ثلاث سنوات. من أين جاءها ذلك اليقين الخائب من أنه يمكن أن يتعلم هذه المهنة ؟ أطبقت قبضة بن المشعرة على المفتاح وهزه وعادت السيارة الى الحياة، وبدأ بن الآن تمثيلاً صامتًا لتحريك مقبض النقل لأنه يعرف أن هذا ماكان عليه أن يفعله.

قال جونستون "الآن " وانحنى إلى الداخل وأشار إلى مقبض ناقل الحركة وقال "سوف أريك ما تعمله بهذا " وفعل. مرارًا وتكرارًا. "تضغط على هذه القطع الصغيرة معًا - هل ترى؟ ثم أطلق الفرامل - الآن افعلها. ثم كن على حذر. انظر لترى إذا كان ثمة

سيارة قادمة. "كل هذا كان غباء لأن بن لم يكن يستطيع أن يرى، ولم يكن يستطيع أن يفعلها. كان يضم قبضته وهو يراقب يد جونستون ويشد يده إلى الخلف ثم يضعها إلى الأمام قرب الفرامل، ولكنه لم يكن يفعلها بنفسه، لأنه لايستطيع كما كان جونستون يعرف .

بدأت ريتا تبكى. انتصب جونستون وسحب نفسه، وفتح الباب قائلا لـ (بن) "اخرج" خرج بن مطيعًا وليس راغبًا، كان يريد أن يستمر فى الجلوس يلعب دور سائق. ثم قالت ريتا لجونستون "إنك قاس. لا أحب هذا"

سارت ريتا نحو مدخل بابها بدون أن تنظر إليه أو إلى بن ، وتظاهر جونستون بأن لديه عملاً فى مكتب السيارات، رغم أن الزبائن لم يظهروا بعد وتبع بن ريتا إلى غرفتها. كان جو الغرفة أفضل بعد أن انسحبت روائح جونستون تاركة بعض آثار خفيفة فى الهواء.

قالت ريتا لـ (بن) "لست مضطرًا للذهاب إلى أى مكان إذا لم ترغب فى ذلك" كان صوتها جافًا، متألمًا ولكن ذلك لأنها كانت غاضبة لبكائها. فهى لا تحب أن تظهر ضعفها وخاصة أمام جونستون.

قالت "اجلس يابن" وجلس على الكرسى بينما كانت تصبغ وجهها لتخفى آثار الدموع. ثم أعادت تكحيل عينيها مرة أخرى حتى بدتا واسعتين باللونين

الأسود والأخضر. وهذا حتى لا يلاحظ الزبائن وجهها الذى لم يكن جميلا، ولكنه كان شاحبًا وحتى أبيض، لأنها لم تكن أبدًا فى صحة جيدة .

سألها بن" لماذا يقول الجواز إنى ممثل سينمائى؟"

لم تجد ريتا إلا أن تهز رأسها، مقهورة، بصعوبة التوضيح. كانت تعرف أنه لم يكن يذهب إلى السينما وكانت قادرة على أن تضع نفسها فى مكانه لتدرك أن الواقع كان أكثر مما يمكن أن يتحمله، فلا يملك أن يعقّده بالخيال. لم تكن تعرف أن المبنى نفسه هو الذى كان يخيفه: الظلمة فى الداخل، صفوف المقاعد حيث يمكن أن يجلس عليها أى كان، الشاشة الكبيرة المضاءة التى تؤذى عينيه.

فى الواقع كانت معجبة بتدبير جونستون مع "صديقه" لاختيار مهنة "ممثل" فى الجواز. فالممثلون لا يعملون طوال الوقت، الممثل عادة يكون خالى شغل. من بين زبائنها كان هناك ممثلون لايعتبرون البطالة بالنسبة لهم كارثة رغم إنها قد تسبب لهم القلق. كان مظهر بن خارج المألوف ولكنك تتوقع أن يبدو نجوم الغناء أو السينما مثيرين للدهشة. كانت خطة عبقرية. فى زحمة النجوم والمشاهد الفنية لن يكون بن ملفتًا للنظر. ولكن ماذا ينوى جونستون أن يفعله؟ كانت تعرف أنه لا يمكن أن يكون شيئًا جيدًا.

ومع هذا كان لابد من عمل ما بشأن بن. كان الوقت أواخر الصيف الآن وسرعان ماياتى الخريف

ثم الشتاء. وقد نقلت الشرطة بن مرتين من مصطبته المفضلة. ماذا سيفعل فى الشتاء؟ الشرطة تعرفه. وكل المشردين وخريجى السجون يعرفونه ولاشك. ربما جونستون كان على حق: ريتا لم تذهب إلى فرنسا ولكنها سبق أن زارت إسبانيا واليونان، وتستطيع أن تتخيل بسهولة بن فى حانة إسبانية أو يونانية من بار فى لندن. ولكن جونستون لم يكن يقصد فى خطته مافيه خير بن . كانت تعرف ذلك .

فى تلك الليلة وفى أواخرها، حين غادر آخر زبائنها وحين ذهب سائقو سيارات الأجرة إلى بيوتهم وحين أشرف الفجرعلى الطلوع وكان بن يتكوم فى مدخل باب فى كوفنت جاردن، سألت جونستون ماذا ينويه لـ (بن) وحين سمعت أنتابها الغضب وحاولت أن تضرب جونستون الذى أمسك بمعصميها وهو يقول "اخرسى. سوف تنجح الخطة . سوف ترين"

كان جونستون يخطط أن يحمل بن كوكايين الكثير يا ريتا ملايين " إلى نيس، بدون أن يخفيه أبدًا ولكن فى حقيبة عادية تحت طبقة من الملابس "إلا ترين يا "ريت" ؟ بن مثير للدهشة ، سوف ينشغل ضباط المخدرات بمحاولة معرفة كنهه حتى لن يكون لديهم وقت لأى شىء آخر"

"وحين يصل إلى هناك؟"

"لماذا يشغلك هذا؟ من هو بالنسبة لك ؟ إنه جلف وأقل من مستواك"

" أشعر بالأسى نحوه. لا أريد أن يصيبه أذى"

وكانت هنا حيث جاءت ـ فى الحديث السابق ـ كلمة "قضبان". أوشكت "قضبان" الآن أن تأتى ثانية .

"إنه لا يستطيع أن يتدبر أمر نفسه فى طائرة، ولايستطيع تدبر أمر الحقائب. ماذا سيفعل فى مكان لا يتحدث فيه الناس الإنجليزية ؟"

"لقد فكرت فى كل شىء. ريت . "وشرح لها خطته.

كان على ريتا أن تعترف أن جونستون قد فكر فى كل شىء. كانت مأخوذة. ولكن افترض أن الخطة لم تنجح، فى النهاية سوف يكون بن وحيدًا فى بلد أجنبى.

" لا أريده أن يتسكع هنا. الناس تلاحظه. والشرطة تريد عذرًا لتغلق أعمالى. إنهم لا يريدون سيارات الأجرة هنا. أظل أقول لهم : ربما لا تحبوننى ولكن الجمهور يفعل. أستطيع ان أشغّل ضعف هذا العدد من السيارات لو كان عندى مكان لوقوف السيارات. ولكنهم يتحملوننى فى انتظار مبرر، وبن مثل لافتة كبيرة تقول "هنا المشاكل" . وأعيش فى رعب أن يبادر بعراك آخر. أحد السواقين قال شيئًا وطرحه بن أرضًا ":

"ماذا قال؟"

"وصفه بأنه قرد مشعر. وقد أوقفت العراك ولكنى أريدك أن تفهمى يا ريتا.

كانت ريتا تريد أن تقتنع بعدالة كل هذا ولكن كان هناك اكثر من هذا: جونستون كان يشعر بالغيرة. قالت " شىء غريب. أنت لم تكن غيورًا يومًا من أحد ولكنك تشعر بالغيرة منه"

لم يعجبه هذا القول ولكنه أخيرًا ابتسم ابتسامة صغيرة لاتعبر عن سرور وقال "حسنًا ، لا أستطيع أن أنافسه. أليس كذلك ؟ ليس مع قرد مشعر كبير ؟"

" إنه أكثر من هذا".

"اسمعى ، ريت، لقد طفح الكيل منه"

وبدأت خطة جونستون بمصاحبة بن إلى محلات جيدة لشراء ملابس جيدة. لا محلات خيرية بعد الآن. اشترى بنطلونات جينز وبنطلونات عادية وملابس داخلية. كان ذلك سهلاً . ولكن هاتين الكتفين وذلك الصدر والذراعين الثقيلتين ـ فى النهاية قرر أن يذهب جونستون إلى خياط مقاسات كبيرة واشترى منه قمصانًا مناسبة وسترتين .

سألت ريتا "كم كلف كل هذا ؟"

"قلت لك ، هناك ملايين فى انتظارنا"

"أنت تحلم"

"سوف ترين" .

ثم أخذ بن إلى الحلاق. كان يتمنى أن تراه المرأة العجوز الآن : لقد سبق أن قالت له إنه سيكون وسيمًا، وهو يعرف أنه كذلك الآن. وكان الحلاق قد صاح

متعجبًا وهو يرى لمة الشعر فوق رأسه ولكن حين انتهى كان كل شىء على مايرام.

بعد ذلك أخذ جونستون بن لجولة طيران قصيرة فوق لندن حتى يعتاد على الطيران. وفى أول الأمر بحلق بن بعينيه رعبًا وأطلق صرخة ذعر وهو ينظر إلى الأسفل، ولكن جونستون كان يجلس إلى جانبه يتصرف وكأن لا شىء غير عادى وقال له "انظر يابن، هل ترى هذا ؟ إنه النهر. أنت تعرف النهر. وانظر، هناك كوفنت جاردن، وهناك طريق تشيرنج كروس" وقد استوعب بن كل هذا وأعاد روايته لريتا."متى أستطيع الطيران مرة أخرى ؟ "

"ستطير مرة أخرى فى طائرة كبيرة ، قريبًا"

ثم فكرت " وربما لن أراك ثانية .." كانت مولعة به . نعم هى كذلك. سوف تفتقد.. لقد سمحت .. كلا .. استدعت .. بعض المضاجعات الاستثنائية التى لا تشبه أى شىء جربته. كانت تعرف جيدًا إنه ليس من طبيعته أن تؤدى هذه المضاجعات إلى مداعبات رقيقة بعدها. لم يكن هناك علاقة بين هذه الأفعال القصيرة العنيفة التى تعبر عن التملك وبين ما يحدث بعدها بثوان وكأن لا شىء حدث. ورغم ذلك فإنها ذات مرة حين سمحت له أن يقضى الليل عندها، كان قد التصق بها فى نومه ، دفن وجهه المشعر فى رقبتها ولعق وجهها وعنقها. كانت تفترض أنه مولع بها. سألها إذا كانت ستذهب معه إلى فرنسا أيضًا، ولكن ماذا كان يتخيل وهو يقول "فرنسا"؟

" إنها مثل هنا يابن" حاولت أن تشرح له "هناك بحر أزرق لطيف. هل تعرف ماهو البحر؟"

نعم يعرف. يتذكر أنه ذهب مع عائلته إلى ساحل البحر.

"حسنا، إذًا إنه مثل هذا. إن فرنسا مثل هنا إلا أن البحر قريب منها" وقد وجدت بعض صور المناظر السياحية في نيس ليتفرج عليها، وقد شغلته الصور طويلا. وكانت تعرف أنه لا يرى ما تراه ولم تقل له إن هناك لغة مختلفة وأصواتًا مختلفة.

ريتا كانت تسند ظهرها إلى المدخل مرتدية ملابس العمل: جلد أسود وجوارب مخرمة سوداء تراقب جونستون وهو يلوح لسيارات الأجرة ويوجه السائقين - المنظر المعتاد على هذا الرصيف من منتصف النهار إلى الساعة الثانية عشرة ليل أو الواحدة فجرًا حين يخرج الناس من المسارح والمطاعم، حين رأت رجلاً لم يعجبها منظره يتقدم من جونستون ويواجهه. جونستون كان خائفًا. كانت تعرف هذا. من خلال تجربتها كانت المشاكل تبدأ دائمًا بهذا الشكل: يظهر رجل من المجهول وعلى وجهه ملامح تقول "احذروا" ثم يقع شيء سيئ.؟ حين غادر الرجل رأت ريتا جونستون ينز عرقًا، مستندًا على كاونتر مكتب السيارات وهو يعب جرعات من زجاجة يحتفظ بها هناك. ثم رآها وفهم قلقها وقال لها "علينا أن نتحدث يا "ريت""

فى تلك الليلة تأكدت من إغلاق مدخل الشارع إلى غرفتها، ودعت جونستون إلى غرفتها حيث كانت تجلس على السرير تسند ظهرها إلى مخدات وإحدى ساقيها تتأرجح خارج السرير وهو وضع ابتكرته لإثارة الزبائن - كانت تدخن وهى تراقب جونستون يتململ فى مقعده. كان يدخن ويأخذ رشفات من زجاجة الوسكى. وكان جو الغرفة المعبأ بالدخان يدفعها إلى السعال .

كانت تعرف قصة حياته - معظمها. كان قد هرب وهو فى الرابعة عشرة من عمره من منزل مضطرب. وقد عاش فترة فى دار أحداث ثم عاش حياة قاسية بالنشل والسرقة. قضى سنة فى السجن. وبعد خروجه استمر مستقيمًا فترة من الزمن ولكن حكمًا بجريمة السطو العنيف أعاده إلى السجن وقد أنهى مدته قبل خمس سنوات حيث غرق فى صفقات مشبوهة ثم انزلق عميقًا فى عشرات العمليات الاحتيالية وازداد خطره تساعده المهارات التى اكتسبها فى السجن ولشهرته فى مجتمع المجرمين. كانت مهنة سيارات الأجرة مريحة ولكنها لم تكن سوى واجهة. لم يدهشها وقوعه فى مشكلة وحين قال "وقعت فى فخ يا "ريت"" تخيلت دينًا او ابتزازًا. ولكن الآن حين بدأ يخبرها وهو يسند نفسه برشفات كبيرة من الوسكى - كان سكران بعض الشىء - جلست على حافة السرير وهى تحملق به .

"ماذا تقول ؟ ماذا تخبرنى ؟"

كان رجل ما قد أقنعه على شىء من الاحترام ليجرب حظه فى بورصة الأسهم ـ المستقبل. قال صديقه هذا: لايمكن أن تخسر . ستكسب أموالا إذا احتفظت برأسك، حسنًا لقد احتفظا برأسيهما ولكن ليس أموالهما "

"هل تقول لى إنه مطلوب منك مليون جنيه؟"

"هذا لاشىء يا "ريت". مليون لاشىء بالنسبة لكل الذى ضاع."

"ولكنه كثير بالنسبة لك"

"صحيح" قال وهو يشرب.

"إذًا. أنت خائف من الذهاب إلى السجن؟"

"صحيح . هذا ما سيحصل لى إذا لم أضع يدى على نقود حقيقية".

"دعنى أفهم هذا جيدًا. أنت مدين بمبلغ مليون أو كلاكما معًا ؟"

"هو مدين بأكثر من هذا. لقد ذهب إلى مدى أعمق منى. لقد صنع فىّ معروفًا حقيقة، فهو الذى أقرضنى المبلغ ولكن الآن إذا لم أسلمه مليونًا سوف يبلغ عنى وسوف أسجن".

تمددت على ظهرها مرة أخرى وسعلت "التلوث الملعون" وأضافت " أحيانًا تكون هذه الغرفة خانقة بعفونة الشارع حتى لا أستطيع التنفس" وبما إنها

برأت دخان السجائر من تلويث الغرفة فقد أشعلت واحدة لنفسها ورمت لجونستون بأخرى .

قالت "حسنًا. ولكن إذا لم تنجح صفقة الكوكايين هذه وإذا وقعت فى أيدى الشرطة، فسوف تذهب إلى السجن على أية حال وربما مدى الحياة " .

"صحيح ولكنى سأنجو منها" .

"إذًا قبل أن تكسب بعض المال لنفسك عليك أن تسدد المليون ؟" .

"حين تصل الشحنة إلى نيس ، يكون المليون قد دفع. والبقية لى"

"لاشىء لـ (بن)؟" .

"أوه ، سوف أرضيه" .

"وماذا عنى ؟. ألست أتحمل بعض المخاطر؟" .

"لن تعلمى مافى تلك الحقائب. سوف أضمن لك ذلك "

"إذا وقع بن فى أيديهم فسوف يسألونه من أين أتى بالكوكايين، سيقول لهم منى. لأنه يعرفنى أفضل مما يعرفك وهو يثق بى ولهذا سيقول إنه منى."

صمت.

"ولكنه يعرف أنه يأخذ منى شيئًا ليسلمه إلى صديق فى فرنسا" .

صمت

"منى يا "ريت"

"ولكنى فى الموضوع أيضًا. أليس كذلك ؟ إن بن لا يعرف كثيرًا عن الموضوع حتى يستطيع الكذب جيدًا. لا نستطيع أن نعتمد عليه. سوف يخبر عنى وعنك. "

قطع جونستون النقاش بقوله "أخبرينى شيئًا. كيف ترين نفسك، ريت ؟ إنك لا تحبين هذه الحياة ـ لقد سمعتك تقولينها مرارًا، أليس كذلك ؟ حسنًا، قفى معى فى هذه الصفقة وسوف أخلصك من هذه الحياة تمامًا "

"سوف ترضينى مثل بن ؟"

مال جونستون إلى الأمام ، مزيحًا بيده حلقات دخان السجائر وقال لها ـ وقد رأت أنه يتكلم بصدق من قلبه" اسمعى . لقد عشنا أنا وأنت طويلاً معًا، كم سنة الآن يا ريت ؟ ثلاث سنوات ؟ لم أخيب أملك مرة واحدة ، هل فعلت ذلك ؟"

"كلا ، لم تفعل"

"حسنًا ؟"

استمر فى الانحناء إلى الأمام، سكران، متوسلاً، يائسًا، عيناه الحمراوان مبللتان ـ من الدخان؟ من الدموع ؟

" إنها مقامرة. إنك تجازف كثيرًا "

"أنا مضطر لذلك، ريت . إذا نجوت من هذه، فسوف أكون نظيفًا بقية أيام عمرى"

تمددت مرة أخرى، وساقاها ممددتان أمامها وحدقت فيه وفكرت أنها لا تعرف لمن كانت تشعر بالأسى: جونستون الذى تعلم أنه يريد أن يكون أفضل مما هو عليه، وهى تعرف هذا؛ لأن هذه رغبتها هى أيضًا والذى لديه الموهبة للتأثير على الناس بسبب شبهه بهمفرى بوجارت، حسنًا معظم الوقت، ولكن ليس الآن وهو يبدو سكران وغبيًا. أو بن الذى يرسل فى مهمة خطرة لإنقاذ جونستون. ولكنها حين تفكر فى الأمر وهى فى تلك اللحظة تفكر بشدة، ترى أنها مدينة لجونستون اكثر مما هى لـ (بن). يمكن القول إن جونستون كان رجلها: لم يكن لديها غيره على أية حال. إنها الحقيقة ، لقد كان طيبًا معها. وماقاله كان صحيحًا، من أنها تكره هذه الحياة وقد فكرت عدة مرات ان تقتل نفسها وهى تقول "اقتل نفسى بدلا من أن يفعلها بعض سفاحى الجنس" وكانت تعلم أنها لن تدوم طويلاً فى هذه الحياة على أية حال فصحتها ليست على مايرام. جلدها كان سيئًا وشعرها حين لا تصبغه بالأشقر الفضى يعود كتلة سوداء خشنة وبلا حياة يكفى أن تلمسها لتعرف أن صاحبتها مريضة. وحين تكون بلا مكياج وبلا ملابس مغرية و تنظر إلى نفسها فى المرأة كانت تسرع بوضع المكياج.

والآن أخذت تفكر.. حسنًا . لنفترض أنهم أمسكوا بن وأرسلونى إلى السجن. لا يمكن أن يكون

أسوأ من هذه الحياة. وقررت أن تساعد جونستون بأية طريقة ممكنة .

والآن درب جونستون بن عما يمكن أن يحدث فى المطار وحين انتهى أعاد عليه بن كل الذى سمعه مرات ومرات .

كل شىء سوف يعتمد على "صديق" جونستون "لقد تعرفت عليه فى السجن ياريتا. إنه على مايرام" سيكون مع بن فى المطار ثم معه فى الطائرة ثم فى نيس وسوف يعتنى به.

"وكم سوف تدفع له ؟"

"الكثير. حين تحسبين كل شىء. ملابس بن والحقائب. رحلة الطائرة. جواز السفر - هذا وحده كان مائة - ثم ريتشارد - هذا هو الوسيط - وحين تجمعين كل هذا، ثم هناك الفندق، وكل هذا ليس سوى فتافيت مما سوف نحصل عليه."

"طيب لا تصرف المبلغ قبل أن تحصل عليه"

"اسمعى، ريت ، أعرف أنك تحسبيننى مجنونًا ولكن العملية سوف تنجح وسوف ترين"

قالت ريتا" الحظ. هذا هو كل ماهناك. لديهم كلاب متخصصة تفحص الحقائب"

"أحيانا يفعلون ذلك ولكنهم لن يهتموا بمجموعة من السواح الذاهبين إلى نيس، وهذا ينطبق على شرطة المخدرات الفرنسية أيضًا. فهم يراقبون

الطائرات القادمة من كولومبيا والشرق وليس طائرة لطيفة قادمة من لندن"

كان هناك شيء واحد لا تعلمه ريتا. كانت الخطة لثلاث حقائب: واحدة كبيرة مليئة بأكياس الكوكايين، وعليها طبقة من الملابس سوف تفحص فى دائرة الجمارك، واحدة فيها أشياء بن وواحدة يحملها إلى داخل الطائرة. وحين سمعت ريتا جونستون يخطط لملء هذه أيضًا بأكياس فتاكة ربما هيروين، صاحت وصرخت وهاجمته حتى اضطر أن يمسك قبضتيها "أنت تعلم أنهم يفتشون تلك الحقائب بشكل عشوائى ومن السهل أن يلتقطوا حقيبة بن المحمولة أيضًا " هدأ من غضبها ووعدها أنه لن يفعلها، إذا كانت قلقة بهذا الشكل، ولكنه فى الواقع لم يصدق الوعد: كان على بن أن يذهب للطائرة حاملاً حقيبة خطرة .

ظلت ريتا تكرر" هذا جنون. وبن المسكين. هذا شيء قاس كما أعتقد. تخيله فى السجن"

"بسبب غرابة أطواره، سوف تنجح الخطة "

وقد نجحت. مرت فترة لم يستطع فيها جونستون وريتا أن يصدقا كم تغيرت الأمور. الاختلاف بين أحوالهما الآن وماكان ممكنًا أن يحدث، اختلاف كبير. ولم يكن جونستون غبيًا ليترك مبالغ كبيرة من الأموال تظهر فى حساب البنك ولكن مبالغ ضخمة وجدت طريقها إليه فى الخفاء خلال الأشهر القليلة التالية. وقد منح ريتا مبلغًا كافيًا لتشترى مطعمًا فى برايتون

أدارته بنجاح، وكانت تستطيع أن تتزوج ولكنها لم تفعل. أحيانًا يأتى جونستون لزيارتها، وكانت هذه اللقاءات ثمينة بالنسبة لهما معا إذ يدركان كيف استطاعا النجاة بصعوبة من حياة السجن والجريمة .

وكان جونستون قد رأى فى برنامج تليفزيونى أنه من السهل شراء لقب نبيل وحقوق أراض من أرستقراطيين حل عليهم الفقر، مقابل مبالغ تبدو له الآن تافهة. وقد فعل ذلك وأصبح لورد مقاطعة ولكنه سرعان ما شعر بأنه أخطأ فى ذلك؛ لأن حياة الكسل لا تناسبه. ثم أصبح مالكًا لشركة تأجير سيارات راقية جدًا، فى خدمة الأغنياء والمشهورين، حيث يقومون بجولات ـ فى معظمها ـ داخل لندن، مستخدمًا موظفين كان يعتبرهم سابقًا أعلى منه مقامًا. كان سعيدًا بحياته، وكان يحب سياراته الرولز رويس والمرسيدس والأحترام الذى يقابله به الناس. وقد ذهب أطفاله حين صار له أطفال إلى أحسن المدارس الخاصة. وهكذا يمكنك القول إن هذا الجزء من قصتنا قد انتهى نهاية سعيدة .

***

فى صباح المغامرة الكبرى، كانت ريتا ـ تحت إشراف جونستون ـ قد ألبست بن قميصًا مفصلاً وسترة جيدة. وطفقت تبكى وجونستون يضع بن فى إحدى السيارات الأجرة ووجه السائق لما يفعله بالضبط. وآخر شىء قاله بن هو "متى أرجع إلى

البيت؟" قال جونستون "سوف نرى . قادته السيارة إلى مطار هيثرو رغم إنه كان يشعر بالدوار. أوقف السائق السيارة في موقف السيارات المؤقت، وجلب عربة للحقائب، واحدة سوداء وواحدة حمراء وثالثة زرقاء. أخذ بن إلى الدرجة المخصصة له ومكتب الخطوط وسلم جواز سفر بن واسترجعه مع بطاقة صعود الطائرة ولكز بن حين سئل إذا كان يحمل مواد ممنوعة وإذا كان قد حزم حقائبه بنفسه. وكانت ريتا قد كررت عليه إنه يجب أن يقول نعم، لقد حزم الحقائب بنفسه. تذكر ذلك بعد تردد. كانت فتاة الخطوط مأخوذة بحكاية "ممثل سينمائي" على الجواز وظلت تحدق في بن خلال تعاملها مع حقائبها وبطاقة صعود الطائرة. والنظرة الثاقبة لم تهز بن فقد اعتاد عليه. وسار السائق وهو نيجيري وكان قد منح أجرة زائدة، مع بن إلى مدخل فحص الجوازات وأعطاه الحقيبة المحمولة الزرقاء وجواز سفره وبطاقة صعود الطائرة وقال له "ادخل من هناك" وحين تردد بن دفعه برفق ووقف يراقبه يمضي حتى يستطيع أن يقدم تقريره بشأنه حين يعود.

وجد بن نفسه وحيداً فذعر، وكان رأسه يدور بكل ما عليه أن يتذكره. أظهر بطاقة الصعود للمسئول الذي ألقى نظرة عليها ثم حدق فيه، وظل يحدق حتى استجلب انتباهه المسافر التالي. الآن كانت هناك صعوبة ما . لقد كررت عليه ريتا وجونستون مرات عديدة ماعليه أن يفعله. أمامه سيكون شيء مثل

صندوق أسود له فتحة وأشياء متدلية. يجب أن يذهب إليه ويضع حقيبته على الرف هناك. سوف تختفى الحقيبة فى الفتحة، وعليه أن يبحث عن القوس المعدنى القريب من الصندوق، ويدخل من خلاله ثم سوف يفتشه رجل يبحث فى جيوبه وبين فخذيه وعلى طول ساقيه. وكان بن قد سأل "عن ماذا ؟" وقالا له" فقط للتأكد من أنك على مايرام" فكلمة "مسدسات" كانت سترعبه. هذا هو الجزء الذى كانت ريتا تخشاه لأنها كانت تعرف كيف يكره بن أن يلمسه أحد وكيف لا يمكن ضمان رد فعله .

حين رأى بن الآلة أمامه بدت له مخيفة وأراد أن يهرب. ولكنه كان يعرف أن عليه أن يستمر. فليس هناك من ينتظره للمساعدة . وقف وحقيبته فى يده شاعرًا بالعجز حتى قال رجل من ورائه "ضعها هناك ـ انظر" وحين لم يتحرك بن، أخذ الرجل الحقيبة منه ووضعها فى الآلة، وهذا الرجل الذى لايعرفه مضى أمامه إلى القوس طالما أن بن قد تردد وهكذا فهم بن ما ينبغى عليه أن يفعله.

فى هذه الأثناء، كانت حقيبته المحمولة تمر عبر أشعة إكس، وتحت طبقة الثياب بين الأكياس الورقية المليئة بالبودرة البيضاء الرهيبة، دست هنا وهناك أشياء الحمام : مقص ومبرد أظافر وقصافة وأمواس وكلها من المعدن وسوف تظهر على الشاشة. ولكن هذه كانت اللحظة الحاسمة حين يضع سوء الحظ يديه

على بن وعلى ريتا وجونستون أيضًا إذا حدث وذكر اسميهما عند الاستجواب.

وإذ كانت الفتاة الجالسة على آلة اشعة إكس تقوم بواجبها ومنهمكة به، فإن الموظف المسئول عن تفتيش بن غفل عن لمسه، حيث كان يحدق مدهوشًا بالكتفين العريضتين والصدر العظيم مفكرًا : يا إلهى ماهذا ؟ كان بن يبتسم . كانت ابتسامة رعب ولكن مارآه هذا الموظف هو ابتسامة النجوم المشهورين المتعودين على أن يتعرف عليهم الناس والرجل قد رأى الكثير من المشهورين. ولو كان قد وضع يده على بن لوجده يرتعد غارقًا بالعرق البارد، ولكنه لوّح لـ (بن) أن يمضى. والآن على بن أن يتذكر كيف يسترجع حقيبته من الطرف الآخر للماكنة. لم يكن يعرف أن هذه لحظته الكبرى الخطرة : فالوصف الذى لقن به لم يكن بكلمات الخطر. ولكن حظه صمد " هل هذه حقيبتك يا سيدى؟" لم يكن السؤال له ولكن للرجل خلفه. وقف بن هناك يبتسم ثم، فهم أن الحقيبة الزرقاء التى تتأرجح قربه هى حقيبته وتذكر التعليمات، أخذها وذهب فى اتجاه.. كان فى حالة ذهول ودوار وشعور بالغثيان والبرودة. هذا المكان الفسيح بأضوائه وحشوده ومحلاته وألوانه وحركته وضوضائه ـ كان يمكن فى الحالات العادية أن يثير الذعر فيه، ولكنه كان يعرف أن عليه أن يتذكر، يجب أن يتذكر.. كان على وشك أن يطلق أنين العجز لولا أن شاهد أمامه مباشرة رجلا خلف مكتب يلوح له أن

يقدم جوازه وكان فى يده. كيف وصل الجواز إلى يده؟ لم يستطع التذكر.. ولكن الموظف ألقى نظر ة سريعة على الجواز وعاد بنظره إلى بن. ماكان يفكر فيه هو هذا: إذا كان نجمًا سينمائيًا فإنى لم أشاهد له أى فيلم.

بن يقف الآن فى طابور مكاتب الجوازات دون أن يعرف ماعليه أن يفعله تاليًا. قيل له إن شخصًا ما سوف يأتى للقائه، صديق جونستون، ونعم ، هاهو، شاب كان يتقدم مسرعًا - عينان مذعورتان على وجه بن.

فى هذه اللحظة حدث شىء لم يتوقعه أحد سابقًا. لو كان جونستون يراقب مايحدث، لقال "هذه هى ! لقد فعلتها" لولا سوء حظ غير عادل لكان صاحب عدة ملايين من الجنيهات الإسترلينية.

كان الشاب، حارس بن يهتز فعليًا من الشعور بالراحة ومن رد الفعل. وصل مباشرة أمام بن محاولاً الابتسام قائلا بسرعة "أنا صديق جونستون ، أنا ريتشارد"

قال بن "أشعر بالبرد أريد أن ألبس كنزتى الصوفية" ووضع حقيبته المحمولة على الأرض وحاول أن يفك سحابها دون أن يرى أنها مقفلة. قال "أين المفتاح؟ لماذا الحقيبة مقفلة؟"

كان ريتشارد جاستون (ولكن كان له أسماء عديدة فى حياته) قد وصل إلى لندن فى اليوم السابق من

كاليه على أحد القوارب، وقد قضى ساعات مع جونستون يأخذ التعليمات لأحداث هذا اليوم ولما بعده فى نيس. وقد سافر إلى هيثرو بقطار الأنفاق ووقف بعيدًا يراقب المشهد مع سائق سيارة الأجرة وبن عند تقديم الجوازات وفحص الحقائب ثم ذهب بشكل منفصل إلى الجوازات والجمارك عند الدرجة السياحية منتظرًا وصول بن، وكان طوال الوقت يثنى مع نفسه على الخطة الذكية التى وضعها جونستون. لقد كانت لديه - مثل ريتا - شكوك كثيرة حول هذا المشهد، ولكن انظر، كل شىء سار حسب الخطة .

ولكن الآن ينحنى بن على حقيبته يحاول فتحها بالقوة، يشد قفلها. كان من الواضح أن هاتين اليدين سوف تمزقان الحقيبة إذا أصر بن على أن يفتحها بتلك الطريقة. تخيل ريتشارد تلك الأكياس متناثرة فى كل مكان ورجال الأمن يهرعون .

قال بن "أشعر بالبرد"

كان المساء دافئًا وكان بن يرتدى قميصًا غالى الثمن كما لاحظ ريتشارد.

قال ريتشارد بصوت آمر "لا يمكن أن تحس بالبرد. هيا تعال، لقد قطعنا شوطًا طويلاً. إنهم يصعدون إلى الطائرة. لا تكن عنيدًا".

كان لهذه الكلمات تأثير جعل ريتشارد يقفز إلى الخلف مبتعدًا عن بن الذى كان على وشك أن يمسكه من ذراعيه ثم .. بن كان يغلى غضبًا.

صاح بن "أريد كنزتى. يجب أن آخذ كنزتى"

أصاب الذعر ريتشارد ولكن لم يشلّه. كان يسابق نفسه. لقد قيل له إن بن غريب إلى حد ما.. لديه لحظاته المزاجية، يجب مسايرته.. ضعيف العقل قليلاً .. ولكنه مجموع كل هذا، فلا تعامله كأنه غبى"

هذه الأوصاف التى تناثرت فى أحاديث جونستون على مدى ساعات، بدت الآن فى عينى ريتشارد كأنها لا تنطبق على مايحدث: هل يسمى جونستون هذا التصرف "مزاجيًا"؟ كان ريتشارد ينظر حوله قلقًا. هل يراقبهما أحد ما؟ حسنًا سوف يفعل الجميع إذا استمر بن فى الصراخ.

إذا فلت سحاب الحقيبة، إذا انفتح ذلك القفل الصغير؟

قال ريتشارد لاهثًا" اسمع بن. اسمع يا رفيقى. سوف تفوتنا الطائرة سوف نكون على مايرام فى الطائرة. سوف يعطوننا بطانية ".

انتصب بن واقفًا، تاركًا الحقيبة تسقط. لم يكن ريتشارد يعرف ولكن كلمة "بطانية" هى التى فعلت فعلها. اعتادت المرأة العجوز تقول له "خذ هذه البطانية يابن، لف نفسك بها قليلا ، التدفئة ضعيفة هذه الليلة ."

رأى ريتشارد تغير الحال: لم يعد بن ينفث غضبًا قاتلاً. وهكذا أضاف لمزيد من تلطيف الأجواء

"لايريدك جونستون أن تفسد الأمور الآن. لقد كنت طيبًا حتى الآن يابن. إنك أعجوبة يا ين"

كانت الكلمة "طيب".

التقط بن الحقيبة وسار مع ريتشارد فى الممر الطويل، المتحرك إلى الأماكن الصحيحة. كل شىء كان يسير حسب الخطة . سوف يكونان وسط حشد من الناس الصاعدين إلى الطائرة. عند المكتب وجد بن جواز سفره وبطاقة صعود الطائرة فى يده وقد وضعها هناك صديقه الجديد، الذى أخذهما منه أثناء جدالهما ـ حيث سقطتا من يد بن وهو يحاول فك سحاب وقفل الحقيبة. ثم استأنفا السير على طول الطريق ثم نزلا إلى أسفل ثم استدارا ثم تحت أيضًا، ثم كان هناك باب بالقرب منه أنثى مبتسمة وجهت الاثنين إلى مكانيهما. وقف بن حائرًا فى ممر الطائرة ولكن ريتشارد أخذ منه حقيبته ووضعها فى خزانة الحقائب فى الأعلى شاعرًا كأنه يلمس أفعى. وكان قد أخبر جونستون بأنه لن يلمس الحقيبة بكل الأحوال حتى يستطيع أن يقول لأى محقق يستجوبه إنه لا يعرف شيئًا عن الحقيبة ولكنه يرى الآن خطل هذا الرأى. بن كان فى مقعده مربوطًا بالحزام وريتشارد كان على وشك أن يطلب له بطانية ثم يشرح لـ (بن) حول إقلاع الطيارة ـ سوف تكون تحتنا غيوم ثم .. ولكن بن كان قد راح فى نوم عميق.

ياله من شىء جيد، فكر ريتشارد.. ياله من خلاص.

نام بن حتى حطت الطائرة وبدأ الناس فى الخروج منها. كان بن يبدو دائخًا وبالكاد تعرف على ريتشارد. وكان قد نسى أمر الحقيبة الثمينة حين حان الوقت للنهوض وإنزالها. سحبها ريتشارد له وحملها طول الطريق إلى سير الحقائب. وفورًا تقريبًا ظهرت الحقيبة السوداء الكبيرة ـ الخطرة ـ وبعدها الحمراء التى تحوى أشياء بن.

سأل بن "متى نصعد إلى الطائرة؟"

كان يتوقع شيئًا مثل الرحلة التى قام بها مع جونستون فوق لندن فى الطائرة الصغيرة .

لم يجبه ريتشارد. مازال أمامهما الخطر الأخير. الجمارك. ولكن الأمور سارت حسنًا وفى لحظة كان الاثنان خارج المطار تحت أشعة الشمس ثم، فى تاكسى، مع حقائبهما. ريتشارد كان يجلس فى المقعد الخلفى مغمض العينين لا يزال يرتعش من الرعب الذى عاشه. كان يعرف أن الحظ هو الذى أنقذهما رغم إنه يزداد إعجابًا بجونستون. كان يرغب فى النوم بشدة وقد فهم لماذا نام بن فى الطائرة. كان ذلك من شدة التوتر. فى السيارة كان بن صامتًا؛ لأن عينيه كانتا تؤذيانه بسبب التماع الشمس على البحر. لم يفهم أول الأمر تلك المساحة الشاسعة من الزرقة البراقة التى لم تكن تشبه أى ساحل بحر فى وطنه. أحس بالغثيان أيضًا. كان يكره السيارات دائمًا. ثم وجدا نفسيهما على رصيف وسط الزحام وقاد

ريتشارد بن إلى مائدة حيث جلس دافعا كرسيًا نحوه جلس عليه بن وكأنه فى مصيدة، وكأن الكرسى سوف يطبق عليه مثل فكين مفترسين. كان الوقت منتصف الظهيرة . كانا يجلسان تحت مظلة صغيرة ولكن بقعة الفىء الصغيرة لم ترح عينى بن المتألمتين. جلس وعيناه نصف مغمضتين. جاء النادل : قهوة لريتشارد وعصير برتقال لـ (بن). كان يكره القهوة. جاءت قطع كعك ولكن بن لم يحب الكعك أبدًا . وهكذا أكلها ريتشارد. هناك جلسا بالكاد يتكلمان . يحاول بن أن يستوعب مايستطيعه من التماع وضجة المشهد حوله بعينين نصف مغمضتين. كان شارعًا مزدحمًا، ومقهى حافلاً بالناس ولكن لا أحدًا ينتبه لهما . ثم فجأة، ظهر رجل عند المائدة وقال ريتشارد له "السوداء والزرقاء"، وراقب بن هذا الشخص ، شبح من ضياء وضوضاء، يختفى باتجاه تاكسى مع الحقيبتين. لم يراقبه سوى بن وريتشارد ؟ لم يلفت انتباه أى شخص آخر، من المتسكعين على الرصيف أو الجالسين على موائد المقهى ، أو المارقين بالسيارات، بل لم يلق أى شخص نظرة على الحقيبتين إحداهما كبيرة جدًا والأخرى عادية الحجم والتى ستضاف محتوياتهما إلى أنهار السم التى تطوف حول العالم. كان بن محتارًا . لقد ظن أن الحقيبة الزرقاء التى حملها فى المطار وسار بها خلال الماكينات والموظفين كانت له ولكن يبدو أنها ليست كذلك. هذه الحمراء حقيبته. وكان ثمة شىء آخر بدأ لتوه يستوعبه ـ وكان قبلها مشوشًا إلى درجة

لم يفهمه. كل الناس الذين حوله كانوا يتحدثون بصوت عال، ولكنه لم يكن يفهم مايقولونه. كانت ريتا قد قالت له بأن الجميع سيتكلمون بالفرنسية، ولكن لابأس لأن صديق جونستون كان بريطانيًا وسوف يتكلم معه الإنجليزية ويرعاه - ولكنه لم يعرف مسبقًا أنه سوف يجلس إلى منضدة فى هذه البلاد الأجنبية بدون أن يفهم أى شىء، مما يجرى حوله. وذلك الرجل، الذى اخذ الحقيبتين واختفى، فهم لغة ريتشارد الإنجليزية ولكنه كلم سائق التاكسى باللغة الفرنسية . كان الإرهاق قد بدأ يسرى فى جسد بن.

قال ريتشارد "إذًا، هذا ماهنالك " وكان عليه أن يقولها ليعلن إنجاز المهمة ولكنه كان يعرف أن بن ليست لديه اية فكرة عما حدث.

"سوف آخذك إلى الفندق" قال لـ (بن).

كان هناك جدل طويل حول نوع الفندق. كانت ريتا قد اقترحت فندقًا رخيصًا حيث يكون الناس ودودين - تقصد مثلها. فى حين قال جونستون "كلا، يجب أن يكون فندقًا جيدًا حيث يتكلمون الإنجليزية. فى الفندق الرخيص سيتكلمون الفرنسية فقط."

قالت ريتا" لن يعرف كيف يتصرف مع فندق جيد" ولكنها كانت على خطأ. كل شىء مضى بسلاسة. كان على بن أن يوقع اسمه فقط عند مكتب الاستقبال، فى حين كان الموظفون يبتسمون له لأنه

كان ممثلا سينمائيًا، ثم مودعًا بالابتسامات ، قاده ريتشارد إلى المصعد. تردد قليلاً بسبب خوفه من المصاعد ولكن ريتشارد دفعه إليه وكانت المسافة طابقين فقط ، لم تستغرق أكثر من لحظة. حالما دخل غرفته أحس بالراحة، لأنها ذكرته بطفولته، فى بيته إلى حد إنه تطلع إلى النافذة ليرى إن كان ثمة قضبان. ثم سار إلى النوافذ ليتفرج منها: كانت النوافذ أوطأ كثيرًا من نوافذ السيدة بجز فى شقتها فى ميموسا هاوس بشارع هالى. تمشى فى الغرفة، وقد اختفت التكشيرة من وجهه، وكان ريتشارد يراقبه مسترخيًا على كرسى، شاعرًا أن كل شىء سيكون على خير مايرام. كل ماعليه ان يفعله هو أن يشرح لـ (بن) كيف يستخدم الحمام والدش والتكييف. ثم أعلن أن عليه أن يغادر على أن يعود لاحقًا ليأخذ بن لتناول العشاء.

غادر وترك بن يجلس على كرسى ينظر من خلال نافذة مفتوحة إلى سماء زرقاء ساخنة.

هاتف جونستون ليقول له "كل شىء على مايرام. نعم . كل شىء تمام"

حين سمع جونستون هذا هرول صاعداً السلم إلى ريتا ليخبرها وانغمس فى التحليق بخيال إعادة العملية مرة أخرى: سوف يعيد بن ويكرر الانتصار. ولكن ريتا أنزلته على الأرض بقولها " كفى يا جونستون. لقد فلتّ هذه المرة".

حين عاد ريتشارد كان بن يطرطش الماء ويصيح فى الحمام، سعيداً كما يبدو ولكن كان أول شىء قاله حين خرج ليجفف نفسه ويرتدى ملابسه كان "متى أعود إلى الديار ؟"

أخذه ريتشارد إلى مطعم حقيقى، لأنه كان يريد أن يأكل لمرة واحدة على الأقل فى هذه الرحلة شيئًا جيدًا: ولكن ألم يكن الأجدى الذهاب إلى ماكدونالد؟ لأن بن لم يشرب إلا العصير، ولم يطلب مع جوعه إلا قطعة ستيك كبيرة ، تاركًا أصابع البطاطس والسلطة ثم طلب قطعة أخرى. بعدها اصطحبه ريتشارد للفرجة على البحر، ثم جلسا فى مقهى، ثم ذهبا فى المساء إلى استعراض يتضمن رقصا وغناء. ولم يعرف ريتشارد رأى بن فى كل هذا: فقد كان يوافقه على كل شىء ولكن استمتاعه الحقيقى كان يظهر جليًا عند تناول الطعام فقط.

فى الفندق وضع ريتشارد بعض المال فى يد بن وقال "لن تحتاجه ولكن للظروف. وسوف أكون هنا فى الصباح الباكر" كانت الأوامر التى لديه هى التأكد من قدرة بن على تدبير حياته اليومية. ثم أخذ كيسًا كبيرًا من النقود إلى خزنة الفندق وأودعها باسم بن؛ لأنه كان يعرف ، من خلال تصرفات بن، أنه لو كان يحمل تلك النقود لسرقها اللصوص منه من أول وهلة.

***

البرنامج الذى أعده ريتشارد لمتعة بن كان معدًا فى الواقع لنفسه: لهذا استأجر سيارة ليقوم بجولة مع بن إلى مدينة التلال خلف نيس. ولكن بن كان يشعر بالغثيان طوال الوقت، وحين كانا يصلان إلى ساحة صغيرة ساحرة أو مطعم لم يكن بن يريد أن يجلس فى الخارج وإنما كان يبحث عن فىء وحتى عندئذ كان يبقى عينيه مغلقتين معظم الوقت. كان من الواضح إنه يحتاج إلى نظارة سوداء، وهكذا عند العودة إلى نيس جرب بعضها على وجهه ولكن لم يجد واحدة مناسبة. وهنا اصطحبه ريتشارد إلى اختصاصى عيون، شعر بالارتباك وهو يفحص عينى بن، بل حتى عبر عن دهشته وسأل أسئلة كثيرة. ثم قال إنه من الصعب وصف نظارات لعينين "غير اعتياديتين" ولكن فى نهاية الأمر أعجب بنظارة يضعها الآن، فيجتذب المزيد من الحملقة به، مما جعله دائم التململ والتوتر، يكرر قول"مكان آخر. ليس هنا. لا أحب هذا المكان"

ثم حدث أنه بينما كانا يسيران باتجاه انعكاس صورتيهما على زجاج نافذة محل ، توقف وانحنى إلى الأمام وهو ينظر إلى نفسه قائلا "لا عينان لدى!" " لا عينان. اختفت عينىّ" وشعر بالذعر وانتزع النظارة. "ولكن بن، انظر إلى، ليس لدى عينان أيضًا" ثم خلع نظارته ليرى بن عينيه. ثم أعاد وضعهما. وببطء ارتدى بن نظارته ووقف يحدق فى صورته. مايراه يختلف عن أى شىء كان يراه فى لندن: السترة الأنيقة من الكتان، الشعر، والآن عينيه المغطيتين بالسواد.

تخلى ريتشارد عن خططه للقيام برحلات إلى الريف مابعد الساحل الساحر وحاول أن يكتشف ما يحبه بن. ولكن ماذا يحبه؟ كان يبدو عليه الرضا وهو يتمشى متسكعًا أو يجلس فى المقاهى حيث يسترخى الناس ويثرثرون. كان ذلك الإحساس بالاسترخاء مع الآخرين واللامبالاة هو الذى يفتن بن، ولكن ريتشارد لم يكن يعرف ذلك . كان يفكر بما يفهمه من ماضى حياته، وكان أحيانًا يتساءل إذا كان بن يشعر بالخوف ـ كما كان هو ـ من تصوره أن هناك من يطارده. كان بن مولعًا بالسير على حافة البحر، يرقب السفن التى تظهر ثم تختفى فلا تكون هناك. قال لريتشارد "أين يذهبون ؟" "من؟" "تلك المراكب" "أوه .. إلى كل مكان، فى أرجاء العالم يابن" ورأى نظرة الحيرة على وجه بن.

كان بن يحب أوقات تناول الطعام، ويحب قطع الستيك والفواكه. وهذا كل ماكان يأكله: الستيك والفاكهة. كان يعرف كيف يجلس فى مقهى ويطلب ما يريده، وكان يتدبر أمره جيدًا أيضًا فى الفندق. حيث يرسل ملابسه للتنظيف ، ويذهب بنفسه إلى حلاق الفندق الذى يحلق له ذقنه ويشذب شعره.

اصطحبه ريتشارد مرة إلى استعراض تعرٍّ، ولكن الإثارة بلغت به مبلغًا أنه بدأ يطلق صرخات وصيحات الشهوة، حتى اضطر ريتشارد إلى إغلاق فمه بيد. وفى الليلة التالية أراد العودة إلى المكان ووعد بأن يجلس ساكنًا، ولكن حين دخلت الفتيات، لايغطى

عريهن إلا بعض ريش أو قطع لامعة، نسى وعده، وكان لا بد من إمساكه وتثبيته فى مقعده. كان ريتشارد يخشى حقيقة أن يهرع بن إلى المسرح ويثب على إحدى الفتيات.

ماذا كان بن؟ كان ينام فى سريره مثل الجميع، يستخدم سكينة وشوكة، ويحافظ على نظافة ملابسه، يحب لحيته مرتبة وشعره مقصوصًا ولكنه مع ذلك لم يكن يشبه أحدًا.

خلال ذلك الأسبوع، لاحظ سكان هذا الميناء القديم والذين اعتادوا على رؤية المجرمين والمغامرين، ريتشارد ووضعوه فى الخانة التى قدروها له: على أكثر احتمال إنه مافيا محلية، هذا الشاب ـ والذى ليس شابًا تمامًا كما يحب أن يظهر، والوسيم بطريقة ناعمة، خطرة، رغم ابتسامته الدائمة. ولكنهم لم يستطيعوا توصيف بن. وكان الناس يبحثون عن عذر للمبادرة بالحديث . "من هو؟" بعضهم يسأل. "ماهو ؟" وكل ما يحصلون عليه من ريتشارد الذى صار فخورًا بقدرته على اتقاء شرهم "إنه ممثل سينمائى" ويعقب، حين يلقى رده استجابة طيبة "إنه مشهور. إنه بن لوفات".

فى نهاية أحد الأسابيع، هاتف ريتشارد جونستون ليبلغه أن بن لن يستطيع تدبير أموره وحده. كان فى حاجة إلى أسبوع آخر من المراقبة. لم يكن جونستون قد عرف بعد، مقدار نجاح خطته. كانت قد وصلت أول دفعة من المال، ولكن كان عليه

الانتظار لاستلام الدفعة التالية لئلا يثير الشكوك. ولم يكن يرغب فى أن يدفع لريتشارد مصاريف أسبوع آخر، فقد كان يرى أنه قد وعد شريكه فعلا بما هو أكثر من اللازم، ربع مليون جنيه، والتى لن تبدو بعد وقت قصير فى عينى جونستون شيئًا كبيُرا. وكان ريتشارد قد تعلل بأنه إذا مُسك متلبسًا مع بن وهما يمران عبر الجمارك الفرنسية فإن ذلك سوف يعرضه لنوع المشاكل التى تبقيه فى السجن سنوات. والآن يقول له جونستون إنه لم يقع فى أيدى الشرطة وإن كل شىء على مايرام. يرد عليه ريتشارد "كلا. ولكن كان يمكن أن يحدث ذلك" . كان يريد ربع مليون آخر. وحجته هى" بدونى لم تكن الخطة لتنجح." يرد عليه جونستون مصرًا على ألاّ يذعن لابتزازه "صحيح، ولكنى لا أفتقر إلى الرجال الذين يقومون بالعمل القذر عنى."

ماكان يمكن لهذا الحديث أن يستمر فقد كان يجرى عبر الهاتف وليس فى مكتب تأجير السيارات الذى يملكه جونستون وإنما فى مكتب صديق لصديقه، وحتى فى هذه الحالة كان يمكن تعقب المكالمة.

سأل جونستون" ماأهمية أسبوع إضافى آخر؟"

قال ريتشارد" ذلك يعتمد على ما إذا كنت تريده أن يقع أم لا. إنه يفعل كل ما أطلبه منه، وهكذا يمكن أن يفعل الشىء نفسه مع أى شخص. أليس كذلك ؟"

كان ريتشارد يصرخ بأعلى صوته بسبب ضوضاء مرور هادر حوله ، مما حدا بجونستون الجالس فى سكون غرفة فى شارع خلفى فى بركستون، تسمى نفسها مكتبًا، أن يفقد صوابه ويصرخ بتعليماته، وأهمها إنه فى حالة إصرار بن على العودة ، فينبغى ألا يعرف مكانه أو مكان ريتا. ثم وافق على دفع أسبوع آخر .

أبلغ ريتشارد بن أن إجازتهما قد امتدت أسبوعًا آخر.

فسأل بن "ثم هل نعود إلى الوطن؟"

"ما الذى تعود إليه ؟ لماذا تريد أن تترك كل هذا؟"

فى عينى ريتشارد، كان الساحل تعبيرًا عن الرفاهية. كان ينحدر من مدينة إنجليزية شمالية، وخلفية قبيحة: يمكن القول إنه ولد مجرمًا. مثل جونستون، مر بالإصلاحية ثم السجن. وكان أفضل ماحدث له هو التقاء جونستون. وهو يعبده ومستعد أن يفعل أى شىء يطلبه منه. وقد أرسله جونستون إلى هذا الساحل ليقوم بمحاولة إدخال سيارة مرسيدس إلى فرنسا، بدون وثائق، وقد نجح فى العملية وبقى فى هذا البلد. كانت الحياة ، خاصة الذهاب والإياب من وإلى المقاهى والمطاعم ، وأشعة الشمس، وسماوات الساحل، تمطره بوعود السعادة. كان يعيش حياة بائسة بالكاد يأكل ، ولكن كل ذلك يهون من أجل

أن يعيش هنا، والآن سوف يحصل هذا النصاب الصغير، بسبب جونستون، على ربع مليون جنيه وقد خطط لشراء منزل صغير أو شقة، أى شىء، المهم أن يظل هنا على حافة البحر، حيث النور.

وهاهو بن، الذى يجلس دائمًا فى الظل، لا يرغب فى شىء إلا العودة الى لندن. ولكن ريتشارد لم يعرف أبدًا مدى حنينه لذلك .

فى إحدى الليالى، خلال الأسبوع الثانى، حين تركه ريتشارد فى الفندق، خرج وهام على وجهه فى الشوارع، صاعدًا السلالم المفضية إلى المدينة حتى توقف لأنه رأى ، فى مدخل أحد المنازل، فتاة تبتسم له.

كانت قد خمنت أنه إنجليزى، ومن ثم استخدمت الكلمات الإنجليزية القليلة التى تعرفها لتحدد السعر، واستدارت لتدخل غرفتها. ولم يكن فى جيب بن المبلغ الذى طلبته والذى كان أكثر مما كانت ريتا تطلبه. فكر أنها ستعامله بطيبة كما كانت تفعل ريتا. فى الغرفة تفحصت هذه الفتاة بن : ومثل ريتا أعجبت بالكتفين العريضتين ، وبالقوة البادية عليه. استدارت لتخلع تنورتها، وشعرت بتلك اليدين الضخمتين على كتفيها. ثم به يثنيها إلى الأمام وينشب أسنانه فى رقبتها. تملصت منه وصرخت أنه حيوان، خنزير، ودفعته إلى الباب ثم خارجه، وحذرته بالفرنسية ألا يقترب منها ثانية.

سار بن فى الشارع رجوعًا إلى فندقه وهو يفكر أن عليه أن يجد امرأة مثل ريتا، أنثى لطيفة: كان يتوق إلى حنان النساء.

أخبره ريتشارد بأنه لم يتبق لهم إلا ثلاثة أيام، يكون بعدها بن حرًا طليقًا. وقد كره قوله هذا. لم يكن يريد أن يترك بن وحده، وليس لأن ذلك يعنى انتهاء أيام الخير فحسب، وإنما لأنه أولع بهذا الكائن.. أيًا كان. كان يعرف أن بن سيقع فى المشاكل عاجلاً، فلم يكن يعرف ماذا ينفعه وماذا يضره.

قال بن إنه سوف يعود إلى لندن. وقد فهم أنه إذا كان لديه جواز سفر وبعض النقود، فكل ما عليه أن يفعله هو الطلب من البنات فى مكتب استقبال الفندق أن يحجزن له رحلة. فقد راقب ضيوف الفندق الآخرين يفعلون نفس الشىء.

كان يريد أن يرى جونستون. لقد صنع معروفًا لجونستون "افعل هذا من أجلى يا بن . نعم هذا صحيح إنك تصنع لى معروفًا. وسوف أكون ممتنًا حقيقة لك" كان لتلك الكلمات نفس تأثير كلمات السيدة العجوز على بن "أنت ولد طيب يابن"

كان بن يشعر بالحب تجاه جونستون، وكان يتخيل كيف سيلقاه بترحيب كبير ـ ولكنه كان يسمع ريتشارد يقول "بن ، أنت لا تفهم. جونستون لم يعد هناك الآن"

"ولماذا ؟ أين هو ؟"

"لقد سافر. لم يعد يدير مكتب تأجير السيارات"

سيتحقق هذا قريبًا إذا لم يكن قد حدث بالفعل. فقد قال له جونستون "لا أريده أن يعود هنا. وأنا لن أظل هنًا طويلاً على أية حال. وريتا قد تركت المكان. قل له ذلك. قل له إن ريتا قد غادرت"

أخبر ريتشارد بن بذلك، ورأى ما ظنه حزنًا أو على الأقل انزعاجًا.

اعتصر الخوف بن ، ألم بارد. لقد كان له ملاذ وحيد، صديقة حقيقية واحدة - ريتا. وقد تركت المكان.

ثم تذكر المرأة العجوز. يمكنه أن يعود إليها. لديه بعض المال الآن وهكذا سوف ترحب به، ويمكن حتى أن يعطيها نقودًا لشراء الطعام.

قال لريتشارد إنه سيعود إلى صديقة أخرى، السيدة بجز، وعثر فى محفظته على قطعة الورق التى كانت قد أعطته إياها. وقال "انظر. هذا عنوانها" .

"لو كان هناك رقم هاتف ، يمكنك أن تكلمها"

قال بن " لديها هاتف. كل إنسان لديه هاتف"

وفكر ريتشارد بقوة. إذا عاد بن إلى لندن، إلى السيدة بجز، فسوف يبعده هذا عن طريق جونستون. أمر بن أن يبقى حيث هو - كالمعتاد عند منضدة المقهى وذهب هو ليطلب استعلامات الدليل. غرامه بفرنسا، أو بالأحرى بهذا الساحل، جعل من السهل عليه أن يتعلم بعض الجمل الفرنسية، ولكنه وجد صعوبة أن يقنع عاملة الهاتف الفرنسية أن تطلب له من تسمى

لسيدة بجز فى هذا العنوان. أخيرًا وجد نفسه يكلم
ستعلامات الدليل الإنجليزى حيث قيل له إنه ليس
مة سيدة باسم بجز فى هذا العنوان ولذلك فالرقم
خاطئ. ثم طلب أن يوصل بالمنزل رقم ١١ ميموسا
ـاوس، وأجابته امرأة قالت إن السيدة بجز لم تعد
سكن هناك ، فقد توفيت فى المستشفى.

حين أبلغ ريتشارد بن بأن السيدة بجز قد ماتت،
جلس متسمرًا، صامتًا محدقًا، فى الفضاء. وقد
درك ريتشارد اضطرابه، وحاول أن يخرجه بحديثه
ن تلك الحالة ، مقترحًا أن يطلبا الغداء ، ثم يتمشيا
على الشاطئ.

لم يعرف ريتشارد أن حزن بن كان يمنعه من
لحديث، ومن تناول الطعام ، وأنه لايملك إلا الجلوس
لا حراك. كان حزنًا لن يغادره بعد الآن.

كان بن قد أدرك، إنه لم يعد هناك، لا فى لندن
لا فى البلاد كلها، من يبتسم له إذا رآه. وكان يتذكر
رفة السيدة بجز حيث عاش سعيدًا ، وهو يرعاها،
تذكر ريتا التى كانت لطيفة معه ثم تذكر بيته، ولكن
أن تخيل أمه، تراءت له فى ذلك المشهد حين كانت
جلس على مصطبة المنتزه وتربت عليه ليجلس بول
ى جانبها. صورة بول .. ذلك الأخ الكريه ، تصاعدت
ملأت رأسه بالرغبة فى ارتكاب جريمة.

لم يتحمل أن يفكر بأمه.

فيما بعد، نهض من مقعده حين قال ريتشارد إن
ليه أن يفعل ذلك. وتمشى معه على الشاطئ، ولكنه

لم يـر شيـئًـا، ولم يشـعـر إلا بـالألم العـمـيق فى قـلبه، والـثقل فى جسـمه حـتى لـيود أن يـتمـدد هـنـاك عـلى الرصيف، حيث يمر الناس ، يثرثرون ويتضاحكون.

قال إنه يريد أن ينام.

فى اليوم التالى، صعد ريتشارد إلى غرفة بن - حيث يملك مفتاحًا إضافيًا - ودخل فوجد بن ينام مكورًا على سريره، كانت عيناه مفتوحتين، ولكن بلا حراك.

ولأن بن كان قد اعتاد إطاعة ريتشارد، فقد نهض لأن ريتشارد أمره بذلك وخرج لتناول الطعام والمشى قليلا ولكنه لم ينطق بكلمة.

والآن كان على ريتشارد أن يترك بن: لقد حان الوقت. كان يشدد على نصائحه وتوجيهاته "سوف تتذكر كيف تفعل هذا يابن؟ كل ماعليك فعله هو أن تفعل ما كنا نفعله معًا وسوف تكون على مايرام"

ولم يرد عليه بن .

وفى الصباح الذى غادر فيه ريتشارد، تحدث مع الفتاة فى مكتب الاستقبال، قائلاً إنه من الأفضل تسليم بن ماله بشكل دفعات "إنه مثل الأطفال بشكل ما. ليس لديه خبرة فى الحياة "وحين ودع بن، فى غرفته، وتكور بن على السرير، شعرهذا الرجل الفظ والقاسى بأنه يوشك على البكاء. بماذا كان يفكر جونستون وهو يترك هذا الغرّ الأبله طليقًا فى العالم؟

وهكذا خرج ريتشارد من حياة بن، للبحث عن مكانه الصغير، حيث يستطيع أن يعيش حرًا، وليس مطاردًا طوال حياته، يتوقع فى كل لحظة أن تضع الشرطة يدها على كتفه : وربما كانت دموعه التى أوشكت على السقوط فى لحظة الوداع اعترافًا بتشابه حالتيهما فى العالم. ولكن خططه لم تتحقق تمامًا، فأنت تستطيع أن تشترى منزلاً صغيرًا لطيفًا بربع مليون جنيه ولكنك حين تعيش فيه، عليك أن تنفق أموالاً أخرى، عليك أن تأكل أيضًا. وهكذا انساق ريتشارد إلى عالم الجريمة مرة أخرى. ولم تكن لقصته نهاية سعيدة.

***

جلس بن على السرير ومن خلال نظارته السوداء حدق على المربع الأزرق فى حائطه. لقد ذهب ريتشارد، وقد كان يلازمه طوال الوقت، منذ القدوم إلى هنا. وذهبت المرأة العجوز، وريتا وجونستون. فى ذلك العالم الذى كان فيه هو جزءًا من مصطبات الحدائق والمداخل ومحطات السكة الحديد، حيث يتكور إلى جوارك ليلاً شخص ما تستمد من قربه الدفء ـ ثم فى الصباح ، يختفى. ولن تراه مرة أخرى. كان يشعر بالضياع وبأنه بلا وزن أو انتماء حتى يمكن أن تبتلعه أرض الغرفة أو يطير عائمًا فى فضائها. ورغم ذلك، فله مكانه هنا، فالغرفة مدفوعة الأجر للأسبوعين القادمين. يستطيع أن يختبئ فى الغرفة أو يخرج إلى الشوارع إلى الأماكن التى ارتادها مع

ريتشارد. وكان يشعر بالجوع. كان ريتشارد قد نصحه
بطلب الطعام من خلال خدمة الغرف إذا وجد الخروج
صعبًا عليه. ولكن بالنسبة لـ"بن" فقد كان يعتبر كل ما
لم يجربه بنفسه، فخًا يقنصه ويحبسه. في ردهة
الفندق، رد مبتسمًا على ابتسامات النساء خلف مكتب
الاستقبال. ثم ذهب إلى المقهى. ذهب إلى المقهى الذى
يعرفه جيدًا. وقد جلب له النادل ما يطلبه دائمًا.
قطعة لحم ستيك ثم بعض الفواكه. وكان ريتشارد قد
دربه على دفع ثمن الطعام، وقد وضع المبلغ الذى
طلبه النادل باللغة الإنجليزية، ولكنه كان يعرف أن
المطلوب كان أكثر من أى وقت مضى. ذهب إلى
السوق، ولأن ريتشارد لم يكن معه ، وكان مثل درع
يحميه من هذا العالم الملىء بالضوضاء والضياء ، كان
صوت اللغة الفرنسية يؤذيه ، فهو حافل بالمعانى
الغامضة والأخطار. وكان الاثنان قد اعتادا شراء
الفواكه من السوق، وهكذا أشار بن إلى العنب والخوخ
ولم يفهم ما تقوله البائعة فبسط راحته بالنقود ورآها
تأخذها كلها. وقد أدرك من الابتسامة الراضية
الصغيرة التى ارتسمت على ذلك الوجه وهى تستدير
ثم الطريقة التى أخفت فيها النقود التى أخذتها منه
فى جيبها، إنها خدعته. شعر بأن العيون عليه، وأدرك
أن الناس يعلقون على ماجرى. جلس كما كان يفعل مع
ريتشارد إلى مائدة المقهى للفرجة على الأحداث
والناس، وكان يعرف أن عليه أن يمر بطقوس طلب
عصير فواكه ثم دفع سعره ـ ونهض وعاد متعثرًا إلى

فندقه. كان يشعر بالذعر. تلك كانت أسوأ لحظاته. كانت الفكرة تنبض فى رأسه : أنت وحيد أنت وحيد. أحس بالخطر يحيق به فى كل مكان وكان محقًا. لقد كان فى حماية ريتشارد ولم يعد كذلك .

عاد إلى غرفته. فى تلك الليلة خرج إلى أفقر أحياء المدينة بحثًا عن فتاة ولكنه لم ير واحدة. وقرر أن يحاول مرة أخرى فى الليلة التالية. كان يفكر فى ريتا؛ لأنه الآن يبحث عن العطف، ولكن قبل أن يبدأ حياة التسكع على الساحل متتبعًا ابتسامات بائعات الهوى، معرضًا نفسه لكل أنواع المشاكل، حدث شىء آخر غيّر مسار حياته.

وقف عند مكتب الاستقبال فى الفندق مخرج أفلام من نيويورك، يثرثر مع فتاتين كانتا ترتبان حجز رحلة عودته إلى نيويورك. كان أليكس فى منتصف العمر ولكن بطريقة أمريكية، حيث يبدو أصغر سنًا، رشيقًا، موفور الصحة يرتدى ملابس شبابية، ملونة وغالية. كانت العودة الى الوطن تبدو مثل هزيمة. بعد طول قلق وأزمات، استطاع أن يصنع فيلمًا قبل ثلاث سنوات، ليس الفيلم الذى كان يتمنى أن ينجزه. ولكنه لم يستطع أن يجتذب أموال المنتجين لذلك الفيلم. كان الفيلم حول الشباب الذين يتحولون إلى مجرمين وتجار مخدرات فى مدينة أمريكية جنوبية وقد أكسبه الفيلم اهتمامًا كافيًا ليعلم أن الجمهور يتطلع إلى فيلمه الثانى. وهذه المرة سوف يتمسك بالفيلم الذى فى خاطره وإذا تطلب ذلك الانتظار.. ولكنه كان

ينتظر منذ وقت طويل والمال يتناقص. منذ سنة وهو فى حالة هوس، مثل رجل مجنون بفكرة واحدة: أى فيلم وأية قصة ؟ كانت الأفكار تدور فى رأسه وحتى فى أحلامه تأخذه إلى هذه المدينة أو تلك البلاد، وتتملكه الفكرة ثم تختفى - ليست جيدة تمامًا. ثم تتلبسه فكرة أخرى. لقد وصل إلى النقطة التى يكون فيها كل شخص يراه أوكل شارع أو كل بار أو محطة قطار أو مطار، موضوع فيلم. أصبح العالم مثل مواقع تصوير متخيلة لأفلام فى علم الغيب، وكان يعرف أنه قد جُنّ قليلا. طوال نصف عام كان على يقين من أنه سوف يصنع فيلمًا عن الأيام العظيمة لميناء على البحر المتوسط فى الزمان الغابر، وكان هذا سبب وجوده هنا. ولكن لم يظهر شىء لبلورة فكرته وعليه أن يغادر الآن. ومع ذلك يتردد فى مغادرة الساحل وأحلامه... ومن المصعد هبط بن إلى ردهة الفندق وتابعته عينا أليكس. ذهب بن إلى الأبواب الدوارة المفضية إلى الشارع ، وتوقف، عاد وغاص فى مقعد. كان يبتسم - ربما لفكرة خاصة جذابة؟ - أليكس الذى لم يستطع - طوال شهور - النظر إلى أى شىء أو أى شخص بدون أن يمتلئ رأسه بمشاهد براقة مغرية، رأى هضابًا قاتمة تحت سماء ثقيلة داكنة ، وصخورًا سوداء متراكمة ، تنبت عليها أشجار ضاربة فى القدم، سمع ماءً يتلاطم، ومن جنب شلال صغير، يظهر مخلوق، رابضٌ، كثيف الشعر وعريض المنكبين والصدر. ، يرفع عينين عدائيتين لامعتين ليرى هذا الغريب، أليكس،

وينبح. وعند سماع النباح يبرز من خلال الصخور والأشجار مجموعة من المخلوقات المماثلة، التى أخذت تتسلق التلال إلى فتحة كهف، وهى حفرة كبيرة فى جانب التلال. وهناك تجمعت وهى تقف حذرة لترى نوع الخطر الذى يمثله هذا المجهول. وتحتهم كانت ذرى أشجار قديمة من نوع يقسم أليكس إنه لم ير مثلها فى حياته، وحولها فى كل مكان، صخور ناتئة. هذا القطيع من ماذا ؟ أقزام ؟ إنسان الغاب؟ مخلوقات لم ير إليكس مثلها فى الصور أو فى الأفلام - كانوا ثابتين على أرضهم يحدقون فيه. كان أطولهم خمسة أقدام وثلاثة أو أربعة إنجات، والآخرون أقصر - إناث ربما ؟ من الصعب تمييز جنسهم والشعر يغطى أعضاءهم التناسلية. وشعر خشن خفيف اللون على أكتافهم وصدورهم. عيون خضراء اللون. وفى أيديهم هراوات، وصخور، بعضها حاد مثل السكاكين. ... واضمحلت الرؤيا، اختفت، وكان إليكس يحدق فى بن بملابسه الأنيقة بينما كان هو فى تلك اللحظة، ينظر إلى الأبواب الدوارة وهو يفكر بأن عليه أن يعود إلى لندن ويبحث عن ريتا. وعلى أية حال كانت تحتفظ له بتلك النقود فى الخزانة، ولكن جونستون سوف.. كان التفكير فى جونستون هو الذى ابتعث تكشيرة الخوف تلك على وجهه. كان بن قد أدرك أن جونستون قد كذب عليه وخدعه والآن يتركه بلا حول هنا، يحيط به إناس ينطقون بأصوات لا يفهمها.

استدار أليكس إلى الشابات خلف المكتب اللاتى كن ينتظرن أسئلته حول بن: لقد اعتدن على مثل هذه

الأسئلة. وقد طورن أفكارًا خاصة حول بن. واحدة تقول إنه خريج مستشفى أمراض عقلية وأنه رجل غنى وقد أرسل إلى هنا برفقة وصى. أخرى تقول إنه كما هو واضح مصارع من الوزن الثقيل. وثالثة تعتقد أنه نتاج تجربة فاشلة فى معمل أبحاث، وتضيف أن بن يبعث فيها قشعريرة. ولكنهن كلهن كن يسبغن حمايتهن عليه، يساعدنه بتقديم النصائح باللغة الإنجليزية، وبتكريس بعض أوقاتهن للذهاب معه إلى غرفته للتأكد من أن هناك طبقًا لفاكهته، أو للعثور على شىء ما، مرة جواز سفره الذى اعتقد فى لحظة هلع أنه أضاعه، ويبدو الآن أن هذا الجواز هو الشىء الوحيد الذى يقف حائلاً دون أن يكون نكرة. فبدونه من يعرف أنه بن لوفات من إسكتلندا، فى الخامسة والثلاثين من العمر، ونجم سينمائى ؟

والآن كانت هذه الوجوه المبتسمة، المساعدة، تخفى إصرارًا لحماية بن من مخرج الأفلام هذا. ففى الأفق رائحة استغلال مريب وقاس أيضًا، وهن يعرفن أن بن بلا حول ولا قوة. وحين سأل أليكس "من هو ؟" قالت إحداهن "إنه من لندن" وقالت أخرى "إنه فى إجازة هنا" ولكن الثالثة التى لم تكن تعتقد أن بن يعمل فى السينما ولم تكن تحب أليكس ، قالت "إنه يعمل فى السينما" .

قال أليكس:" اتركن مسألة الحجز. سوف أبقى هنا بعض الوقت." وسار فى اتجاه بن وجلس وقدم نفسه.

تجمدت تكشيرة بن، وزاغت عيناه ذعرًا، ولكن أريحية أليكس الودودة ذكرته بريتشارد وحتى بالمرأة العجوز، واختفت التكشيرة المرتعبة، وحلت محلها ابتسامته. دعا أليكس بن على الغداء ثم جلسا فى مقهى وأستمر ذلك ليوم وآخر ثم لإسبوع، وطوال الوقت كان أليكس، بتلك الرؤيا أو الحلم فى رأسه حول الأقزام أو أيًا ماكانت تلك المخلوقات، يفكر بالفيلم الذى يمكن أن يصنعه مع بن. ولكن كان ينقصه قصة وفوق كل شىء ، المال لتنفيذ الفيلم. كانت أفكار قصص تروح وتجىء، كل واحدة تستلب خياله لفترة ما. وكان مفتونًا بتلك المخلوقات. من ؟ ماذا ؟ ليسوا وحوشًا، لأن بن كان يعيش الحياة اليومية، يستخدم الشوكة والسكين ويذهب كل يوم إلى الحلاق لتشذيب لحيته وشعره. يغير ملابسه ـ التى صارت رثة. سمع أليكس أن جونستون هيأ له قمصانًا وسترات صنعت خصيصًا له. من كان جونستون ؟ قال بن إنه يمتلك سيارات وسائقين لتوصيل الناس إلى كل أرجاء لندن ولكنه سافر الآن. كان بن غامضًا حول كل شىء. كانت حدود فهمه ضيقة إلى حد كبير، وكان يظهر تعاطفه ونفوره بطريقة أكثر غرابة. كان يتحدث عن المرأة العجوز ولكن ليس عن القطة، عن جونستون ولكن ليس عن ريتا، لأن التفكير فيها كان يملؤه بالحزن الشديد. قال إن لديه عائلة ولكن أباه كان يكرهه، ولم يذكر بول أو أمه. وفى النهاية، ما استطاع أليكس بايل أن يستخلصه من كل هذا أن بن وقع فى طريقه بدون

ارتباطات. وهكذا يمكنه أن يستخدمه بدون أن يأتى أناس للاستفسار أو المطالبة.. حسنًا، بماذا ؟ إنه لم يكن ينوى استغلال بن ! بل سوف يدفع له. وسوف يرعاه. ومرة أخرى حصل بن على قمصان مصنوعة خصيصًا له وسترتين، واحدة ثقيلة وأخرى خفيفة وبعض القمصان الرياضية ذوات الياقات العالية لإخفاء الشعر على رقبته.

وكان بن يعرف أن صديقه هذا، الذى سوف يرعاه، يريد أن يصنع معه فيلمًا: فقد كان ممثل سينما حقيقيًا. لم يكن بن يحب الأفلام؛ لأنها تخرق عينيه بالضياء وتشعره بالغثيان. أخذه أليكس إلى السينما بعد أن اختار بعناية الفيلم كما تختار لطفل، قصة قوية جيدة وإثارة وخطر. ولكن بن جلس مغمض العينين ، يفتحهما بين حين وآخر فى محاولات يائسة سريعة للمشاهدة، ولكنه لم يكن يستطيع أن يرى، كان النور الوامض الخارق أكثر مما يتحمله.

ذهب أليكس ببن إلى طبيب عيون ليصف له نظارات، فقد كان على يقين من النظارات السوداء التى يستخدمها بن قد وصفت له بالخطأ. كان بن يفضل نور الغسق على ضياء النهار، ولم يكن يجلس فى الشمس أبدًا وتظل عيناه فى ـ النور القوى ـ نصف مغمضتين. وبدا الاضطراب أيضًا على طبيب العيون هذا. حين خرج من غرفة الفحص ليتحدث مع أليكس حيث إنه لم يستطع التفاهم مع بن، قال إن العينين غير اعتياديتين فهما لا تتكيفان مع الضوء.

وكانت أفكار الطبيب حول بن تماثل أفكار الفتاة فى الفندق التى كانت تميل إلى الرأى أنه نتاج تجربة مختبر فاشلة. ولكنه لم يكن ليصرح بما يعتقده ويخلق لنفسه المشاكل. قال إن النظارات التى يستخدمها بن جيدة ومناسبة ولكنه يعتقد أن اللون يجب أن يكون أقل حدة من الإعتام التام. كانت عينا بن تدمعان بغزارة ، وكان يكشر حرجًا، كما ظن الطبيب، ولكن أليكس أصبح يعرف الآن معنى تلك التكشيرة المشهودة.

حين علم أليكس أن حساب الفندق مدفوع مسبقًا لإسبوع آخر أيضًا وعلم بوجود مال بن فى خزينة الفندق ، شعر بالارتياح لأن أقل القليل ينفع. كان عليه أن يحصل على الأموال لتنفيذ الفيلم من مصدر ما. وكان يقضى ساعات يهاتف لوس أنجلوس ونيويورك وأماكن أخرى تصنع فيها الأفلام ثم أخيرًا أقنع المنتج الذى مول فيلمه الأخير أن يعطيه مالاً كافيًا. لم تكن لديه قصة وإنما عدة قصص. وحين أخذ يصف بن كان هناك فى صوته من الإعجاب والإثارة والدهشة ما ساعد على انتزاع ذلك المبلغ من المال.

كان على أليكس الآن أن يعثر على قصته. المشكلة هى خلو رأسه الآن من قصة فيلم يضاهى فى غرابته المثيرة تلك الرؤيا لقطيع المخلوقات عند فتحة الكهف، ينظرون عبر حاجز الزمن ـ ملايين السنين؟ إلى وجه أليكس، وهو ـ كما يفترض ـ آخر نسلهم. إذا كان كذلك، هل تبقى شىء من جيناتهم فى

مكان ما من جسده؟ هل يتشارك فى الجينات مع بن؟ أحيانًا كان يعتقد بذلك، ولكن كانت ثمة لحظات يدرك فيها حجم اختلاف بن عنه. كان يقول لنفسه فى الخفاء إن بن ليس من البشر حتى وإن تصرف معظم الوقت كذلك. كما إنه لم يكن حيوانًا. كان طفرة من نوع ما. إذا كان الإنسان القديم نوعًا من الحيوانات فكيف تأتى لـ "بن" أن يعيش حياة البشر - حسنًا ، لنقل معظم الوقت؟

ولكن ماكان يقلق أليكس هو أنه بعد صناعة الفيلم ، وبعد أن ينتهى كل شىء ، سيبقى بن، وسيكون عليه أن يعتنى به. فى الوقت الحاضر، كل شىء على مايرام. كان بن يقضى أيامه مع أليكس وجزء من أماسيه أيضًا. كان لأليكس أصدقاء على طول الساحل، وفى المدن الصغيرة فوق الهضاب، وقد حاول أن يصحب بن فى زياراته، ولكن الأمر كان صعبًا فلم يعاود الكّرة. وماذا كان بن يفعل فى الأماسى التى يتركه فيها أليكس؟ كان يذهب إلى المدينة بحذر كما لو كان فى رحلة صيد أو مطاردة، للبحث عن أنثى. وقد وجد واحدة و مرة أخرى انهالت عليه كلمات bete و cochon ولكنه فهم أن ذلك يعنى رفضًا.

ثم خطرت لأليكس فكرة. سوف يعود إلى أمريكا الجنوبية لإخراج الفيلم. هذه المرة ، البرازيل. كان يعرف بعض الناس هناك وقد أخرج فيلمًا صغيرًا ومسرحية. لن يكون مكان قصته فى شمال أوروبا، مع

ميراث الأقزام وحراس باطن الأرض والمردة والجنيات السمر والجنى اللطيف ـ سوف يقذف بكل تلك الحمولة إلى البحر، ويتجه جنوبًا، إلى الغابات حيث تطير فراشات بحجم السمّان، وحيث التاريخ بمثل قدم ووحشية تاريخ أوروبا. وهناك سوف يطلق العنان لأى رؤى تنثال عليه.

وصف أمريكا الجنوبية أمام بن، وصف البرازيل وريو. وكالعادة لم يعرف ماذا فهم بن من كل ذلك. لقد اعتاد على مراقبة تلك التكشيرة التى تقول الكثير. سأله بن إذا كانا سيذهبان فى طائرة، وقال إنه ركب طائرة من قبل، طائرة صغيرة. ووصف منظر لندن من فوق. لقد رأى منزل المرأة العجوز والشارع الذى يعمل فيه جونستون ـ حين كان يعمل ولكنه سافر الآن. لم يذكر الطائرة من لندن إلى جنوب فرنسا، لأنه لم يقتنع بأنه كان عليها. هل البرازيل بعيدة جدًا ؟ تساءل بن. ولكن بعيدة عن ماذا ؟ أراد أليكس أن يعرف، ولكنه لم يطرح سؤاله. كان يشعر بالذنب لما يقوم به. ولكنه وعد نفسه، إنه سوف يضمن عودة بن إما إلى هنا أو إلى لندن حيث يمكن لأصدقائه أن يعتنوا به.

وهكذا استرجع بن ما تبقى من نقوده فى خزانة الفندق وطار الاثنان إلى ريو دى جانيرو.

***

ولكن ذلك لم يكن بسهولة القول. أولا كان عليهما أن يركبا الطائرة من فرانكفورت للوصول إلى ريو. وقف بن فى صف من الناس وأليكس أمامه، وفى يد

جواز سفره وفى الأخرى حقيبته. فى الخارج كانت شمس البحر المتوسط تنعكس على النوافذ والسيارات وأوراق الشجر والغيوم. ولكن بن كان يغمض عينيه نصف إغماضة حتى مع ارتدائه نظارته السوداء، وكانت التكشيرة على وجهه، ربما أنا ذاهب إلى البيت ؟ كان يفكر وهو يقف أمام مكتب خطوط الطيران بجوار أليكس الذى كان يقول إن بن يريد مقعدًا قرب الشباك. وحين توجها إلى الطائرة، أدرك بن أن هذه طائرة وفى مقعده بجوار النافذة ، وأليكس إلى جانبه، استطاع أن يقارن مايراه من مناظر تحت بما رآه من نافذة الطائرة الصغيرة التى ركبها فوق لندن. ثم غلفت السحب الطائرة ووجد نفسه ينظر إلى بياض باهر الضياء، مؤذ. أغلق عينيه ورجع إلى الخلف وقال أليكس" إنها ساعة فقط يابن" يقصد فرانكفورت، ولكن هناك حدث الشىء ذاته مرة أخرى .. الزحام ، والسلالم المتحركة، والأنوار القوية، والمشى فى ممرات ، ثم الانتظار عند البوابة، وبطاقة الصعود فى يده. تململ قلقًا إلى جانب أليكس وهو يكشر.

راقب أليكس هذا الرفيق الجزع وشعر بالريبة، والخوف الحقيقى. كان يمكن أن يضربه بقوة على كتفه وهو يقول " كل شىء تمام يابن. سوف ترى" ولكن فى الأمس، حين ضربه بود كما يفعل مع صديق فى أمريكا، رأى هاتين العينين الخضراوين تضطربان وتغليان وتغضبان ، وهاتين القبضتين.. لم يكن أليكس يعلم كم كان قريبًا حينها من التهشم بالذراعين

القويتين وتلك الأسنان فى رقبته. ولكنه كان يدرك، مع ذلك، أنها كانت لحظة خطرة .

كانت عينا بن محمرتين بالهياج وقبضتاه تنبضان بالقتل ـ لقد كبح جماح خطره وألجم اندفاعه بصعوبة. يجب ألا يطلق العنان للغضب، كان يعرف ذلك، ولكن حين ضربه أليكس هكذا.. كانت التعاسة، التى تغلغلت فى أعماقه منذ علمه برحيل المرأة العجوز وكذلك جونستون وريتا أيضًا ، تتخذ من الغضب رفيقًا. لم يستطع أن يعرف ماذا يريد أكثر: أن ينوح ويعوى من الألم أو يجن ويقتل.

كانت هناك ممرات هابطة ملتوية طويلة ثم الباب إلى داخل الطائرة : لم يصدق بن أن هذه طائرة : فهى كبيرة جدًا. لم يكن يستطيع أن يرى مدى اتساعها تمامًا. وأدرك أنه لم يكن ذاهبًا إلى البيت ولكن فى مكان ما فى رأسه الذى يأمره دائمًا أن يكبح جماح نفسه وأن يعقل، كان يقول لنفسه إنه وُعد بالعودة إلى البيت وقد خُدع وأن أليكس كان جزءًا من الخداع. برازيل. ماهى برازيل؟ لماذا عليه أن يذهب إلى هناك؟ لماذا عليه أن يظهر فى فيلم؟

هذه المرة، لم ينظر خارج النافذة، لأنه يعرف أنه لن يرى سوى غيوم بيضاء وبريق مؤذٍ. إحدى عشرة ساعة من الطيران ـ ماذا سيفعل بن فى ذلك الوقت الحبيس الممتد؟ كانا يطيران فى الدرجة الاقتصادية: لأن أليكس لم يكن لديه الكثير من المال ليبذره.

حين جاءت المشروبات، أمر أليكس بن أن يشرب ماءً، وشرب بن. هل يجب إعطاؤه حبوبًا منومة؟ ولكن ربما تكوينه مضاد للادوية المخدرة: مثل هرٍّ إذا أعطيته حبوبًا قاتلة للألم أو منومة مما يستعملها البشر، قد يصاب بالضرر أو حتى ينتهى بالموت. ولكن سرعان ماحُلت المشكلة فقد نام بن وهو متشبث بقوة بحزام مقعده الذى يكرهه. كان التوتر العنيف فى جسمه أكثر مما يحتمله، وحين استيقظ خلال الرحلة، تطلع حوله ثم عاد ثانية إلى النوم.

فى ريو كان الوقت صباحًا وكان للضياء عنف صلف أيقظ بن. كان يقبض على أعضائه التناسلية ويجاهد أن ينهض. اصطحبه أليكس إلى الحمام فى الوقت المناسب. وكان يفكر: إن هذا مثل رعاية طفل - وكان لديه طفل، ولد، من زواج انتهى بالطلاق.

الفندق لم يكن مشكلة عويصة، فقد كان بن يدرك ماهية هذا ووقف أمام مكتب الاستقبال بثبات وثقة. ثم - وقد رأى أليكس ماكان يجرى وغضب من نفسه - كانت اللغة جديدة على مسامع بن. البرتغالية. وكان بن قد اعتاد على الأقل على أصوات اللغة الفرنسية.

سأل بن أليكس"ماهذا ؟ " بصوت خشن وحزين وغاضب :" ماذا يقولون؟"

شرح له أليكس. لقد أمضى وقتًا طويلاً يحدث بن عن روعة البرازيل و ريو، عن الغابات والسواحل

والبحر فى كل مكان، ولكنه غفل عن إخباره أن الناس هناك يتكلمون البرتغالية.

كان أليكس يود أن يحجز غرفة منفردة لنفسه، ولكنه خشى أن يترك بن طليقًا فى غموض هذا الفندق الجديد، وهكذا اقتسما غرفة، لليلة واحدة فقط، لم يكن من العسير تأجير شقة فى ريو وفى اليوم التالى سينتقلان إلى إحدى تلك الشقق.

رغم أن أليكس كان فى حاجة ملحة للنوم، بعد أن ظل مستيقظًا فى الطائرة ليراقب بن، لكنه يعرف الآن أن عليه أيضًا أن يظل فى كامل يقظته، لأن بن الذى نام نومًا عميقًا فى الطائرة وهو فى كامل حيويته الآن، كان يدور فى الغرفة يقيس المكان الجديد، مجربًا الحمام والدش ودورة المياه ـ فاتحًا وغالقًا الأدراج والدواليب. كانت غرفتهم فى طابق مرتفع فى الفندق ولكن بن كان ينظر خارج النافذة وإلى الأسفل دون أن يبدو منزعجًا، رغم أنه أبدى نفوره من المصعد. تمدد على سريره ثم نهض مرة أخرى، بينما أليكس يراقبه شاعرًا بالدوار.

"أنا جائع" قال بن

جلبت خدمة الغرف قطع ستيك . أكل بن حصة أليكس أيضًا. كانت هذه بلاد الفاكهة المدهشة وطلب أليكس بعضًا منها. همهم بن بحبور وهو يعض فى الأناناس ولكنه أغرق ملابسه بالعصير. وقد انبهر أليكس وهو يرى بن يدخل الحمام بدون أن يأمره بذلك ، وبقى هناك وقتًا طويلاً. استمع أليكس إلى

أصـوات ـ مـاذا كـانت ؟ أغـنـاء ؟ ذلك الـصـوت الأجش المدندن؟ طرطش الماء فى كل مكان وكان على أليكس أن يمسحه.

مازال الوقت منتصف النهار.

بدأ أليكس فى مهاتفة أصدقائه. لديه الكثير منهم فى هذه المدينة. البعض ممن عمل معه فى المسرحية التى أخرجها، وبعضهم عمل معه فى الفيلم الذى نفذ فى كولومبيا وتشيلى. بعضهم كان أصدقاء الأصدقاء. كان عليه أن يظل يقظًا. كان يعرف أنه إذا غفا فلن يصحو حتى الغد. ورتب لغداء مبكر، فى حين يتفرج أليكس وبن على المدينة. كان ثمة ضياء ساخن يتدفق من البحر ، وسار بن متعثرًا متشبثًا بأليكس وعيناه نصف مغمضتين. ولذلك أعاده أليكس إلى الفندق مرة أخرى ، بعد أن شرح له بن أنه فى نيس كان يتمشى فى الأماسى ومرة فى النهار حين كانت السحب تحجب الشمس. جلسا إلى مائدة خارج الفندق وشربا عصير فواكه، وقد استرخى بن فى مقعده ، بدون تكشيرة ـ وكان منظرًا امتن له أليكس كثيرًا - ولكن بن ظل على حذره ، يدير رأسه هنا وهناك ، محتفظًا به فى عمق فىء مظلة الشمس قدر استطاعته. كان يقيّم الناس الجدد محاولا أن يفهم أصواتهم الجديدة. وبينما الناس يأتون ويذهبون ، أو يجلسون إلى الموائد الأخرى، وكما فى كل مكان تواجد فيه بن، كانوا يحاولون فهم كنه مايرونه. نظرة عامة عادية أول الأمر لاستيعاب المشهد ـ ولكن تترك فى

رءوسهم شيئًا غامضًا، سؤالا. نظرة أخرى، أطول كثيرًا: حسنًا، هذا رجل ضخم، هذا كل ماهناك ـ ليس جريمة.. أن تكون ضخمًا ـ ولكن ياإلهما من كتفين ـ قولوا ماتشاءون، هاتان الكتفان... وبعد الالتفات بعيدًا .. نظرة ثالثة، سريعة، مرتابة . نعم ، هذا كل ماهناك. إنه ضخم الجسم ، ولكنه ليس وسيمًا. ثم تحديث أخير، صريح وغير موارب، كما لو أن غرابة بن كانت تعطى الناس الحق فى سوء التصرف بالحملقة به. نعم . ولكن ماهو ؟ ما الذى أحدق فيه؟ مر المساء الساخن بطيئًا والرغبة فى النوم تعذب أليكس. ثم لم يطق أكثر وأجبر بن على العودة معه إلى الغرفة. لم يرغب بن فى العودة لأن المكان أعجبه، وهو يجلس مراقبًا، مستمعًا، وإلى جانب ذلك، كانت هناك إناث يبتسمن له.

فى الغرفة رمى أليكس نفسه على السرير وراح فى إغفاءة عميقة فورًا حتى أنه لم يخلع حذاءه.

وكان بن على سريره دون أن يضطجع. جلس على الحافة محدقًا فى أليكس. لم يتشارك مع أحد فى غرفة منذ أيام السيدة العجوز، ولم يكن عندها فى حاجة إلى تفحصها أو التحديق بها، وفى الليلة التى سمحت له فيها ريتا أن يقضى الليل ، كان ممتنًا لذلك أكثر من أى شىء آخر. ولكن هذا كان ذكرًا، وهو الذى أحضره هنا، إلى هذا المكان ، الذى لم يطلب أن يكون فيه أبدًا، لم يكن يحب أليكس، رغم مايبدو عليه من لطف، كان بن يشعر بأن أليكس قد احتال عليه.

كان الرجل الأعزل ينام وذراعاه مفتوحتان. وساقاه متباعدتان ، ووجهه باتجاه بن. عيناه مغلقتان بقوة حتى ليبدو وكأنه يراقب بن. كان يمكن لـ"بن" أن يقتله وهو ممدد هناك ولن يشعر أليكس بذلك. أحس بن بالغضب ، يغذيه الحزن، يسرى فى كتفيه، وذراعيه وقبضتيه. يمكنه أن ينحنى إلى الأمام ويعض بقوة الرقبة المكشوفة له هناك.. ولكن بن كان يعرف أن ذلك ممنوع، عليه أن يتحكم فى نفسه. حتى حين يعمى الغضب عينيه، هناك صوت يقول له دائمًا "توقف. لاتفعل . خطر. يمكن أن يقتلوك لهذا "

جلس بن على سريره، تاركًا الغضب القانط يتسرب بينما تنفرج قبضتاه. كان يفكر فى ريتشارد: كان ريتشارد صديقًا حقيقيًا وقد أحبه.

جلس بن وقتًا طويلاً، ساقاه متباعدتان وقبضتاه على ركبتيه، ينحنى إلى الأمام ، ينظر. فى إحدى اللحظات ، مد ذراعه، ذراعه الضخمة والقبضة الكبيرة، وقربها من ذراع أليكس التى كانت تتمدد مرتخية هناك، قريبًا جدًا. كانت ساقا أليكس مخفيتين داخل البنطلون الجينز، وكان بن يعرف أن ساقيه هو ـ بالمقارنة ـ كانتا مثل جذعى شجرة، يملئان بنطلونه. ذلك الوجه هناك: مقارنة بوجهه، كان صغيرًا جدًا ودقيق الملامح. والصدر الظاهر من قميص مهدل، كان قليل الشعر . كانا متماثلين جدًا، هذا الأليكس وهو ، ومع ذلك مختلفين جدًا. .. على الأقل فى شيء واحد، إنه يستطيع أن يهشم أليكس بذراعيه دون أن يستطيع أليكس أن يحرك إصبعًا.

وقف بن عند النافذة. كان النظر إلى تجاويف السماء المتلألئة يؤذى عينيه، وهكذا طفق ينظر إلى الأسفل. كانت غرفتهما فى الطابق الخامس، ليست عالية كما كانت شقة العجوز. وفى الأسفل كان الناس يتحركون، ينطقون بلغة جديدة، يلوكون الكلام مثل قطعة سكر.

رن جرس الهاتف. لم يتحرك أليكس. ظل يرن. رفع بن السماعة وقال بالإنجليزية "أليكس نائم" رد عليه صوت، صوت امرأة قالت إنها سمعت أن أليكس فى المدينة وإنها قادمة. استيقظ أليكس. قال بن إن امرأة طلبته اسمها تيريزا وهى قادمة. هب أليكس قائمًا مع أنه مازال مرهقًا، وقال"أوه ، تيريزا، رائع. عظيم" . دخل للاستحمام وعاد بملابس نظيفة. كانت الساعة السادسة . صحب أليكس بن إلى البهو وهناك توافد الناس، أكثر وأكثر، حتى أصبحوا أحد عشر شخصًا، اتجهوا إلى المطعم الذى قال أليكس إن بن سوف يحبه، لأن كل مايقدمه هو أطباق اللحم.

حاول كل واحد منهم أن يتحدث إلى بن. من أين أنت ؟ هل تعمل مع أليكس؟ هل عملت فى السينما أم المسرح؟ هذا النوع من الأسئلة. وقد أفحمتهم إجابات بن لأنها لم تكن فى الموضوع. فمثلا حين سئل من أين أتى ؟ قال من فندق اكسلسيور فى نيس، وحين أصر هذا الشخص الودود الفضولى ، قال إنه ليس من إسكتلندا ولكنه لا يعرف اسم مدينته الأصلية. وهكذا عامل الجميع بن بحذر، ولكن بلطف، محاولين ألا

يحملقوا به. ولكن تيريزا، كما أدرك بن، كانت عطوفة فعلا : كان يحس بذلك .

كان المطعم من نوع مطاعم ريو التى تضع على الموائد قبل طلب الطعام ، أطباق الطماطم والمخللات وأنواع الصلصات، ولكن اللحم هو ماكان الناس يذهبون إلى المطعم من أجله. كانت هناك كل أنواع اللحم ولكن فى معظمه لحم البقر يقدم فى أطباق أو أسياخ. لم ير بن فى حياته مثل هذا التنويعات من اللحم وكان سعيدًا، ولكن حزنه كان يطغى على إحساسه بالمتعة. شعر أنه خارج كل شىء، الثرثرة، والعناق، والأحاديث التى لم يفهمها حين تكون باللغة البرتغالية وحتى اللغة الإنجليزية كانت مبتورة ومن الصعب متابعتها. ولكن سرعان ما انتهت الأمسية ووجد نفسه فى سيارة مع أليكس وبعض الآخرين. كانوا يقتحمون ساحل البحر وكان نور القمر يتراقص على الأمواج ، والمبانى المرتفعة تصب ضياءً. فى الفندق سمع ترتيبات يتم الاتفاق عليها للأيام القادمة: كان الجميع فرحين بمقدم أليكس ، كأنه كان يوم عيد.

فى غرفة الفندق، خلع بن ملابسه ، وتذكر أن يعلقهاعلى شماعات وتسلق سريره، عاريًا كالمعتاد. راقب أليكس وهو يرتدى البيجاما: الملابس التى ينام فيها. مثل والديه، مثله حين كان طفلاً صغيرًا، ولكنه كان يكره البيجاما. وراح فى النوم.

والآن فعل أليكس ماكان بن يفعله فى أول النهار. جلس على حافة سريره وانحنى إلى الأمام وهو

يحدق. بل إنه حتى مد ذراعًا ، كما فعل بن، وجذب رجل بيجامته ليقارن ساقه بساق بن التى تمتد خارج غطاء السرير، بسبب الحر. كان بن قد سحب الغطاء على منتصف جسده. وفكر أليكس: إذًا لديه غريزة تغطية أعضائه الحساسة ـ وهذا شىء غريب على حيوان. ولكنه ليس حيوانًا، وإذا لم يكن حيوانًا، إذا... كان هذا الحوار الداخلى يكاد يكرر نفسه، كما يحدث غالبًا فى رأس أليكس، وفى رءوس معظم الناس.

نام أليكس ونام بن. وفى الصباح تناولا فاكهة والمزيد من الفاكهة مع فطور الفندق. ثم أخذا أشياءهما وانتقلا إلى الشقة التى استأجرها أليكس، فى شارع ليس بعيدًا عن واجهة البحر. فى المصعد أوضح أليكس أن الشقة فى الطابق الثالث ـ ليست فى طوابق عليا، ومع ذلك يظل بن لا يحب المصاعد. كانت ثمة غرفتا نوم واسعتان يفصلهما غرفة أكبر للمعيشة. مطبخ صغير وحمام بدش ودورة مياه. كان على بن أن ينام فى غرفة خاصة به. وكان أليكس يفكر فى أن فى ذلك مجازفة ، ولكنه يحتاج إلى غرفة منفصلة لسبب واحد وهو أن لديه هنا صديقة، هى تيريزا. كانت هذه أول غرفة خاصة لـ"بن" منذ أن كان يعيش فى البيت مع عائلته. وقد نظر حوله بشكل غريزى بحثًا عن قضبان على النوافذ. ورغم إنه لم يجد ولكنه ظل يشعر بنفسه حبيسًا. اختبرالباب ـ نعم ، يستطيع أن ينفذ منها ويدخلها مرة أخرى. كان لديه مفتاح. هذا ليس فخًا.. ولكن هذه الغرفة، بالسرير الوحيد،

والنوافذ الواسعة، كانت مثل غرفته حين كان صغيرًا.
كان الوقت منتصف النهار. قال أليكس إنه يشعر بدوار
، وظن بن أن هذا يعنى أن أليكس مريض. وهو نفسه
لا يتذكر متى كان مريضًا. ذهب أليكس إلى غرفته
وقال إن الكثير من الناس سوف يأتون لاحقًا وإنه حين
يصحو سوف ينزل مع بن لشراء الطعام لإعداده فى
المطبخ. شعر بن بالقلق فى غرفته. نظر إلى الشارع
حيث كان يستطيع سماع تلك الأصوات التى تلوك تلك
اللغة. تطلع إلى النوافذ المقابلة ، حيث استطاع أن يرى
أشخاصًا يتحركون ولكنه لم يستطع تمييز مايفعلونه.
ذهب إلى غرفة المعيشة حيث وجد بعض المجلات،
ولكن الصور كانت لأنواع من الناس لم يكونوا
أصدقاءه، وهو يعرف أنهم لن يكونوا أبدًا. أريد أن
أعود إلى البيت. كان يكرر فى رأسه صامتًا، البيت،
البيت.

من أجل أن يختبر إذا كان سجينًا، غادر الغرفة،
وتدبر أن يظل هادئًا فى المصعد العتيق الصاخب،
وسار إلى نهاية الشارع ثم عاد. لم يكن هناك الكثير
من الناس فى الشارع الجانبى. الكل نظروا إليه وواحد
تبعه. كان صبيًا ذا وجه حاد غاضب. امتنع بن عن
الهرولة - فهو يفهم، ولكن عاد بسرعة إلى المبنى الذى
فيه غرفته والأمان، وانتظر عند المصعد، عالمًا أن
الصبى كان يزحف خلفه، يحملق فيه، رابضًا، بطريقة
يفهمها بن جيدًا. ينبغى ألا يستدير ويقبض على الولد
من كتفيه.. تقلقل المصعد هابطًا فى الوقت الذى كاد

الولد أن يصل إليه ـ ماذا يريد؟ وكان بن فى المصعد، ثم أدار مفتاحه فى باب الشقة ، الذى انفتح عن وجه أليكس "آه .. هذا أنت.. كنت أتساءل .." ابتسم أليكس ولكن بن كان يدرك انزعاج أليكس لغيابه. ثم سأل أليكس إذا كان يريد أن يعودا إلى الرصيف خارج الفندق حيث الموائد، وأجاب بن بالإيجاب. جلسا هناك يأكلان الساندويتشات ويشربان العصير، يراقبان الناس من كل الألوان، الأسود والأسمر والقمحى والأبيض وهم يتجولون حولهم. كثير من الفتيات، بعضهن بدون ملابس تقريبًا. كانت ثمة فتيات عند هذه الموائد، أحيانًا كل اثنتين معًا، أو بمفردهن. كان يفكر فى ريتا وكيف أحبته. حذره أليكس، لأن الفتيات عادة لهن حُماة من الرجال، . "مثل جونستون" قال بن مضيفًا صفة أخرى إلى رؤية أليكس لجونستون هذا. سأل "هل كان يأخذ نقودها؟" قال بن "لم تطلب منى نقودًا قط. كانت تحبنى." "أعتقد أنك سوف تجد هؤلاء الفتيات يطلبن الكثير من المال."

كل شىء مر على مايرام، وهما جالسان هناك تحت المظلات، يراقبان الناس. أحيانًا كان أليكس يستقبل أصدقاء، ثم يشترى طعامًا وكان بن يساعده فى حمل المشتريات إلى شقتهما .كان أليكس يطبخ وبن يقول له إنه سوف يساعده ، فهو يعرف كيف يطبخ ـ ولكنه كان يقصد تحميص الخبز وتسخين العصيدة ، وشىء من هذا وشىء من ذاك مما كان يطبخه للسيدة

العجوز. ولكنه سرعان ما فهم أن هذا طبخ أصعب، وهكذا كان يجلس فى غرفة المعيشة، يشم روائح التوابل واللحم الساخن ، ثم كان يأتى جمع غفير من الناس، ويراقبهم وهم يقبّلون ويحتضنون بعضهم البعض ، ويثرثرون ، وأسنانهم تبرق وتتلألأ .

كان نور النهار قد خبا فى الخارج. كانت هذه ليلة مختلفة من ليالى نيس : فقد كانت ساخنة وبطيئة، وكانت ثمة رائحة قوية من البحر. كان بعض الحاضرين هم نفس الذين حضروا الليلة الفائتة، ولكن لكل قادم جديد كان أليكس يقول "هذا بن. إننا نصنع فيلمًا معًا" وكانوا يردون: "Como vai?" " مرحبًا" "هالو " وكان كل من الزوار يلقى عليه تلك النظرة الفضولية المدهوشة التى اعتاد عليها. ثم يتحاشى النظر إليه، أو يمسكه متلبسًا بالحملقة، وهو يأمل ألا ينتبه له. جىء بالطعام مكومًا على أطباق، الكثير منه، والنبيذ كان فى كل قدح وزجاجات النبيذ كانت فى كل أرجاء الغرفة. كان هناك صخب وضجة أصوات ولم يفهم بن الكثير مما قيل، حتى حين كانوا يتكلمون باللغة الإنجليزية. كانت ثمة خطط ترتب تشمله أيضًا. واستمر الكلام، والأكل، والشرب حتى وقت متأخر.

نام بن نومًا خفيفًا فى تلك الغرفة التى تذكره ببيته القديم، واستيقظ مبكرًا. لم يجرأ على الخروج إلى الشارع خوفًا من أن يتعقبه ولد قاتل آخر. تناول فواكه ووقف عند النافذة ينظر إلى الخارج. لم ينهض

ليكس إلا متأخرًا وحين جاء إلى غرفة المعيشة كانت
تريزا معه: ولم يلاحظ بن فى الليلة الماضية أن هذه
الأنثى قد باتت مع أليكس فى غرفته.

ولكنها كانت ودودة ومفيدة ، أعدت له طعامًا
وقدمت له عصيرًا وحين جلس صامتًا ومفكرًا،
أشركته فيما كانت تقوله بإنجليزيتها السريعة
والصعبة على الفهم " ما رأيك بهذا يا بن ؟" "هل تحب
ذلك يا بن ؟" "ماذا تريد أن أجلب لك ؟" لقد أحبها
كثيرًا ولكنه كان يعرف أنها تخص أليكس.

وهكذا مضت الأيام، بطيئة وقد نام بن كثيرًا من
الملل. كانت الأماسى مزدحمة بالناس الذين يصلون
بصخب يضحكون ويتحدثون إلى بعضهم بالبرتغالية
ولكن مع أليكس وبن بإنجليزية صعبة على الفهم.
كانوا أحيانًا يأتون بالطعام معهم، ليس دائمًا. كان بن
يجلس بعيدًا يراقبهم. يحاول أن يفهم كيف أنهم مع
اختلافهم الكبير، يستطيعون الاندماج سريعًا كما لو
أنهم لا يعرفون كم هم مختلفون. معظمهم كان له جلد
أسمر ناعم، وعيون داكنة بالمقارنة مع أليكس الذى
كان شاحبًا، نحيلاً، ومستدق العظام، وشعره شاحب
اللون وملابسه كانت بلون أزرق شاحب، بنطلوناته
وقمصانه، أو بلون أبيض. فوق عينيه كان ثمة حاجبان
بشعر قصير أشقر، ولكن الوجه حسب أليكس لم يكن
شابًا كما يود أن يبدو: وكان حول العينين تجاعيد.
كان فى الأربعين من عمره، خمس سنوات أكبر من
عمر بن المكتوب فى جواز السفر. لم يأت أحد إلى
هذا المكان فى عمر بن الحقيقى ، ثمانية عشر عامًا.

رغم أن ذلك كان محيراً عند التفكير به: كان يعرف أنه لا يبدو عليه مظهر واحد (منهم) فى عمر الثامنة عشرة، فلم يكن لديه ذلك الوجه الصغير. ومع ذلك فكلما فكر فى سنه، وماكان عليه، كان يتذكر قول المرأة العجوز "أنت ولد طيب يا بن".

تيريزا شابة طويلة، ذات عجيزة ضخمة وثديين ضخمين، بينما خصرها كان نحيفًا، تضمه بحزام للمباهاة. كان شعرها أسود يصل إلى كتفيها. كانت عيناها داكنتين. وهى دائمة الابتسام والضحك، وكان صوتها ناعمًا يرتاح له بن. اعتادت أن تضع ذراعيها حول أليكس وحول الضيوف وحول بن أيضًا. "عزيزى بن" كانت تقول غالبًا، محتضنة إياه ، مثيرة لديه الرغبة ليفعل ما يعرف أنه ممنوع عليه. ولكن لم يكن أحد يلمسه غيرها. تيريزا فحسب اخترقت المسافة التى يضعها كل الآخرين بينهم وبينه. . تيريزا فحسب كانت تمسك يده وتؤرجحها وتتركها وتعتصر كتفيه الكبيرتين وهى تقول "آه .. كتفاك! يالهما من كتفين ، بن " أو تحيطه بذراعها وهى تقف تتكلم مع أحدهم.

كان أحد الذين يأتون مراراً، رجل اسمه باولو عمل مع أليكس فى السابق. كانا يكتبان سيناريو هذا الفيلم حول بن، ولكن ليس دائمًا فى الشقة. قد يجلس الاثنان لفترة إلى المائدة فى غرفة المعيشة ، يتحدثان، بدون أن ينظرا إلى بن، بينما تيريزا ترتب المكان، أو تطبخ شيئًا، أو تجلس على مقعد بمسندين تطوح ساقيها، أو تراقب الرجلين أو تقرأ المجلات أو تغنى

أحيانًا. ثم يخرج الرجلان وكان بن يعرف ذلك لأنهما يجدان وجوده محرجًا لما يفعلانه أو يفكران به. كان يعرف أن القصة تتغير طوال الوقت؛ لأن البرازيل لم تكن تشبه الشمال: وقد فهم بن أنه جاء من الشمال. كان باولو مختلفًا تمامًا عن أليكس، فقد كان ضخم الجسم، ذا جلد ناعم أسمر، وعينين بنيتين واسعتين وشعر أسود ويدين صغيرتين ممتلئتين تزينهما خواتم. كان باولو يريد أن يرضى أليكس، كما يفعل الجميع، يتجهون إليه، يراقبونه، ينتظرون سماع ما يفكر به.

أحيانًا فى تلك الأماسى، كان يجتمع حوالى خمسة عشر إلى عشرين شخصًا للعشاء. وفى كل مرة كان أليكس يشترى كميات كبيرة من الطعام يطبخها هو وتيريزا. سمع بن تيريزا وهى تجادل أليكس حول إطعام هذه الأعداد من الناس، وبعضهم لا يعرفه أصلا، ولكنهم يأتون لأنهم يعرفون أن هناك طعامًا. وكان يقول لهم دائمًا "بالتأكيد، تفضلوا، اجلسوا، ماذا تشربون، على الرحب والسعة "

قال أليكس لتيريزا" أنت تتحدثين مثل زوجتى ياتيريزا ، والآن اخرسى".

وقبل ذلك حين جاء أليكس إلى هنا لإخراج المسرحية، كان يستأجر شقة مثل هذه، وكان العاملون فى الفيلم وأصدقاؤهم يقضون أوقات فراغهم معه وهو يطعمهم. وهذا يحدث مع الأمريكيين أو، فيما يتعلق بهذا الأمر، مع كل من يملك أموالاً أكثر من

الآخرين الفقراء غالبًا، مثل معظم الناس الذين يأتون إلى هذه الشقة ، وفيهم ممثلون وراقصون ومغنون سواء كانوا يعملون أو عاطلين، وكان شىء طبيعى فى نظر أليكس أن يطعمهم وغالبًا كان يجد أسبابًا لإعطائهم النقود، طالبًا منهم استشارة ما، أو ترجمة شىء، أو إرشاده إلى موقع ما، أو اصطحابه إلى متحف.

ولكن المال المخصص للفيلم لم يكن كبيرًا، وحين كان أليكس هنا فى المرات السابقة عند إخراجه الفيلم أو المسرحية، كان لديه مبلغ أكبر. كانت تيريزا تعلم مقدار ماليده وأنه يتبخر سريعًا، قبل أن يُعد السيناريو، مع أن باولو وأليكس يعملان عليه كل يوم.

كانت هناك قصة ولكنها ليست بالمستوى المطلوب فى جزء برى وجميل فى البرازيل، عند التلال تحت سفوح الجبال العظيمة، كانت تعيش قبيلة من المخلوقات الشبيهة بـ "بن". كانوا يعيشون على فواكه وثمارالغابات، وعلى الصيد بالهراوات والأقواس والسهام. وكانوا يعرفون النار ـ فى الواقع ، فى مسار الفيلم سوف يلاحظون برقًا يضرب شجرة ويشعل النار فيها.

المشكلة كانت، أنه إلى جانب اكتشاف النار، لم يكن هناك الكثير من الإثارة، حالمًا تلتقط الأساسيات: الكهوف، والصيد، والتزاوج، وجمع النباتات. استمع بن إلى كل هذا وعرف أنه خطأ، ولكنه لم يعرف كيف أو

لماذا: لم يسألاه عن رأيه. أحيانًا كان أليكس وباولو يرفعان نظريهما بعد فحص قلق لملاحظاتهما المخطوطة على صفحات من الورق، وهناك الآن الكثير من المسودات، والخطوط الرئيسية، والحبكة، وبدون أن يتنبها لما يفعلانه، كانا يحملقان فى بن بعمق ، متجهمين ، بدون أن يرياه حقًا.

حسنًا، كيف يستمران ؟ ربما فى وسط هذه المشاهد الممتعة ، تأتى قبيلة أكثر تطورًا و.. ماذا ؟ هل تتزاوج الجماعتان ويخرج جيل جديد؟ هل يقتل القادمون الجدد قبيلة بن ومعها بن الذى يقاتل دفاعًا عنها حتى الموت؟ ربما من الأفضل أن تقتل قبيلة بن كل القادمين مؤجلين بذلك مصيرًا محتومًا، حيث ينتشر فى كل مكان على هذه الأرض الناس الجدد. ليست ثمة مشكلة فى إيجاد الممثلين الذين يقومون بأدوار هؤلاء. سوف يكونون الهنود الأصليين فى المنطقة. أى منطقة ؟ يجب القيام برحلة، وتحديد المواقع، وبدء المفاوضات مع قبيلة متعاطفة سوف يسرها الحصول على بعض المال: هذا مما لا شك فيه.

كانت المنطقة التى استقر عليها الرأى كما أشار باولو، وهى تلال ماتو غروسو، تعانى من طقس سيئ، عواصف وفيضانات. وتأجلت رحلة الاستطلاع لمدة أسبوع، وخلال ذلك الوقت استمرت المناقشات حول أخذ بن إلى مدينة معينة فى رحلة طيران منتظمة، ثم من هناك فى طيارة مستأجرة خاصة. وكان أليكس وباولو يعتبران بحكم المنتهى منه، أخذ بن معهما. سمع بن الرجلين يتكلمان فى الغرفة المجاورة، فازداد

الغضب البائس الذى يعتصره. إلى أين يأخذانه؟ مرة أخرى سوف يترك مكانًا أصبح مألوفًا لديه ويركب طائرة ثم أخرى. أماكن جديدة، ربما لغة أخرى.

سأل تيريزا متى سوف يأخذانه بعيدًا فقالت إن ذلك قريب. وكانت تجادل أليكس بأن ذلك سوف يكون قاسيا على بن . ألا يرى كم هو تعس ؟

فى إحدى الأماسى، حين كان الوقت متأخرًا والضيوف يفكرون فى المغادرة ، سمع الجميع صوتًا مكتوما منتظمًا من الغرفة المجاورة. من غرفة بن. لم يكونوا قد لاحظوا انسحابه بهدوء من تجمعهم ، وهم يتكلمون عن التلال والجبال التى ستكون مواقع الفيلم . فتحت تيريزا الباب بهدوء ورأته راكعًا على الأرض مستندًا على قبضتيه، وهو يضرب رأسه على الجدار مرة بعد أخرى.أغلقت تيريزا الباب وعادت لتروى ما رأته.

قال أليكس "الأطفال يفعلون ذلك. طفل جارى كان يفعل ذلك. يضرب رأسه على الجدار، أحيانًا لعدة ساعات. وقد قال الطبيب لابأس لن يؤذيه ذلك "

قالت تيريزا "لايريد أن يذهب. إنه خائف"

كان الجميع ينصتون، ضربة أثر ضربة أثر ضربة.

قال أحدهم "سوف يعجن دماغه"

قال أليكس"كلا كلا .. اتركوه . لابأس"

غادر الضيوف وجلس أليكس وتيريزا ينصتان باضطراب. امتلأت عينا تيريزا بالدموع، وتألم قلبها وهى تستمع. استمر الضرب. عادت إلى غرفة بن. كان ينهنه وهو يضرب رأسه، مثل طفل صغير، فوضعت تيريزا ذراعيها حوله وهى تجثو إلى جانبه. وقالت "بن، عزيزى بن، بن المسكين . لابأس. أنا هنا " أطلق صرخة ألم وغضب عالية واستدار إليها وشعرت بوجهه المشعر على الجزء الأعلى من صدرها العارى. وأدركت حينها أنها تحتضن طفلا، أو على الأقل بؤس طفل "بن ، لابأس. ليس عليك أن تذهب إلى أى مكان . أعدك".

بقيت إلى جانبه على الأرض تحتضنه، فى حين كان ينهنه حتى سكن. أطل رأس أليكس الذى شعر بالقلق عليها ، ثم انسحب. وحين هدأ بن أنهضته تيريزا إلى السرير. وخرجت إلى أليكس وتحدثه بعينين مغرورقتين بالدموع قائلة :"لايمكنك أن تأخذه. لقد وعدته . لا يمكنك أن تفعل ذلك ".

قال أليكس" حسنًا، فى الواقع نحن لا نحتاجه حقيقة"

ولكن كان الجو مازال ممطرًا فى التلال حيث ينتظرونهم هناك وكل مساء كان الضيوف يجلسون حول المائدة يأكلون ويشربون ويتجادلون ويضحكون ويسمعون من الغرفة المجاورة على الجدار الذى يفصل هذه الغرفة عن غرفة بن ، وقع ارتطام ألمه وغضبه.

كـان غـضـبـه يـهـدد بـالانـدفـاع من داخـلـه إلى قبضتيه. كان يريد أن يضرب ويعض ويدمر - خاصة أليكس. لم يصدق بن تيريزا حين قالت إن أليكس سوف يتركه هنا: كان يخدع تيريزا كما خدع بن لإحضاره إلى هذا المكان.

صوت الارتطام كان رهيبًا، يضرب مباشرة أعصاب كل من يستمع إليه، ولم يكن من الممكن تجاهله. حاولوا جميعًا ولكن حديثهم كان يتوقف ويصبح إنصاتًا. وكان أليكس يقول "لا تشغلوا بالكم. إنه لا يؤذى نفسه". وتبدأ الأحاديث مرة أخرى، تتصاعد تدريجيًا، باضطراد مع وقع الضربات، ولكن كل تلك الوجوه كانت تعكس حذرًا، وتوترًا، وحتى خوفًا وسرعان ما يعودون إلى السكون ثانية، الأقداح مرتخية فى أكفهم، والطعام مهجور فى أطباقهم.. طاخ، طاخ، طاخ على الحائط.

اعترض باولو "لابد أنه يؤذى دماغه" ولكن أليكس قال مرة أخرى "كلا ، الأطفال يفعلون ذلك. لا يعنى شيئًا"

ولكن الحقيقة هى أن لطم الحائط كان يوضح لأليكس أن الرؤيا التى كانت تراود خياله فى فندق نيس، لم تكن كافية لتنفيذ الفيلم فى مراحله المتعددة، والمصاعب المتوقعة، والأزمات، والطوارئ. ومازال عليه أن يعد سيناريو آخر أو على الأقل خطوطًا عريضة مفصلة لانتزاع المزيد من المال الكافى للبدء فعليًا فى تنفيذ الفيلم.

قرر أليكس وباولو الطيران رغم استمرار هطول الأمطار على التلال حيث اتفق الجميع على أنها الموقع المثالى للأحداث. كان عليهما المغادرة يوم الإثنين وفى يوم الأحد، منذ منتصف النهار فصاعدًا ازدحمت غرفة المعيشة المرحة بالناس. من المؤمل غياب صانعى الأفلام لمدة أسبوع على الأقل، وفى هذه الشقة المضيافة سوف يبقى بن وتيريزا التى سترعاه.

كان بن يستمع إلى الحديث حول الترتيبات وهو يدور فى غرفته كما لو كانت قفصًا، ثم خرج من غرفته ووقف ينظر إليهم جميعًا. لم يروه. كانوا جميعًا على شىء من السُكر، يعبرون عن عواطفهم تجاه بعضهم البعض، بصخب. كانت تيريزا تحيط أليكس بذراعيها، وشعرها الأسود يتساقط على عنقه. ذهب بن إلى الباب وخرج. كان الوقت عصرًا، والنور ينعكس متوهجًا ولكنه أقل حدة من منتصف النهار. لم يعرف ماذا يريد أن يفعل. سار إلى حيث كان البحر يبدو مثل ألق أزرق. كانت عيناه تؤلمانه قليلاً تحت نظارته السوداء. ثم أمامه كان الساحل الأبيض الطويل وفيه حشد من الناس يتمددون أو يلعبون. وكثر منهم يتقافزون بين الأمواج. كانت الفتيات يرتدين أقل القليل من الملابس حتى أنه كان عليه أن ينظر بشدة ليحدد: نعم ، هناك قطعة من النسيج تغطى الأمام، وتلك القطع الصغيرة تخفى الحلمات. كان الغضب قد بعث فيه طاقة كبيرة، الحاجة إلى الإيذاء، إلى القتل. كان يمشى على الجزء العلوى من الساحل محاولا منع

شظايا النور من اختراق عينيه، منصتًا لهدير الأمواج والأصوات والضحكات ـ تلك الكتلة من البشر، البشر الحاشد، الذين يعرفون كيف يتجمعون معًا رغم اختلاف ألوانهم وأحجامهم وأشكالهم ـ لا أحد يحملق فيهم لغرابتهم.

كان ذلك الشاطئ، مثل بقية شواطئ ريو، تهيمن عليه عصابات اللصوص، ومعظمهم من الأطفال والشباب، وقد رصدوا بن منذ أن هبط إلى الشارع عند حافة البحر. كانت الحيلة التى يمارسونها كالآتى: يقوم شاب أو حتى طفل بالهرولة نحو الضحية ساكبًا على حذائها كتلا من الشحم لا تلاحظها الضحية رجلاً كان أو امرأة فى أول الأمر. ثم فجأة، هناك لطخة مقززة من الشحم على الحذاء. أطلق بن صرخة غضب. وفى هذه اللحظة كان المحتالون (حيث يعملون كفريق) يركضون بموازاة الضحية، منتظرين اللحظة التى يرى فيها بقعة الشح ، وفى تلك اللحظة يهرع أحدهم إليه ويعرض أن يمسح له الحذاء مقابل مبلغ من المال. لم يكن بن يحمل نقودًا، وعلى أية حال كان قد جن جنونه غضبًا، فأمسك بالشاب المبتسم الذى انحنى على حذائه بخرقة التنظيف، وبدأ يعتصره بين ذراعيه، بينما كان هو وليس الشاب ـ الذى انقطع نفسه ـ يهدر ويصرخ غضبًا. وعلى الفور تقاطر بقية أفراد العصابة لإنقاذ زميلهم، فى حين أن أحد المراقبين المتواجدين ـ رجل شرطة ـ انتبه لما يحدث وجاء راكضًا. كان بن يظهر ويختفى، ذراعه،

ساقه، رأسه، من داخل كومة من صبيان يتقاتلون أنصاف عراة.

هرول أليكس وتيريزا يتبعهما أصدقاؤهما، نحو المشهد، الذى خيم على ذلك الجزء من الساحل.

كانت تيريزا تصرخ بالبرتغالية فى الشرطى " أوقفهم . أوقفهم . إنه معنا!"

من كان ؟ كان بن بالكاد يُرى. صرخات وزمجرات تأتى من تحت كومة المعتدين.

بدأ الشرطى يضرب رأسًا، أذرعًا، ساقًا، أى شىء يقع تحت انظاره. وشد شابًا من شعره. ثم انطلقت صرخة "الشرطة "وعلى الفور تفرقت مجموعة الشباب وهربوا بعيدًا، بعضهم يسيل دمًا، وأحدهم بذراع مكسورة. بن كان جاثمًا يحمى رأسه بذراعيه. وملابسه قد تمزقت عن جسده، وكان قميصه بيد أحد الشبان الهاربين ، وقد اختفى حذاؤه.

شرعت تيريزا فى جدل حاد ولكن متوسل مع الشرطى، "إنه معنا ـ إنه معه " وهى تشير إلى أليكس. "إننا نخرج فيلمًا . للتليفزيون." وكان هذا الرجاء الملهم هو الذى جعل الشرطى يتراجع ، ويقف على بعد خطوات. كان يحملق فى بن، وفى الكتفين المشعرتين، والوجه المكسو بالشعر حيث تكشر أسنانه البيضاء بألم.

وضعت تيريزا ذراعها حول بن الذى كان صدره يعلو ويهبط والذى كان يطلق زمجرة كانت تيريزا تعرف أنها قد تتحول إلى نهنهة لابد أن تثير رد فعل

فى الشرطى الذى سوف يتحول وجهه من القلق إلى القسوة.

قالت وهى تساعد بن على السير "تعال ، بن" وكان أليكس على الجانب الآخر من بن الذى لم ينظر إليه وإنما اليها فقط. يعكس وجهه الذى يقطر منه الدم، نداءً إليها لإنقاذه. وقف الشرطى محملقًا، ولكنه تركهم يمرون. الثلاثة فى المقدمة، أليكس وبن وتيريزا والبقية خلفهم.

فى الشقة كان لايزال بعض الناس جالسين حول المائدة غافلين عن غياب بن ثم الآخرين خلفه. لم يكونوا قد رأوا بن فى أى شىء سوى الملابس النظيفة الأنيقة والآن يصدمهم ما يرونه.

أخذت تيريزا بن إلى الحمام - وكما كانت تفعل المرأة العجوز - خلعت ماتبقى من ثيابه بدون حرج وهى تحدثه برقة "لابأس. إنك فى أمان الآن. لا تخف، يا بن المسكين. وقف تحت الدش . تمام. " وغسلت عنه الرمل والقذارة ، وأوقفت الدم من جرح فى جبهته ووضعت بنطلونه الممزق فى الغسالة. أحضرت ملابس نظيفة ألبسته إياها. تركها تقوم بكل ذلك، مستسلمًا لها، يستدير حين تطلب منه ذلك، يرفع ذراعًا أو قدمًا.

كان مصدومًا، يتنفس بصعوبة ، شاحبًا وفى عينيه نظرة مظلمة، تائهة.

جلست معه على سريره، تهدهده "لابأس يا بن. أنا صديقتك. كل شىء على مايرام . سوف ترى "

في تلك الليلة ولأن أليكس كان سيسافر في الصباح التالي، كان عليها أن تقضي الليل معه، ولكن تيريزا ظلت مع بن، الذي كان يتمدد بكامل ملابسه على الفراش، دون أن تغمض له عين. كانت تمسك يده وتكلمه بنعومة، قلقة من استسلامه، ولامبالاته. هذه المرأة الشابة التي رأت في حياتها القصيرة كافة أنواع الإفراط، كانت تعرف جيدًا بأن هذا الـ"بن"، المجهول ، كان يعيش أزمة، ويقاسي نوعًا من التغيير الداخلي.

في الصباح غادر الرجلان إلى المطار، وتُركت تيريزا في الشقة لرعاية بن مع نقود كافية لإطعامهما. وكانت معظم نقود بن لم تمس بعد.

خرج بن من غرفته، وقام بما لم يقم به من قبل: جلس إلى المائدة الكبيرة بدلاً من مقعد في طرف الغرفة، بعيدًا عن طريق الآخرين. جلس هناك ينظر حوله في الغرفة الفارغة ويراقب تيريزا وهي ترتب وتنظف وأكل مطيعًا ما طبخته لكليهما.

لقد تغير بالفعل. كان ثمة شيء بشأن المشهد الذي وقع على شاطئ البحر، الحيلة المدبرة ثم الهجوم وكيف كان بلا حول تحتهم رغم قوته العظيمة. غلبته كثرتهم، وكانوا يمارسون معه مسكات وضغوطات شلّت حركته - اختفى غضبه ، مخلفًا الحزن لمعرفته بعجزه البدني خلال تلك اللحظات القليلة - ربما ثلاث دقائق، أو أقل. وحتى هذا اليوم ، كان مدركًا لقوته دائمًا، عالمًا بأن لديه ملاذًا ما: دفاعًا أخيرًا، وأنه

ليس تحت رحمة الآخرين تمامًا. ولكن الواقعة أثبتت عجزه .. فقد كانت هناك قسوة وشر ونية لإيذائه.

سأل تيريزا "متى أعود إلى البيت؟"

كانت تيريزا تعلم أنه من لندن وربما هذا ماكان يقصده، ولكنها قالت بحذر إنها على يقين من أن أليكس سوف يعيده إلى الوطن.

قال بن "أريد أن أذهب إلى البيت. أريد أن أذهب إلى البيت الآن" .

حين أنهت تيريزا الترتيب والطبخ ، قدمت لـ"بن" عصير فواكه وجلست بجانبه مع قدح عصيرها. تمنى لو وضعت ذراعه حول كتفيه حتى يتساقط شعرها الناعم الأسود عليه، وقد فعلت ذلك وهى تقول "بن المسكين، بن المسكين، أنا حزينة من أجلك"

"أريد أن أذهب إلى البيت"

كانت تيريزا أيضًا تريد الذهاب إلى البيت، ومثل بن، كانت بالكاد تعرف المكان الذى يمكن أن تسميه بيتًا.

***

هذه هى قصتها. ولدت فى قرية فقيرة فى شمال شرق البرزايل حيث كان الجفاف يقتل الأغنام ويملأ الحقول بالتراب. تتذكر الجفاف والجوع ومشاهدة الجيران ينزحون إلى الجنوب، نحو ريو أو ساو باولو. ثم قال والدها إن عليهم أيضًا أن يغادروا، وإلا ماتوا جميعًا: الأب والأم والأطفال الأربعة، أكبرهم تيريزا.

استقلوا أولا حافلة، ثم أثيرت مسألة: الحافلة أو الطعام ؟. وقد ساروا على أقدامهم أيامًا، يأكلون خبزًا وذرة مسروقة من الحقول التى بدأت تخضرّ كلما اقتربوا من الجنوب. ثم وجدوا أنفسهم فى مستوطنة من أكواخ فى ضواحى ريو، حيث كانت البيوت مبنية الواحد فوق الآخر على سفح التلال ، وكلما ارتفعت تكون فى وضع أفضل، لأن مياه الصرف الصحى تنحدر هابطة حين يهطل المطر. وبآخر نقود لديهم بنوا ملجأ، من ألواح البلاستك على جذوع شجر، وتحتهم كانت ثمة أكواخ مثل كوخهم، وبيوت أفضل، بين ممرات ترابية مثل ندوب متآكلة. وحين نفدت النقود، حاول الأب مع الرجال الفقراء الآخرين البحث عن عمل، جاهدوا من أجل أى عمل وكانوا أحيانًا يحصلون على عمل ليوم أو اثنين. كانوا نهبة للجوع واليأس. ثم حدث شىء لم تفهمه تيريزا أول الأمر، رغم أنها كانت تعلم أن بعض بنات المستوطنة كن يكسبن نقودًا بأجسادهن. لم يقل والدها شيئًا ولا أمها، ولكنها قرأت فى وجهيهما أنها تستطيع أن تطعم هذه العائلة من ستة أفراد. تحدثت تيريزا مع الفتيات اللاتى كن يطعمن أسرهن. كن يتسكعن قرب الثكنات التى يغادرها الجنود مساء ، أو يذهبن إلى المقاهى التى يرتادها أصحاب السوابق. كانت معظم أولئك الفتيات على يقين من أنهن فى القاع، وأنهن قمامة، ولا يمكن أن يطمحن لأفضل من هذا. المستوى الأعلى يتطلب نقودًا لشراء فستان وحذاء جيدين، ولكن كانت

النقود ـ فى اللحظة التى تقع فى أيديهن ـ تذهب إلى عائلاتهن. ولكن تيريزا كانت فتاة ذكية، واضحة الرؤية، ولم يكن لديها نية البقاء عاهرة للجنود. فى البداية، ذهبت مع فتاة أخرى لترى كيف تجرى الأمور، وسرعان ما جذبت انتباه جندى نال منها وقوفًا وهى تستند إلى جدار، وأعطاها نقودًا تكفى لشراء الطعام ليومين. كانت تيريزا ترتعب من فكرة الإصابة بمرض ومن احتمال ألا تستطيع الخلاص من هذه الحياة. وقد عاشرت الجنود وقتًا طويلاً من أجل ادخار مال يكفى لشراء فستان وحذاء، وتسليم أمها ماتبقى من النقود. كانت أمها تسألها "هل هذا كل شىء؟" وهى تأخذ المال منها: كان صوتها أجش، وعيناها منكسرتين، وكانت توبخ تيريزا طوال الوقت، رغم أنهما كانتا صديقتين. كان سكان المستوطنة، حين يشاهدون الفتيات ذاهبات إلى عملهن عند الغسق، يطلقون تعليقات غاضبة ، كما يحاول الرجال حين تعود الفتيات إجبارهن على المضاجعة مجانًا.

كانت تيريزا فتاة طيبة تواظب على الذهاب إلى الكنيسة، وكان القس والمدرس فى المدرسة يحبانها ويقولان لوالديها إن هذه الفتاة نعمة من الرب. ولكنها أصبحت امرأة يطلق عليها الناس ألفاظًا نابية حين يرونها. كانت تحس بالبشاعة. خلال تلك الأسابيع التى سارت فيها العائلة من الشمال إلى الجنوب، كانت تيريزا ترتدى بنطلون جينز يمتلئ بالثقوب وقميصًا لوالدها. وما زال هذا ماترتديه وهو سبب زهد

ثمنها. لم يكن هناك مكان صالح للاستحمام. شعرها كان مزيتًا، وكانت تعرف أن رائحتها نتنة.

كان عليها أن تجبر نفسها للذهاب بحالتها هذه إلى متجر لشراء فستان. كانت تخشى أن يطردوها. كانت تعرف بالضبط ماتريده: فقد رأت من الرصيف الفستان معروضًا. دخلت والنقود فى يدها وقالت" أريد هذا الفستان" كانت تعلم أنها لن تستطيع أن تجربه بسبب قذارتها. أخذت البائعة النقود ووضعت الفستان فى كيس وهى تلقى على تيريزا نظرات غاضبة. قالت تيريزا "أريدك أن تحتفظى لى به هنا - لعدة أيام فقط"

لم تكن البائعة ترغب بذلك ، ولكن نظرات تيريزا المتوسلة جعلتها تغير رأيها. سوف تضع الكيس جانبًا ولكن لمدة أسبوع فقط. كانت تيريزا تعلم أنها لا تستطيع أن تأخذ الفستان إلى الكوخ: سوف تنتزعه أمها منها لبيعه وشراء الطعام بثمنه. وكانت تيريزا توافق فى سرها على صواب ماقد تفعله أمها. فهى تعرف تمامًا عذاب مشاهدة أطفال يطلبون طعامًا يخلو منه البيت.

استندت تيريزا كثيرًا على الحوائط، فى العتمة وفى نور النهار أيضًا، حتى جمعت من النقود مايكفى لشراء حذاء جيد. أخذت الفستان من المتجر وارتدته. كان لونه أحمر، مع فتحة صدر واسعة، ولكن ليس كثيرًا، ووسط ضيق - تحولت إلى شخص مختلف. قامت بذلك خلف شجرة فى حديقة عامة. ارتدت

الحذاء وهو بكعب عال، رقيق. سوف تجد صعوبة فى السير فيه. كان عليها حينها أن تجد طريقة لتنظيف نفسها. وكان هذا يحتاج إلى شجاعة أكبر من أى شىء فعلته فيما مضى. ذهبت بجرأة إلى فندق كبير، أحد أفضل الفنادق ودخلته وكأنها تقيم فيه. كان أصعب شىء هو السير بهذا الحذاء حتى ليظن الناس أنها متعودة عليه. وقد ألقى عليها العاملون فى بهو الفندق نظرات دقيقة، ولكنهم اعتقدوا أنها جاءت لتسلية أحد الزبائن فى غرفته. وجدت حمامًا خاليًا، رفعت فستانها إلى الأعلى، وبقطعة قماش كانت قد أتت بها معها، غسلت ساقيها حتى وسطها ثم أنزلت فستانها إلى الأسفل وغسلت تحت إبطيها وثدييها. شعرت بإغراء أن تأخذ الصابونة معها إلى أسرتها ولكن كبرياءها منعها. لست لصة، قالت لنفسها. جاءت امرأة ما ، لم تعر تيريزا انتباهًا، استخدمت إحدى دورات المياه ثم خرجت وغسلت يديها، وهى تقف إلى جانب تيريزا التى كانت تغسل يديها.

خرجت المتطفلة. لقد نظفت تيريزا كل شىء إلا شعرها، وعليها أن تقوم بالمجازفة الكبرى الآن. غسلت شعرها دون أن تستطيع أن تتصنت جيدًا ولكن لحسن حظها استطاعت أن تخرج شعرها من الحوض، وبينما كانت تقف تميل إلى الخلف تعصر الماء عن شعرها، دخلت امرأة وحملقت بها ولكنها لم تقل شيئًا وخرجت. مشطت تيريزا شعرها. وكانت تعرف أنها الآن نظيفة، فى فستانها الأحمر الجديد، وحذائها

الأبيض العالى، وبشعر ناعم مسترسل، كانت مثل أفضل الناس، وخرجت من الفندق لتجلس إلى إحدى الموائد فى الشمس حتى يجف شعرها. كان الوقت قرب الظهر. لم تكن تعرف كيف تقيّم الناس حولها، معظمهم من السياح، ماعدا الفتيات التى كانت تعرف أنهن من أكواخ المستوطنات مثلها. ومثلها، كنّ فى أبهى منظر. بفستان وحذاء لطيفين وثمن مشروب تستطيع أية فتاة حسناء من أسوأ أزقة العالم أن تجلس إلى مائدة أمام أفخم فندق دون أن ينطق أحد بكلمة. ربما النادل. قد لا يعرف الزبائن الآخرون حقيقة أولئك الفتيات المنتظرات ولكن الندل يفهمون كل شىء.

ولكن حين جاء أحدهم، طلبت عصير برتقال وجلست وحدها وقتًا طويلاً. رأت إحدى الفتيات تدخل الفندق مع أحد الرجال. أخيرًا جاء رجل وجلس إلى مائدتها وكان عليها أن تكون شجاعة. كان سائحًا يتكلم عشر كلمات برتغالية. كان ألمانيًا. سأل عن السعر، فأخبرته بسعر كان من الضخامة حتى توقعت أن يضحك منها: ولكن هذا كان فندقًا مشهورًا، كانت تعرف ذلك، ومظاهر الأناقة والعافية تبدو على الجميع. قال نعم إنه يوافق. ولكن حينها شعرت بالخوف: ماذا لو سألها إذا كان لديها غرفة؟ ولكن كلا .. قادها عبر المدينة إلى فندق أصغر، حيث لم يوقفه أحد وهو يدخل معها المصعد. كانت تحمل معها فى الكيس الفخم الخاص بالمتجر الذى اشترت منه فستانها، ملابسها القديمة ولم تكن رائحتها لطيفة.

تدبـرت أن تـتركها خلفهـا فى المصـعد وهى تخرج منه.

وكان أن أعجب بها الرجل الذى طلب منها أن توافيه كل يوم طوال الأسبوع الذى يقضيه هنا. كانت تلك ضربة حظ: وإنْ لم تعرف فى حينها مقدار هذه الضربة. ولكن ربما لم يكن الحظ وحده. كانت جميلة، وقد اكتشفت هذا وهى تتطلع إلى نفسها فى المرآة الطويلة فى الغرفة كانت جميلة ولديها رغبة فى الجنس. لم تنفر من الرجل، فهو لم يكن مثل الجنود.

فى نهاية الأسبوع مع الألمانى، أخذت إلى أمها نقودًا أكثر مما فعلت فى أى وقت من قبل. ولكن لم يكن ذلك كل ما لديها. كانت مهمومة بالخطر الذى تعيش فيه، وهى تحمل مبالغ من المال مربوطة تحت ثدييها. البنوك لم تكن لأشخاص مثلها. فهى لا تملك حتى بطاقة تعريف بها، وهى تعلم أنها لو وقعت فى أيدى الشرطة فستكون مشكلتها كبيرة. ولهذا وقفت فى طابور، طوال يوم كامل، وحصلت على بطاقتها، قطعة من الورق تقول إنها تيريزا ألفيس. أحست بالخيبة من هذه البطاقة التى لا تناسب ما تشعر به حيال ذاتها. والبطاقة لم تحل مشكلة النقود كذلك. كان ثمة صاحب متجر يحتفظ بالنقود للزبائن مقابل ثمن، ولكنها لم تكن تثق به، ومع ذلك فقد اضطرت وأعطته نصف ما تملك.

لم تذهب إلى الموائد خارج ذلك الفندق لمدة أسبوع ثم فعلت واشترت لنفسها فستانًا آخر، أخضر،

وذهبت إلى مصفف شعر لأول مرة فى حياتها. أصبحت أجمل امرأة على تلك الموائد، وقد حصلت فورًا على زبون آخر، كان يونانيًا. بدأت عائلتها تأكل جيدًا والدجاجة التى تبيض تكبر. كانت تخطط للخلاص من كونها بائعة هوى. هى الآن أقل خوفًا من المرض، مما كانت عليه أيام الجنود، ولكنها ظلت قلقة رغم ذهابها إلى طبيب طمأنها أن صحتها جيدة ـ حتى الآن.

عمل فتاة ليل يكلف كثيرًا وهى تعلم أن مهنتها مكلفة بالملابس والمشروبات غالية الثمن والزينة وتصفيف الشعر ورشوة خادمة فى الفندق لتحتفظ لها بملابسها الأنيقة، مصاريف تعادل ما كسبه أبوها فى سنوات عمله كمزارع فقير.

ثم حظيت بفرصة أخرى: كانت محظوظة، وهى تعلم ذلك. أحد زبائنها وكان أمريكيًا يعمل فى المسرح استخدمها لتوفير معلومات له حول طباع وسلوك السكان، وأخذها معه فى رحلات لاختيار مواقع تصوير، وطلب منها أن تترجم له أشياء بسيطة ـ وهى تعرف الآن بضع كلمات إنجليزية، ليس كثيرًا ولكنها كافية لتظهرها عليمة باللغة. وهكذا أصبحت معروفة فى ذلك العالم: التليفزيون والسينما والمسرح وعرضت عليها وظيفة. فتركت مهنة الدعارة، رغم أن تحولها إلى امرأة محترمة لن يكسبها كثيرًا من المال. وكانت تعود إلى المستوطنة كل بضعة أيام. وقد استأجرت غرفة رخيصة فى ريو: أخيرًا أصبح لها مكان تحتفظ

فيه بنقودها وملابسها. وقد عنفتها أمها بمرارة ناعتة إياها بأنها ابنة جحود سوف تتركهم يتضورون جوعًا، رغم أنها تعلم أن تيريزا لن تفعل ذلك. وكانت الاثنتان تدركان أن غضب الأم نابع من الخجل. وقد أخبرت تيريزا أمها بأنها تعمل الآن فى مهنة شريفة ولكن والديها لم يصدقاها وإن تظاهرا بذلك من أجل إنقاذ ماء وجهها ووجهيهما، هما إذًا لا يعيشان الآن من عرق بائعة هوى.

صار حال العائلة الآن أفضل من الكثيرين فى المنطقة . وقد بنى الأب بيتًا صغيرًا من طابق بسقف حديدى يقى من المطر والرعد. كان البيت يتكون من غرفتين تحوى ليس ستة أفراد وإنما ثلاثة: الأم والأب وفتاة صغيرة مريضة. أما الولدان، الأصغر من تيريزا، أحدهما فى الرابعة عشرة ، والأصغر منه، فى الثانية عشرة ، فقد انضما إلى عصابة الأولاد التى تجوب الشوارع، تسرق ، وتأخذ ما تقدر عليه. وإذا عادا إلى البيت فمن أجل المطالبة ببعض المال ثم ينطلقان ثانية. أحيانًا كانت تيريزا ترى عصابة من أولاد الشوارع، فتشرع فى البحث عن أخويها، فتراهما يهرولان هنا أو هناك أو يجلسان على حافة الرصيف وعلى وجهيهما نظرات تائهة. مخدرات. كانا يستعملانها ويبيعانها. كانت توبخهما، ولكنها فى الوقت نفسه تعرف أن عليها أن تحذرمن ضراوة أولاد الشوارع الذين يقتلون من أجل حفنة نقود. ولكنها ساعدت فى تنشئتهما ومؤخرًا فى إطعامهما وهكذا

كانت تشعر أن لها الحق فى تأنيبهما. كانت تعطيهما نقودًا. ثم كان عليها أن تحذر من العصابة، لأنها تتوقع أن يأتى آخرون غير أخويها لطلب النقود منها.

قبل سنتين، وظفها أليكس لديه، حين كان يعمل فى المسرحية، وأصبحا عاشقين. فى أول الأمر، اعتبرت تيريزا أن ماتفعله تفضل منها عليه، لأنها رفضت أن يحسب أن تقديم جسدها شرط من شروط العمل. ولكنه لم يأبه أو حتى ينتبه كثيرًا. كان مولعًا بها، ويعتمد عليها ولم تكن لديه فكرة عن الدروب الموحلة التى مشت عليها، فى البدء، من قريتها المحتضرة النائية، ثم بيع جسدها للخلاص من الفقر. كان يتقبل الأشياء كما تأتى. فى ريو هناك تيريزا الجميلة، وهى بالتأكيد ليست اكثر مما يستحق. كان معتادًا على الأشياء الطيبة فى حياته وكان كريمًا فى ماله. قالت له "عندى أم وأنا أرسل لها النقود" وكان يعطى تيريزا المال، أجرًا جيدًا، أكثر مما كان سيفعل لو لم تكن هناك هذه الأم.

حين كانت تيريزا تسمح لنفسها بالتفكير فى حالها، كان الذعر يغشيها. فأمها تعتمد عليها وكذلك أبوها وطفلة عليلة. وكانت تخطط لكيفية إنقاذ أخويها. المشكلة إن الغرفة التى تعيش فيها وهى فى شقة مغنية مغمورة تؤجر الغرفة لتطعم نفسها، كانت صغيرة جدًا، ولا يمكن أن تستوعب أخويها. ولكن لو كسبت أكثر وحصلت على مكان أكبر؟ ولكنها لم تكن مستعدة للعودة إلى الدعارة. كانت الأعباء تجثم على

كتفيها مثل كيس ثقيل عليها حمله. كانت فى السابعة عشرة من عمرها وإن تظاهرت بأنها فى الواحدة والعشرين ، كما تظاهرت بأنها تعرف من الإنجليزية أكثر من الواقع. كانت تحلم غالبًا بقريتها، رغم فقرها وصعوبة الحياة فيها. ولكن على الأقل كان هناك من يرعاها. كانت تتوق لشخص يقف حائلاً بينها والأخطار التى تحيطها. كانت تحن لذراعى أمها القويتين .

وهكذا جلست تيريزا، تسند رأسها على يدها وتفكر كيف كانت طفلة تتراكض على التراب غافلة عما يحمله لها المستقبل من هذه الأعباء، وكان بن يجلس إلى المائدة معها وهو ينوح "أريد أن أذهب إلى البيت" وأحيانًا كانت تيريزا تضع ذراعيها حوله "يا بن المسكين" وحتى "أنت ولد طيب يابن" وهى تذكر نفسها بأن هذا رجل ملتح ،عمره كما يقول جواز سفره فى الخامسة والثلاثين ، وإن كان قد أخبرها بأن عمره الحقيقى هو الثامنة عشرة. كان الناس يعاملونه على أنه أصغر من ذلك، وهو يتصرف مثل طفل مطيع. كانت تفكر ، إن الناس يتصرفون كما تعاملهم. وهكذا غيرت سلوكها تجاهه، طالبة منه، مثل أى رجل بالغ، أن يفعل بعض الأشياء لها، يلف لها ساندويتشًا، أو يصنع لها قهوة، وخيل إليها أن اختلافًا طرأ عليه بسبب ذلك. .

لم يكن يجلس معها دائمًا. كان الباب بين الغرفة الكبيرة وغرفة نومه مفتوحًا عادة، وكانت تعرف ما

يفعله. يضطجع على فراشه أو يجلس عليه يجرب نظاراته الداكنة. بعد الظهر كان نور الشمس يغمر غرفته حتى ليبدو أحيانًا وكأن بن يغوص فى بركة ماء رجراجة. كانت شظايا وإبر الضياء تحاول أن تخرق عينيه، وتصيب رأسه بالدوار. كان يجرب النظارات، واحدة بعد أخرى، وينتهى دائمًا باختيار أكثرها إعتامًا: وكان ريتشارد قد اشترى له المزيد من النظارات. ثم يحاول أن يتدبر أمره بدونها، بينما سخونة النهار البيضاء تتحرك على الجدران بأشكال من الالتماعات. "لماذا عيناى مختلفتان هكذا؟" كان يسأل بقوة، مخاطبًا ما يمكن تسميته قدرًا أو مصيرًا ـ وقد تجمعت فى نفسه المشاعر المؤلمة التى تثيرها مقولة السيدة العجوز أو تيريزا "بن المسكين". ولكن لماذا، لماذا، لماذا كان مختلفًا؟

فى هذه الأثناء كان أليكس وباولو بعيدين فى التلال، التى وصلاها بواسطة طائرة صغيرة من مدينة يمكن الوصول إليها برحلة طيران يومية. كانا يودان الذهاب بالسيارة إلى التلال ولكن المطر كان قد هطل مدرارًا فلم تعد الطرق صالحة. وقد هبطا فى فندق صغير أو بيت ضيافة يعرفه باولو من زيارة سابقة لهذه المنطقة التى لم تكن تخلو من زيارات مستثمر طارئ أو عالم أنثروبولوجيا أو جيولوجى. كان فى الفندق أربع غرف فقط وتحيطه شرفة واسعة، كان الرجلان يجلسان فيها للعمل على السيناريو. وقد تجولا فى العديد من التلال، وفى ذهنيهما بن ـ بن

وقبيلته. المشكلة هى إنه رغم استمرار وضوح تلك الرؤيا فى فندق نيس عن بن وقبيلته فى مخيلة أليكس، حتى أنه كان يكرر الإشارة إليها للمقارنة، ولكنه كان يرى بن كما هو الآن ، مخلوقًا غاضبًا بائسًا وربما يكون مريضًا كما يعتقد هو وباولو. كان بن يدفع الشعور بالإثم فى نفس أليكس. كان أحيانًا يشعر بالندم لجلب بن إلى البرازيل بل للفكرة كلها. الفكرة كانت فاشلة. حين تسير الأمور سيرًا حسنًا، يحدث التالى: يكون ثمة زخم، ثم يكون كل شىء مواتيًا: الناس، الإحداث، مقالة فى مجلة، كتاب تلتقطه بالصدفة. كل شىء يضيف إلى العملية، وبهذه المصادفات تستبشر أنك على الطريق الصحيح. ولكن مع هذا المشروع ـ هذا الفيلم ـ كل شىء يتعثر ويواجه عقبات ويتوقف. كم مر أعادا كتابة السيناريو، حاسبين فى كل مرة أنه السيناريو الأفضل، ثم تبدأ الشكوك حتى يعرفا أنه ليس جيدًا. يدرك أليكس الآن أن حضور بن القوى هو الزخم الذى قادهما إلى هنا . بن كما كان. ولكن بن الآن هو العثرة، القفل الذى يغلق مخيلتهما الإبداعية، فحين يفكران به كل ما يسمعانه هو دُم دُم طاخ طاخ ، صوت ارتطام رأسه على الحائط. بل إنهما صارا يتندران بأن الصوت يشبه صوت مدقات المناجم: وكان يصل إليهما صوت مدقات منجم صغير قرب بيت الضيافة. كانت تلك النكتة هى محاولتهما لاستحضار بن إلى شىء متناغم يمكن أن يغذى أفكارهما.

تجولا عبر الكثير من التلال والجبال الصغيرة، وقاما بزيارة قبيلة هندية، ومن ذلك اللقاء بدأت عملية ـ كانت فى بدايتها موارية والآن صريحة ـ لإخراج بن من الفيلم.

كانا قد ذهبا بالطائرة ـ الثالثة ـ بأربعة مقاعد طارت فوق الغابات والأنهار وحطت فى غابة مطيرة كان فيها أناس لم يظهروا العداء بل الترحيب بما جلبا معهما من هدايا حسب نصيحة باولو. كان هناك جهاز راديو، وبطاريات ـ الكثير منها فى علب بلاستيكية سميكة لطرد الرطوبة الساخنة ـ وطعام معلب وملابس وسكاكين. كان باولو هو الذى يدير الحديث : فهو يعرف عدة كلمات من اللغة المحلية، فى حين جلس أليكس صامتًا، ولكن عينيه كانتا تعملان بشدة. يالها من وجوه! يالها من أجسام! ما أجملهم من شعب، يعيشون حياتهم الفطرية على حافة النهر. كان هؤلاء الناس، فى رؤياه الأولى للفيلم، هم الذين غزوا أراضى قبيلة بن ثم. ولكن باولو لم يكن قادرًا على تحديد ماذا يحدث بعد ذلك .

كانت هناك فتيات جميلات، إحداهن على الأخص، لم يكن أليكس قد رأى فى حياته من قبل مثل هذا الجمال الرقيق. كانت فى الرابعة عشرة من عمرها، كما قيل لهما، وعلى وشك أن تتزوج. لم تعارض القبيلة الظهور فى فيلم ولكن فرضت بعض الحدود، وأحدها ألا ينقل أحد الصبيان أو الصبايا

من هنا إلى إغراءات المدينة الكبيرة ـ والتى تبعد فى عرف هؤلاء الناس ساعة بالطائرة ، والتى لم يستطع أليكس وباولو إيجاد اسمها على الخارطة.

تلك الفتاة.. كانت فى ذهنيهما معًا، وقد اعترفا بالافتتان بها. عادا إلى شرفتهما وبيت الضيوف الذى يديره رجل عجوز وامرأة كانت تسألهما كل صباح عما يرغبان فى تناوله، ولكن فى كل مرة تقدم الدجاج والرز والبقول، والتوابل الحارة ، والدجاج مرة أخرى. كانا يشربان بيرة بردت فى ثلاجة تدار بالبطاريات، لأن القوة الكهربائية هنا تأتى بالصدفة وغالبًا تتقطع. رمى الاثنان كل النسخ الأولى من السيناريو وبدءا من جديد، حيث تشكل القبيلة والفتاة نقطة الانطلاقة. ولم يختف بن تمامًا. ففى أول الأمر أُجبرت الفتاة على الزواج من رجل تلال متوحش كان قد وجد ذهبًا وأراد أن يشترى به الفتاة ، وهذا الرجل يملك بعض صفات بن كما يراها أليكس، خاصة الغباء الفظ. ثم يفقد الخطيب فظاظته، ولم يعد يعيقه سوى ساق عاجزة، استطاعت الفتاة أن تشفيها ـ وهكذا يمكن القول إن حضور بن قد تم اختزاله فى ساق عرجاء. فى النهاية تحقق الفيلم، ونجح. أصبحت الفتاة نجمة تليفزيون تظهرعلى الشاشة كل يوم فى ريو. كانت هذه نوعًا من النهايات السعيدة، وهذا بالتأكيد ما حسبته الفتاة أيضًا، على الأقل فى بداية شهرتها، ولكن حين تقدمت فى السن لم تكن على هذه الدرجة من الوثوق.

في هذه الأثناء، هاتف أليكس تيريزا من مدينة كان عليه أن يطير إليها للحصول على هاتف مضمون. قال أليكس إنه سيبقى أسبوعًا آخر. فالإقامة رخيصة جدًا هنا، وكانا يريدان زيارة قبيلة معينة مرة أخرى. هل يمكن لتيريزا أن تبقى في الشقة لرعاية بن ، وتحضيره لخبر عدم ظهوره في الفيلم؟

شعرت تيريزا بالسخط ولم تخف ذلك. يجب ألاّ يعامل بن بهذه الطريقة، يُغرف ثم يُلفظ. ولكنها شعرت بالسرور أيضًا ولكنها أخفت ذلك. فقد كانت تعلم أن بن سوف يتضرر أكثر لو وضعوه في فيلم، أي إذا، استطاع أن يدبرها. كانت تتحدث بثقة تناقش الشروط والمتطلبات، فالنقود على وشك النفاد. حسنًا، قال أليكس، يمكنها أن تستعمل نقود بن، وسوف يقوم أليكس لدى عودته بتعويض بن. وكيف حال بن؟ قالت تيريزا "إنه بخير" ولم تخبر أليكس بالحقيقة ، ولم تكن تنوي ذلك . " إنه بخير" .

قال أليكس "عظيم"

"هل أقول له إنك سوف تعيده إلى وطنه قريبًا؟"

"نعم نعم لقد وعدته، ولكني كنت أفكر يا تيريزا، إذا كان يحب ريو يمكنه أن يبقى . ماذا ترين ؟"

"إنه يريد أن يعود إلى البيت" قالت تيريزا بصوت باك.

"طيب طيب ، لابأس. إبلغيه أننا سنعود قريبًا"

أخبرت تيريزا بن بأنه لن يظهر فى الفيلم لأنها كانت تعلم أن هذا سوف يسعده، ولكنها لم تخبره بعودة أليكس القريبة؛ لأنها تعلم خوف بن منه.

مر أسبوعان ثم ثلاثة. كان هناك روتين بيتى. فى الصباح كانت تيريزا تخرج لشراء خبز طازج وكانت تصنع قهوة لنفسها وتصب عصير فاكهة لـ "بن". حاولت أن تدفعه لتناول المزيد من الطعام، ولكنه كان قد فقد شهيته وكان نحيفًا وكئيبًا. كانت تيريزا تحب أن تذهب إلى الشاطئ ولكن بن لم يكن يرغب فى الذهاب أو أن يُترك وحده مدة طويلة. كانت تذهب معه، ليس إلى موائد الفندق الذى حققت فيه طفرتها من الفقر المدقع ، وإنما إلى فندق آخر لايعرفها فيه أحد. كان يضع نظارته السوداء، وقبعة بناما كانت قد اشترتها له، و كان يسحبها على عينيه. يجلسان هناك ساعتين، يشربان العصير ويتفرجان على المارة. كانت تيريزا تهتم بردود أفعال بن: انكماشه مثلاً وظهور تكشيرته البيضاء العريضة من خلال لحيته. "ماذا هنالك يا بن؟" ويرد بن" إنه شرير" "إنه يؤذينى" "ولكنى معك يابن" وتجهد أن ترى ماذا أخاف بن فى ذلك الشخص الذى يبدو مسالمًا، ولكنها لا تستطيع. أو قد تظهر ابتسامته السعيدة الصغيرة وترى شخصًا آخر مسالمًا أيضًا وعادة يكون امرأة "يجب أن تحذر يا بن حين تبتسم للبنات" وقد يقول بن "تعجبنى"، ومرة قال "أعتقد أنها تحبنى" وبعد مثل هذه المغامرات، كانت تيريزا تشعر بالراحة للنجاة من الأخطار وبالسعادة

للعودة حيث تقدم له لحمًا لإغرائه بالطعام وساندويتشًا لنفسها. فى أوقات مابعد الظهر القائظة كانا يسترخيان فى البيت، وقد يأتى أصدقاؤها للزيارة ، واحد أو اثنان ولكن فى الأماسى، لم يكن الحال كما كان مع باولو وأليكس، فالزوار يأتون الآن وفى أيديهم زجاجة نبيذ أو بعض اللحم لطبخه أو فاكهة - لايمكن لهذا المكان أن يظل مَضْيَفَة، إذ لاتملك تيريزا المال الكافى ولا تريد أن تنفق نقود بن أكثر مما يلزمها. ولم يكن بن ينزوى فى غرفته وإنما كان يبقى بل حتى يجلس معهم إلى المائدة. لم يكن مشمولاً فى أحاديثهم التى ظلت تبتعد عما يعرفه، ولكنه كان يستوعب ما يقدر عليه وهو أكثر مما كانت تيريزا تظن أو الآخرون. كانوا يتضاحكون كثيرًا، ولكنه كان يتساءل غالبًا عما يثير ضحكهم : كان ذلك يخيفه عادة. وازداد استرجاعه لذكرى المرأة العجوز، وعنايتها به، وعطفها عليه بل حتى فكر فى القطة واعتبرها رفيقًا فقده. كان بن يعرف أن ألين بجز قد ماتت، ولكن ذلك لم يمنعه من التفكير فيها، وفى ترحيبها به إذا وصل إلى بابها.

كان الأشخاص الذين يأتون لزيارة تيريزا أقل مستوى من ضيوف أليكس. لم يكن بينهم مخرجون وكُتَّاب سيناريو ، ولا ممثلون أو راقصون مشهورون. كان ضيوفها يعملون على هامش المسرح والتليفزيون، فنيو مسرح، فتيات علاقات عامة، مترجم قريته تيريزا حتى تتعلم المزيد من الإنجليزية منه. فتاة

مكياج كانت قد علمت تيريزا كل ماتعلمه. ومن مغنية فى ناد يؤمه البحارة تعلمت بعض الأغانى وكيف تعزف على الجيتار. لم يكن بينهم فتيات من المستوطنة السكنية على تلال ريو، أو من يعرف ماضى تيريزا القريب. من بين هؤلاء الناس، كانت ثمة امرأة شابة تعتبرها تيريزا، سرًا، جائزتها الكبرى. كان اسمها إنيز وكانت ابنة عائلة محترمة. أبوها أستاذ جامعة، وكانت تعمل مساعدة فى مختبر علمى. وقد التقت بها تيريزا أثناء صناعة فيلم عن الجينات والوراثة ـ وماشابه ـ وقد استشير والد إنيز. وانبهرت إنيز بالمسرح كما يفعل فقط من كانت حياته رتيبة ومملة منذ ولادته، حيث كل شىء متوقع ومعروف مسبقًا.

أعجبت تيريزا بهذه الشابة الذكية التى وصلت إلى درجات من التعليم جعلت من حديثها ـ فى نظر تيريزا مصدر دهشة وإعجاب بإمكانات لم تتخيلها أبدًا. وفى المقابل افتتنت إنيز بتيريزا. وعلى عكس أليكس الذى لم يتأثر حين أخبرته تيريزا أنها سارت مئات الأميال لتصل إلى ريو، كانت إنيز تعرف جيدًا بواعث هرب تيريزا. كانت قد طارت فوق المناطق المتصحرة حيث تغلفها سحب الغبار حتى يصعب معها أن ترى من خلالها الأنهار الجافة والقرى المردومة بالغبار حتى سقوفها. وكانت تعرف الكثير عن المستوطنات فى تلال ريو. وقد ملأها ماضى تيريزا بالشفقة والفضول والذنب المحرج. لم يكن ممكنًا فى ريو الخلاص من الفقر، فهو موجود على الدوام هناك

يفرض نفسه عليك فى كل عطفة شارع فى صورة أطفال مشردين وعصابات شوارع من الذين ينامون مثل صرر ملابس قديمة مهملة على الأرصفة، والذين يهبطون على النافورات مثل أسراب طيور، يزقزقون ويتصايحون ثم يرشفون الماء مثل الطيور وعيونهم زائغة فى كل اتجاه خوفًا من ظهور رجال الشرطة الذين قد يحبسونهم أو حتى يقتلوهم.

حين علمت إنيز أن عائلة تيريزا تعيش فى المستوطنة، طلبت منها زيارتها، فقد طالما رغبت فى دخول المستوطنات ولكن خوفها كان يمنعها، والآن بحماية تيريزا ستتمكن من تحقيق ذلك. فى البداية رفضت تيريزا خوفًا من أن تحتقرها صديقتها الذكية المترفعة هذه، ثم وافقت. وكان لديها سبب. طلبت من إنيز أن ترتدى حذاءً يتحمل وعورة الطريق، وارتدت هى بنطلون جينز وقميصًا أبيض وحذاءً منبسطًا. استأجرت الشابتان سيارة إلى حيث لاحت الأكواخ متدرجة على التل، ثم جاهدتا فى صعود طرق مترية تمتد بين الأكواخ حتى القمة، حيث وجدتا والد تيريزا نائمًا على سرير مصنوع من شرائط بلاستيكية مربوطة على إطار خشبى كان قد وجده فى مقلب القمامة. وكانت الأم تجلس تحت ظلة من أكياس ممتدة على أعمدة، واضعة الطفلة الصغيرة العليلة فى حجرها.

لم يتغير وجه الأم وهى تنظر إلى ابنتها التى سلمتها ـ بدون أن تنظر إليها ـ مظروفًا بالنقود. وقد حيت إنيز ببرود رغم انبهارها بها، كما أدركت تيريزا،

لأنه لا أحد يمكن أن يتصور إنيز بائعة هوى، كان الرقى باديًا عليها. لم تقدم الأم لهما شيئًا، ولكن تيريزا ذهبت خلف الرجل النائم، إلى رف عليه قنينة بلاستيكية مليئة بالماء فصبت قدحين لها ولإنيز. ثم لم يكن هناك مكان للجلوس. وقد لاحظت تيريزا أن إنيز لم ترغب فى الشرب من قدح تظنه ملوثًا. وقفت الشابتان هناك فى حين ظلت الأم جالسة تهفّى للطفلة النائمة، وتحدق فى سطوح الأكواخ المتحدرة على التل. ثم لانت قليلا وسألت إنيز عن عملها وأجابت إنيز انها تعمل فى مختبر. وضعت المرأة الغاضبة، عابسة، الطفلة على فراشها فى زاوية الغرفة، وأحضرت كرسيين بدون ظهر أعطت أحدهما لإنيز والآخر لتيريزا. وسألت أين التقت إنيز بتيريزا ـ نبرة نطقها اسم تيريزا كانت تحمل اتهامًا ـ قال إنيز إنها قابلت تيريزا حين كانت هذه تعمل فى فيلم تليفزيونى. وهذا ماكانت تيريزا تأمله من الحديث، وقد أحدث أثره: من الواضح أن أمها رقّت وتأثرت وحين نظرت إلى تيريزا، رغم أنها كانت تتفادى النظر إلى هذه الفتاة التى جلبت العار كما لو أنها غير موجودة كانت عيناها الآن مليئتين بالدموع. وفى لحظة الوداع احتضنت تيريزا، وهو شىء لم تفعله منذ سنتين، وبكت، وكذلك بكت تيريزا، واستمرت الأم تبكى وهى تراقب الشابتين الجميلتين النظيفتين تهبطان بصعوبة الدروب المنحدرة بحدة إلى سفح التل.

تأثرت إنيز بالزيارة وقد بكت هى أيضًا وهى تجلس مع تيريزا فى الشقة ، وكان بن حاضرًا.

تحدثت عن إعجابها بتيريزا، آه، إنها لا تطيق التفكير فى أولئك الفقراء، كانت شطارة من تيريزا أن تنجو بنفسها من كل ذلك. كانت تتحدث بصدق شعرت به تيريزا ولكنها كانت تفكر: وعلى أن أشكرك على شىء لن تفهميه مطلقًا. لأن إنيز لم تكن تعلم بماضى تيريزا كفتاة ليل، ولو علمت لأعجبت بها أكثر ولازداد نفورها من حياتها الآمنة.

ثم حدث تطور فى الأحداث حقق نبوءة جونستون وريتا. كانت إنيز تعمل مع عالم أحياء، صديق لوالديها، كان يدير قسمًا فى المختبر. وقد أخبرته عن بن ، واصفة إياه بأنه إنسان الغاب. "شىء مثل ذلك على أية حال" ولكن لا أحد يستطيع أن يعرف ماهيته. "إنه طفرة ، على الأقل هذا ما أظنه. عليك أن تراه"

أخبرت إنيز تيريزا أن رئيسها ـ هكذا سمته بكياسة، دون أن تقول إنها تعرف هذا "الرئيس" طوال حياتها كونه صديق والديها ـ مهتمًا بلقاء بن. وعلى الفور، شعرت تيريزا بالخطر والخوف. ولكن سرعان ما اختفى هذا الشعور الفورى الغريزى الصادق بسبب رهبتها من مصطلح علم وعلماء: كانت جاهلة بكل هذا، فتعليمها لم يتجاوز معرفتها بالقراءة والكتابة والحساب والكثير من الدين. كانت عالمة بجهلها ولكن، ليس بمداه: كانت ثقافة إنيز بالنسبة لها معجزة ، شيئًا بعيد المنال، وكان يثير إعجابها أن زملاء إنيز من العلماء ، فى حين أن زميلاتها هى بنات الحانات والممثلات العاطلات غالبًا عن العمل

والمغنيات اللاتى يحلمن بالغناء فى نواد ليلية مقابل وجبة عشاء أو ربما بعض النقود الصغيرة الإضافية. كانت جاذبية إنيز لكونها تعمل فى مختبر، وتفهم أسرار العالم الحديث. سألتها تيريزا ماذا ينوى هذا العالم أن يفعله مع بن وردت إنيز :"ينظر إليه فقط" وهى تعرف أنها تكذب، ولكن ثقافتها قد علمتها أن الحقيقة، الحقيقة العلمية كانت أهم من أى شىء آخر: يمكن القول إن تعليمها كان يتضمن الكثير من مادة الدين مثل تعليم تيريزا. كانت تدرك جيدًا بأن" النظر إليه فقط" لن يكون غاية المطلوب. ولكنها فى قرارة نفسها كانت تشعر بالقوة والصلاح ، إذ تقدم هذا المخلوق اللغز، لشخص يمكن أن يحل أسراره. لم تقل أى شىء من هذا لتيريزا، ولكن هذه رأت علامات الكذب ترتسم على وجه إنيز المبتسم البارد الذى أصبح فجأة وجه عدو. ماتت صداقتهما فى تلك اللحظة.

أصرت تيريزا أن تتم المقابلة بطريقة لا تخيف بن، وهكذا تم الاتفاق على أن يتجمع يوم الأحد المقبل إنيز و"رئيسها" وبضعة أصدقاء آخرين، من المألوفين لـ"بن". ولم يخبر بن بحضور شخص مهم معين. وفى هذه الأثناء كانت تيريزا غارقة بالقلق وحتى وهى تتعهد لنفسها ألا تسمح بخروج الوضع عن السيطرة: ألم تضع شروطًا وحدودًا، وألم تتعهد إنيز بالالتزام بها ؟

كانت تيريزا وأصدقاؤها وبن جالسين حول المائدة فى منتصف يوم الأحد حين وصلت إنيز مع لويس

ماكادو، وهو رجل أربعينى وسيم، يبتسم لبعث الارتياح والاسترخاء لدى الجميع. كان يدير قسمًا فى المعهد، مكرسًا لدراسة نباتات الغابات المطيرة، وهو قسم من عدة أقسام مماثلة ، وفى حين أن شيئًا مثل بن لم يكن ضمن حقل اختصاصه، ولكن هناك قسمًا آخر يسمى "المكان الشرير" يديره شخص قد يرى فى بن جائزة ثمينة. وفى حين أن لويس ماكادو قد قرر أن يكون لطيفًا ويساير الجمع، ولكنه لم يكن، كما يبدو واضحًا، يشعر بالراحة بينهم. وكان قد انتقد إنيز لصداقتها الحميمة مع تيريزا ولذهابها إلى المستوطنات: كان يمكن أن تُقتل أو تخطف، كما قال لها، وإذا كانت تريد أن تحصل على زوج مناسب (وهو يعرف أنها تطمح لذلك) فعليها أن تحذر: فإن هذه الحياة الدونية التى تحبها كثيرًا، قد تنفر منها الخطّاب.

كانت عيناه البنيتان المبتسمتان توزعان الطيبة حول المائدة عامة، ثم تركزت على بن فى فحص دقيق طويل. رد بن نظراته بعينين معتمتين ثم بدأتا تزوغان فى أرجاء الغرفة. كان يعكس أفضل مايستطيعه من انطباع. كانت تيريزا قد أخذته إلى الحلاق لتشذيب شعره ولحيته، وكان يرتدى قميصًا أنيقًا، صنع خصيصًا له وكان يبتسم، التكشيرة الواسعة المذعورة التى يسىء فهمها الناس. مد العالم يده لمصافحة بن ولكن بن اكتفى بالتكشيرة.

جلس لويس قرب إنيز. لم يكن أحد يعرف سبب حضوره سوى تيريزا: الكل كان يعرف إنيز على الأقل بالاسم، كفتاة غنية تتبرع بأموالها للمسرح. استئنفت

الآحاديث، وكان هناك طعام ونبيذ. جلس بن صامتًا، عيناه على لويس حين لا تكونان تبحثان عن مهرب. أما لويس، وكله كياسة ، فلم يفحص بن مرة أخرى كما فعل فى البداية، ولكن ظل يلقى بين حين وآخر نظرات سريعة عليه، وفى كل مرة يستوعب معلومات جديدة. لم يكن بن يأكل. وخشيت تيريزا أن يذهب للانزواء فى غرفته، وأن يسمعوا وقع ارتطام رأسه بالحائط. كانت إنيز تبتسم كثيرًا، وكان سلوكها وهى تنظر إلى تيريزا أو تكلمها مغلفًا بالاعتذار، دون أن تقصد. هذه الشابة الواثقة بنفسها والهادئة عادة كانت تشعر بالذنب، وقد أزعج ذلك تيريزا. لم يكن الوضع مريحًا. وقد أعلن لويس بعد قليل أن عليه أن يعود إلى المختبر - نعم عليه أن يفحص شيئًا ما، بغض النظر عن أن اليوم الأحد، فالتجارب لا تلتزم بالتقويم. وجه ولدى نظرته إليها، نهضت إنيز أيضًا، رغم أنها كانت مستعدة للبقاء وقتًا أطول. غادر الاثنان الراقيان، فى ربكة وداعات وكلمات شكر.

والآن يشعر الجمع بالارتياح ويعود المرح والمسرة. ولكن بن يذهب إلى غرفته ويجلس قرب النافذة، بعد أن يضع نظارته السوداء : كانت شمس العصر تملأ السماء بالضياء وتشعل نارًا بيضاء من اصطفاق أجنحة النوارس.

حين تلاشت أصوات الضيوف، عاد بن إلى غرفة الجلوس حيث وجد تيريزا مازالت عند المائدة وهى تبكى. كانت فى مصيدة ولا تعرف ماذا تفعل.

قال بن "متى يمكننى أن أذهب الى البيت؟ متى يأخذنى أليكس إلى البيت؟"

توقفت تيرزا عن البكاء وقد فوجئت أن يذكر بن اسم أليكس على غير العادة، لابد أنه يشعر بالخوف الشديد. لم تجبه.

"من هذا الرجل؟"

"إنه رجل ذكى جدًا"

"ماذا سوف يفعل بى؟"

زاد هذا السؤال اللماح من تشاؤمها، وأقرت صحة مخاوفه بقولها"لا أعرف يا بن، ولكنه لن يؤذيك"

"لا أحبه"

ولم تحبه تيريزا أيضًا. كان بينها وإنيز رغم اختلاف خلفيتيهما البيّن، هذا الارتياح الغريزى الذى تحسه النساء عادة مع بعضهن البعض، ولكن لم يكن شىء من هذا مع لويس: لباقته ووجهه الوسيم ، دائم الابتسام ، كانا يستثيران كل غرائز الحذر.

فى اليوم التالى هاتفها وقالت تيريزا "لا يعجبنى هذا. لا أريد أن أفعل ذلك "ثم كانت إنيز تكلمها وقالت تيريزا "كلا إنيز ، أقول كلا" كان بن فى الغرفة ولهذا كانت حذرة. فى النهاية وافقت على أن صديقًا للويس وإنيز اسمه ألفريدو سوف يزورها للحديث معها ومع بن.

وضعت السماعة ، لتواجه تكشيرة بن العريضة .

"بن، يريدونك أن تفعل شيئًا لن يؤذيك" تجمدت تكشيرة بن ودارت عيناه في محجريهما. "إنه شيء بسيط ، وسوف أقوم بنفس الأشياء معك"

"أية أشياء؟"

"يريدون أن تقوم باختبارات" وكان عليها أن تشرح كل ماتعرفه عن الاختبارات ولم يكن كثيرًا. "يريدون أن يأخذوا عينة من دمك ليعرفوا شيئًا ؟"

"سبب اختلافي عن الجميع؟"

"نعم ، هذا هو يا بن"

"لا أريد"

كان الوقت أواخر المساء حين دق جرس الباب: كان على ألفريدو هذا أن يأتي من محطة الأبحاث التي تبعد أميالا في التلال. رأت تيريزا أن بن يرتعش فقالت " لابأس يا بن . لا تخف"

حين فتحت الباب، لم يكن ألفريدو شخصًا مترفعًا بل عاديًا مثل تيريزا، رجلاً ضخمًا أسمر اللون وله نفس العينين الداكنتين والشعر الأسود. وحالمًا وقعت عيناهما على بعضهما شرعا في استخدام نفس اللهجة المحلية من المنطقة التي ينتميان إليها معًا. ولكنه كان قد قام بالرحلة الخطرة منذ عشر سنوات، كان أكبر سنًا من تيريزا. وكان قد وصل أيضًا إلى الأكواخ ثم خرج منها، وامتهن كل الأعمال، وكان يطور نفسه دائمًا مستخدمًا ذكاءه وبمساعدة الحظ الذي لايمكن النجاح بدونه، حتى وإن كانت النفوس شجاعة

وخصبة ، وقد انتهى إلى الوصول إلى مكانة لم يكن يحلم بها فى بداياته : صار مساعدًا فى مختبر. هذا كان عنوان وظيفته ولكنه فى الواقع كان عاملا تحت الطلب: يأخذ الناس بالسيارات، ينظف المعدات، يمسح طاولات العمل، يساعد فى تحضير العينات، ومثل تيريزا، كان قد علّم نفسه الإنجليزية - أكثر منها قليلا.

أدركت تيريزا فورا أن إرسال ألفريدو كان تكتيكًا بارعًا: كانوا أناسًا أذكياء. فمن جانب سوف تطمئن تيريزا لرؤية واحد من أهلها، ومن الجانب الآخر، سوف يجد بن فى هذا شخصًا صديقًا يسهل التودد إليه والثقة به.

جلس بن معهما عند المائدة محاولا أن يفهم مايقولانه - حكايات طفولتيهما، تقلب حياتيهما، هربهما من المستوطنة. وحين لا يفهم ، كان بن يستخدم عينيه. أدرك أن هذا الرجل لا يريد به شرًا، ولأن تيريزا ارتاحت له كثيرًا فكذلك فعل بن. ولكن فى نهاية كل ذلك الحديث قالت تيريزا " بن، يريدونك أن تذهب معى لإجراء بعض الاختبارات. ولكنى سوف أجريها أيضًا - أولا أنا ثم أنت. سوف ترى أنى لا أتأذى، ومن ثم لن تخاف".

قال بن " لا أريد"

أثناء ثرثرة الحنين إلى الماضى، كان ألفريدو يراقب بن والآن قال له "إنهم يريدون أن يعرفوا المزيد عن قومك"

"ليس لى قوم. أنا لا أشبه عائلتى - فى البيت. كلهم مختلفون عنى. لم أر أبدًا شخصًا مثلى"

قال ألفريدو "أنا رأيت أشخاصًا مثلك"

كان رد فعل بن من القوة بحيث أطار عن لسان ألفريدو ماكان ينوى أن يقوله تاليًا. انحنى بن إلى الأمام، والامتنان يملأ عينيه، والدموع تنحدر إلى لحيته، وكان يضم قبضتيه القويتين معًا: كأن نار الفرح أضاءت داخله.

"مثلى؟ ناس مثلى؟"

"نعم" قال ألفريدو وكان يعلم أن عليه أن يستمر فى الكلام ولكنه لم يرغب فى تدمير تلك البهجة الطاغية أمامه. كان بن يطلق الآن أصواتًا مختنقة قصيرة ولكن تلك الدموع لم تهطل مدرارًا بسبب قلب مثقل بالحزن وإنما مترع بفرح أكبر مما يطاق، نهض وبدأ يدبك راقصًا حول الغرفة، مطلقًا زئيرًا نابحًا قصيرًا، أدرك منه الشاهدان أنه يعنى انزياح الألم الذى اكتنف حياته كلها.

فى هذه الأثناء كانت تيريزا تلقى نظرات متسائلة على ألفريدو: كانت تعلم أن لديه المزيد ليقوله ولكنها تعلم أيضًا أنه مثلها كان مفحمًا بما يراه.

بن كان يترنم " ناس مثلى. مثلى . ناس مثل بن." وقطع رقصته ليسأل "مثلى تمامًا؟"

"نعم مثلك تمامًا".

"هل تأخذنى إليهم؟"

كانت هذه هى اللحظة التى يجب على ألفريدو أن يقرّ بالحقيقة التى ستضع حدًا لهذا الفرح. لكنه لم يستطع. أما تيريزا فقد أدركت أنها لم تكن تعلم عبء الحزن الأليم الذى كان يضغط على قلب بن، رغم أنها كانت تعلم بتعاسته وكان القلق يأكلها عليه. هذا الجذل وهذه الجذوة، كانا رد فعل لشىء لم تكن تستطيع تخيله. هذا لأنها لم تختبر يومًا شيئًا مثله، لقد عرفت البؤس وعرفت الخوف، ولكن ما الذى كان يشعر به كل هذا الوقت؟

استمرت رقصة بن صاخبة حتى خشيت تيريزا أن يستاء الساكنون تحت: ولكن ربما كانوا فى الخارج. ثم عاد بن إلى المائدة وجلس وسأل ألفريدو "هل تأخذنى غدًا؟"

قال ألفريدو" الطريق طويل ، فى الجبال. طريق طويل"

وقالت تيريزا "ولكن أولا علينا أن نذهب للاختبارات أنا وأنت"

قال بن "ليس علينا أن نفعل ذلك"

قالت تيريزا "يجب"

قال الفريدو "يجب"

وبما أن بن قد فهم أن لقاء قومه أخيرًا كان مرتبطًا بموافقته على إجراء الاختبارات التى أدرك الآن ضرورة إجرائها قبل أن يأخذه ألفريدو إلى الجبال ، فقد وافق على الذهاب فى اليوم التالى مع ألفريدو وتيريزا : ألفريدو سوف يأتى لاصطحابهما.

لم ينم، وظلت تيريزا على سريرها، تبكى أحيانًا وتشعر بالتعاسة حينًا وتفكر أيضًا فى ألفريدو وقد أيقنت أنه رجلها المنتظر. لقد أعجبته. لو لم تكن قضية بن قائمة بينهما ، لكانت قضت الليلة تحلم بألفريدو. ولكن تلك الاختبارات ؟ كانت خائفة. كل ماكانت تعرفه أنهم سوف يأخذون دمًا. ولم يعجبها هذا، ولكنها تعلم أن هذا يجرى طوال الوقت. سيكون هناك حقن وهى تخاف منها. لقد تجاوزها الطب الحديث. فلم تكن تذهب إلى الطبيب إلا للكشف عن أمراض تناسلية وكانت تلك محنة لا تريد أن تكررها مرة أخرى. ومع ذلك كانت إنيز تتكلم عن الاختبارات والحقن دون أن يخطر ببالها بأن بعض الناس يخافون منها.

وكانت تفكر أيضًا فى بن الذى ظل مستيقظًا، تمنعه السعادة الغامرة من النوم.

قبل أن يغادر ألفريدو، تدبرت أن تسأله هامسة، حين كان بن خارج مرمى السمع "هل رأيت حقًا أناسًا مثل بن ؟"

قال ألفريدو "رسوم. وجدتها فى الجبال حين كنت أعمل فى المناجم. رسوم على الصخور ـ رسمها القدماء. تعرفين، مثل تلك الصور على الصخر فى مدينتنا. ولكن أقل مما هناك، وليست مشققة وممسوحة."

أدركت الآن لماذا لم يستطع ألفريدو إبلاغ بن بالحقيقة. كان عليها أن تخبره بنفسها ـ لكنها لم

تستطع. كانت تلك السعادة تملأ الغرف حبورًا، ويمكنها أن تشعر بها تحيطها. كان يمكنها أن تسمع دمدمة بن وآهاته وزمجراته الخفيفة حين نهضت متجهة إلى المطبخ لتشرب ماء. كانت سعادته بالغة إلى درجة أنها تفلت منه بشكل أصوات تدفعها إلى الابتسام، رغم قلقها مما سوف يأتى به الغد.

فى صباح اليوم التالى، ساعدت بن على ارتداء ملابسه وتمشيط شعره ، وجلس مستعدًا إلى المائدة يتطلع إلى الباب فى انتظار ألفريدو. أولا، ستكون هناك رحلة بالسيارة ولكنه مستعد لها.

سارت السيارة على طول الكورنيش، وكان بن يدارى عينيه من وهج الموج ، ثم خرجت من المدينة وعبر الحقول حيث كانت الأبقار ترعى وسط حشائش طويلة، باتجاه التلال التى تلوح فى الأفق. جلس بن متشبثًا بحافة النافذة التى كان زجاجها مفتوحًا لإدخال الهواء ولكن حتى مع هذا شعر بالغثيان وقد أوقف ألفريدو السيارة حتى يستطيع بن أن يخرج. وكذلك فعلت تيريزا. تقيأ بن ثم وقف على حافة الشارع يحدق فى التلال: كان يفكر فى الهروب ولكنه تذكر أن ألفريدو قد وعده .. وعاد إلى السيارة التى سرعان ما صعدت طريقًا ملتويًا إلى أعلى تل. أمسك بيد تيريزا، مذعورًا ولكنها قالت "انظر انظر يابن" وفتح عينيه ليطلق صرخة خوف، لأن فوقهم كان ثلاثة رجال يطوفون هابطين تحت أشياء ملونة كبيرة مثل أجنحة مريعة. ولم يكن بن قد رأى أى شىء مثل

ذلك وقال "ماهذا ؟ ماذا يفعلون ؟" وقال ألفريدو إن كل شىء على مايرام. هذه باراشوتات. "تعرف يا بن إنها مثل مظلات تهبط بهم ببطء" خرج الثلاثة من السيارة ووقفوا ينظرون إلى الأعلى وأعلى، ورجال السماء تطوح بهم الريح باتجاه مهبط فى مكان ما على الطريق الملتوى بعيدًا عن مرمى النظر. كان فم بن مفتوحا دهشة وهو يحدق.

"هل نستطيع أن نفعل مثلهم ؟"

قال ألفريدو " نعم نستطيع" وهو يدرك جيدًا كيف أن تيريزا أيضًا وليس بن فحسب، يشعران بالإحباط من العالم الغنى الذكى، الذى يقفز فيه الناس فى الهواء تحت مظلات شاعرين بالأمان، لأن حياتهم كانت دائمًا آمنة. "نستطيع نحن أيضًا لو كان لدينا مال" .

قال بن "مال؟ أين مالى؟"

قالت تيريزا"إنه فى خزانة فى الشقة.". لم يكن قد تبقى الكثير، ولكن تيريزا كانت على يقين من أن أليكس ـ مهما فعل من مساوئ ـ سيعوض ما أنفقته.

سأله ألفريدو "هل تحب أن تفعل ذلك؟ " كان يشعر بالفضول لمعرفة كيف ينظر بن لرجال السماء هؤلاء الذين اختفوا خلف التلال.

ظل بن صامتًا، محدقًا، ولم يعرفا بماذا كان يفكر.

عادوا إلى السيارة التى انطلقت صاعدة عبر التلال. فكرت تيريزا: كم هى رائعة! وشعرت بالامتنان لرؤيتها، ولكن بن كان يجلس مغمض العينين. وكان عليهما أن يوقفا السيارة مرة أخرى حتى يستطيع أن يتقيأ.

حين بلغوا ما سمعوا أنه: المعهد"، متخيلين مبنى، ولكن ما رأياه كان مثل مدينة، الكثير من المبانى المنخفضة متناثرة فى الأرجاء، وبينها تنهض مبان شامخة، كان أحدها يعلن عن نفسها بحروف كبيرة سوداء على أنه "مستشفى". ولكن فى كل أنحاء العالم هناك شبكات من المستشفيات والصيدليات والمختبرات ومعاهد الأبحاث ومحطات المراقبة، حيث تختلط مهماتها وتتداخل. وكان بن وتيريزا مازالا يبحثان عن "المعهد" حين توقفت السيارة خارج مبنى لا يختلف عن الكثير من غيره هنا. فتح ألفريدو أبواب السيارة لهما. كان يبدو عليه الضيق والحذر. ذلك لأنه كان قد أُمر ألا يقترب فى أى حال من الأحوال من مجمع مبان معينة، وألا يبوح لتيريزا وبن بأى شىء عنها. كان كل من يعمل هنا يشعر بالعار مما يجرى فيها، إن لم يكن بالخجل، ثم يتلبس وضعًا دفاعيًا، حتى لو كان عمله فى مجال مختلف تمامًا. ولكن ألفريدو الذى بدأ يشعر تجاه بن بأكثر من الاهتمام - وكل من يراه يحس بذلك - شعر بالأسى نحوه وبالذنب أيضًا، لأنه حين ذكر رسوم الصخور تلك قائلا لـ "بن" أنه رأى أناسًا مثله، لم يكن يفكر جيدًا، وما أنجزه

حتى الآن كان شيئًا بلغ من السوء حد أنه لم يبدأ بعد بتقييمه.. فى مرحلة ما، يجب أن تقال الحقيقة أمام بن، والإحباط لن يكون الإحساس الوحيد الذى سيشعر به حينذاك. فى هذه الأثناء، كان ينتابه قلق حاضر: ماذا يخطط هؤلاء الناس ـ ولم يكن يحب رؤساءه ـ لـ"بن"؟ إن تحذيرهم له ألا يخبر بن شيئًا عن "المكان السيئ" أو "الأقفاص" كما يسميها معظم الناس، يعنى إضمارهم شرًا له. لم يكن ألفريدو يحب فى هذا المسألة إلا تيريزا وحين أخبرها، بأن هذه الاختبارات لن تكون ضارة، أعقب ذلك بابتسامة لطمأنتها ولكنها أفصحت لها بأكثر من ذلك. اقتيد بن وتيريزا إلى غرفة فسيحة فيها كل أنواع الأجهزة، وذهب ألفريدو لإيداع السيارة فى الموقف، وكان يأمل أن يعود ليكون قرب تيريزا ولكن مهمات أخرى أنيطت به.

فى الغرفة كانت ثمة امرأتان ترتديان وزرة بيضاء. إحداهما كانت إنيز التى كان عليها أن تقترض وزرة. فقد كان وجودها ضروريًا لطمأنة بن. كان خائفًا، وكذلك تيريزا ولكنها لم تكن تظهر ذلك.

كانت التعليمات قد أعطيت للمساعدة بعناية. سألت بن أن "يساعد" تيريزا بالجلوس قربها وإمساك يدها وهى تجلس على حافة منضدة منخفضة، وترفع ذراعها حيث وضع أنبوب مطاطى عليها ثم نفخ، وسجل ضغط دمها. ثم كان دور بن. كان يكشر وهو ما طمأن المساعدة التى لم تكن تعرف معنى تكشيرته،

أثناء فحص ضغط دمه. وقد كره الإنبوب المطاطى وهو يضيق حول ذراعه . ثم قيل لتيريزا إن عليها إعطاء عينة من الدم من ذراعها. أغلقت عينيها وأشاحت بوجهها فيما كانت الحقنة تمتلئ بدم داكن، والآن دور بن ، هل يوافق؟

قالت تيريزا "هيا يابن. عليك أن تفعلها أيضًا، مثلى"

سمح بن للحقنة أن تنغرز فيه وراقبها وهى تمتلئ بالدم. لم يكن هذا المشهد جديدًا عليه فقد خاض اختبارات سابقة حين كان طفلا. فى الواقع كان أكثر اعتيادًا عليها، من تيريزا التى لم تتضمن طفولتها بالتأكيد رعاية طبية مكلفة. حتى الآن كل شىء يسير على مايرام. والآن اختبارات العيون. جاءت امرأة أخرى من مكان ما لتقوم بذلك. وكان بن قد خضع لفحص عند طبيب العيون فى نيس ، وهكذا لم يعارض .

الأذنان.. طلبت إنيز من تيريزا أن تسأل بن إذا كان قد أجرى سابقًا فحصًا للأذنين وقالت تيريزا "لماذا لا تسألينه بنفسك.؟" كان صوتها هامسًا ومريرًا، وقد وجدت نفسها لا تستطيع أن تنظر إلى إنيز التى كانت تشعر بالذنب وتتخذ وضعية الدفاع.

سألت إنيز "هل أجريت فحوصات على السمع من قبل يا بن ؟"

كان بن يعلم أن سمعه أحدّ من أى شخص آخر لكن كل ما قاله كان "نعم"

واحتمل الأجهزة التى وخزت أذنيه والنور الذى سلط عليهما .

والآن البول: كانت إنيز تتوقع منه أن يبول أمامهم جميعًا، مثل الحيوانات، هذا ما خطر على بال تيريزا، لكن بن أخذ الوعاء وتطلع حوله باحثا عن خلوة. أمرت إنيز بإحضار "حاجز" وخيل لتيريزا أن صوتها كان حادًا وهازئًا. وخلف الحاجز بال بن وعاد بالوعاء مليئًا.

جُمعت خصلة من شعره، وقلامة من أظافره، وكشاطة من جلده.

كل هذا احتمله بن صامتًا صلبًا، مكشرًا. الآن يريدون وضع طوق حديدى حول رأسه لقياس أنشطة المخ، ولكن بن، حين رأى الجهاز، تراجع إلى الباب، يريد الفرار، ولم يقنعه صياح تيريزا المشجع (التى حثتها عليه إنيز) بأنها سوف تقوم بذلك أيضًا.

قالت إنيز" حسنًا، دعونا نقوم بفحص أشعة إكس".

سمحت تيريزا لهم بتصويرها بأشعة إكس لأول مرة فى حياتها. كانت عملية مطولة. الساقان والذراعان والقدمان والحوض والعمود الفقرى والكتفان والرقبة. لم يقترحوا الرأس لئلا يذعر بن. وقف مراقبًا وحين ظهّرت الصور ورفعت ليراها مع تيريزا، بدا عليه الاهتمام وهو ينظر إلى عظام تيريزا.

سألته إنيز " هل سبق أن أخذت أشعة إكس؟"

قال بن "نعم ، مرة كسرت ساقًا"

أطلقت إنيز تنهيدة نافدة الصبر وكأنها توبخه لعدم إفصاحه بذلك سابقًا، لكان جنبهم الكثير من الجهد، ولكن كل ماقالته كان"إذنًا لن تعارض فى الفحص بالأشعة ، أليس كذلك ؟"

خضع للأشعة بصبر. وكانت تيريزا إلى جانبه وإنيز فى قمة حذرها.

كان الوقت قد صار عصرًا . قال بن "أنا جائع"

لم يرغبوا فى إثارة التعليقات بأخذه إلى الكانتين. وهكذا أحضرت الساندويتشات. تيريزا كانت جائعة. وبن لم يحب فى حياته تناول الخبز فانتزع اللحم منه وأكله. طلبت تيريزا فاكهة وحين جىء بها انهال عليها بشهية .

ثم قالت إنيز بأنه ينبغى أن يخضع الآن لربط الأسلاك فى رأسه لفحص الدماغ.

قال "كلا" ثم صرخ "كلا كلا كلا"

كانوا قد خططوا لفحص تكوين وحركة جهازه الهضمى ، ودورته الدموية وتنفسه: والكثير جدًا من الفحوصات ولكن الأولوية القصوى كانت لفحص دماغه ، وصرخ بن "كلا" وبدأ يضرب بقدميه على الأرض.

ذهبت إنيز خارجًا لاستخدام الهاتف، وكان جسدها النحيف الضئيل فى الوزرة البيضاء يظهر إصرارًا فهمته تيريزا.

قال بن "أريد أن أذهب إلى البيت" وفى ذهنه الشقة فى ريو.

عادت إنيز مبتسمة ابتسامة عريضة مزيفة دون أن تنظر إلى تيريزا التى أدركت أن هناك شيئًا يدبر فى الخفاء، وأعلنت أن ألفريدو سوف يأخذهما معا إلى البيت.

أدى الطريق الهابط الملتوى عبر التلال، الذى انحدرت فيه السيارة، إلى إصابة بن بالغثيان وكان عليهم التوقف مرتين . أخيرًا كانت السيارة تسير على الكورنيش وصولاً إلى الشقة. دخل ألفريدو فقط ليقول إنهم ينتظرون بن غدا لمزيد من الفحوص وكان يعرف أن بن سوف يرفض وهذا ما فعله.

وقف ألفريدو وتيريزا وجهًا لوجه ينظران إلى بعضهما البعض. كانت عيونهما تفصح عن الكثير، تقول إنهما سيحميان بن وإنهما غاضبان لما يحصل: وأنهما يحبان بعضهما الآخر كثيرًا. ولو لم يكن بن موجودًا هناك فى تلك اللحظة محنيا على المائدة يضربها بقبضتيه مرة بعد أخرى، لربما ارتمى أحدهما بين ذراعى الآخر أو على الأقل، لربما نطقا ببضع كلمات. وقد أدى هذا التفاهم القوى بينهما كما لو إنهما يعرفان بعضهما البعض منذ زمن طويل، إلى الزواج بعد أشهر فى المستقبل. ولهذا فإن قصتهما على الأقل انتهت نهاية سعيدة: تمت الأمور بخير فيما يتعلق بهما.

غادر ألفريدو، وجلست تيريزا وبن إلى المائدة ثم طبخت له الكثير من اللحم؛ لأنه كان جائعًا.

لم تستطع النوم ليلتها بسبب قلقها الشديد من أن أمرًا يدبر فى الخفاء. وكانت تستطيع سماع بن وهو يتحرك فى غرفته، ولكنه على الأقل لم يكن يضرب رأسه فى الحائط.

فى الصباح التالى رن جرس الهاتف: لويس ماكادو كان قادمًا لمناقشة موضوع بن. أخبرت تيريزا بن بذلك والآن يمكنها سماع وقع ارتطام رأسه بالحائط. جلست إلى المائدة ساكنة، بعض الوقت، وكان تنفسها خفيفًا، هلعًا. ثم بدأت تسوى شعرها الأسود الطويل كما لو كان رمزًا للحياة نفسها التى تريد أن ترتبها، وهكذا انتظرت، تقول لنفسها إن عليها ان تكون قوية وأن تدافع عن بن وعن نفسها. فقد شعرت أن مجرد التفكير بهؤلاء الناس الأقوياء يملؤها بالرغبة فى الإغماء أو الفرار. يراد منها الآن أن تجابه ماكانت تشعر، طوال حياتها، تجاهه بالرهبة والتوقير: عالم المتعلمين المثقفين الأذكياء . من يريد منها ذلك ؟ هى ذاتها وألفريدو وبن المسكين.

لم يكن لويس ماكادو وحده ، بصحبته كان ستيفن، أمريكى آخر، بروفيسور ستيفن فلان الفلانى - لم تستطع ان تلقط الاسم: جوملاك أو جونلاك - وكان هذا رجلاً نحيفًا طويلاً ، وله وجه بارز العظام وفم كبير تدفعه إلى الأمام أسنانه. عيناه غائرتان فى تجويف عظمى، تبدو مقلتاه حين يطرفهما وكأنهما سوف يقفزان عليها. كان قادمًا من معهد مشهور فى

الولايات المتحدة، وقد أدركت شهرته لأنه قدم الاسم لها بطريقة من يتوقع منها معرفته، وقد فهمت أنها وضعت فى تصنيف الجهلة حين لم يبد عليها أى رد فعل متوقع .

دخل بن إلى الغرفة وفهمت أن الرجلين يتوقعان منها أن تصرفه حتى يستطيعا مناقشة قضيته معها ثم إلقاء بعض الأوامر عليها. وجهت الكلام إلى بن بصوت عال؛ لأنها كانت تخشى أن يهتز صوتها "هذا هو لويس ماكادو ـ التقيت به سابقًا يابن، وهذا هو البروفيسور ستيفن .. جملاك"

قال "جوملاك" وهو يبدى الانزعاج.

كررت تيريزا بعناية "بروفيسور جوملاك. لقد جاء من أمريكا مثل أليكس" ثم قالت لهما "أليكس هو الذى أحضر بن إلى هنا لعمل فيلم معه" وقالت لـ"بن" "اجلس يابن . لابأس"

أُحبط الرجلان ، هذا ما استطاعت رؤيته. لقد انتصرت عليهما، ولن تسمح بصرف بن كما كان يحدث معها سابقًا ، مثل خادم.

صمت وجيز. ثم مال البروفيسور ستيفن جوملاك إلى الأمام وقال "هذا مهم جدًا. مهم جدًا بالتأكيد" نطقت شفتاه بالكلمات، مشكّلا كل كلمة وهى تلفظ، مدحرجًا إياها نحوها مثل بلية باردة. كانت عيناه جامدتين، مهووستين، ممسوستين. لم تكره فى حياتها أحدًا كما كرهت هذا الرجل "يجب أن تفهمى هذا ياتيريزا .."

قاطعته "اسمى تيريزا ألفيس"

فاجأه ذلك فجلس يرمش عينيه، ثم استعاد رباطة جأشه واستمر "آنسة ألفيس، ربما يكون هذا أهم اكتشاف فى حياتى برمتها. يجب عليك أن تفهمى. هذه فرصة فريدة. هذا .. بن، فريد من نوعه"

"بن لوفات.. اسمه بن لوفات"

أسكته هذا فعلاً. كان فمه البارز يزوم فى اتجاهها بانزعاج. ونظر طلبًا للعون من لويس ماكادو الذى كان يستمع ، نائيًا، هادئًا ، مهذبًا.

كان بن يستمع مكشرًا، تزوغ عيناه فيما حوله وكأن زوايا الغرفة سوف تفتح طريقًا للنجاة - إلى الغابة التى يعرف وحده عطفاتها ودروبها المفضية إلى بر الأمان. وكان يفكر: لكن هناك أناسًا مثلى. هذا ماقاله ألفريدو. كان يود أن يقول ذلك بصوت عالٍ لو لم يكن بهذا الخوف.

قالت تيريزا بهدوء" إذا وافق بن، فلا بأس، إذا لم يوافق ، لايمكنكم أن تجبروه"

فتح البروفيسور ستيفن فمه ليعترض، وهو يميل إلى الأمام بقوة رافعًا يده ولكن لويس ابتسم موافقًا وقال إنها ليست مسألة فرض. قال تلك الجملة لها بالبرتغالية، ولكن باللغة الإنجليزية قال لزميله "يجب أن يفهم بن الوضع" ثم بالبرتغالية لتيريزا "إنك لا تفهمين أهمية المسألة. هذا مجال بحث البروفيسور

جوملاك. وهو خبير عالمى. هذا قضية تهم العالم كله"

أجابته بالبرتغالية "إنك تكرر هذا" ثم قالت بالإنجليزية بصوت عال" ولكنى مسئولة عن بن. أليكس بايل ترك بن لوفات فى عهدتى"

لابد أن لويس سمع عن أليكس من إنيز، هذا مافكرت به: وكانت تخشى جدًا أن يكون قد سمع الآن بنيّة أليكس عدم استخدام بن. فإن يكون بن على قائمة رواتب شركة أفلام ، حتى لو كان عاطلا، غير أن يكون مقطوعًا من شجرة لا يعرف أين يذهب.

قالت بصوت عال" بن هو الذى يقرر بنفسه"

نظر الرجلان إلى أحدهما الآخر، وأدركت من تلك النظرة أنهما يتفاهمان على قرار صامت.

وفجأة هبط عليها الوحى فقالت "بن لديه جواز سفر"

دهشت من نفسها لأنها لم تفكر بذلك من قبل. فوجئ الرجلان بهذا الإعلان ، فهما بالتأكيد لم يتوقعاه.

أضافت "إنه شخص بريطانى" لم تكن تعرف كلمة "مواطن" "لايمكنكما أن تجبراه على فعل شىء"

صمت قصير. كان سببه عدم تأثر القرار الصامت الذى اتفق عليه الرجلان بسماع الوضع القانونى لـ "بن". نهض لويس وكذلك فعل الأمريكى

للانصراف، وألقيا التحية رسميًا: "دونما تيريزا" من لويس و"الآنسة الفيس" من البروفيسور جوملاك، بدون أن ينظرا باتجاه بن.

فيما بعد اتصل ألفريدو ليقول إن الأخبار سيئة. لقد صدرت الأوامر إليه ليذهب إلى ريو ويتحدث مع بن وإذا رفض العودة معه إلى المعهد ، يجب عليه استخدام القوة إذا لزم الأمر.

قالت تيريزا "لا يستطيعون فعل ذلك . كيف يمكنهم أن يفعلوا ذلك ؟"

قال ألفريدو "رفضت . قلت لهم كلا . والآن أنا بلا عمل"

قالت "إذًا تعال هنا إذا لم يكن لديك مكان تذهب إليه" كانت تحاول أن تعرف إذا كان ألفريدو متزوجًا أو لديه امرأة، أو مكان خاص به. قال الفريدو "من حسن حظى أنى لا أعيش فى مساكن المعهد. أعيش مع صديق فى بيته." مجيبا على مايعرف أنها ترغب فى معرفته . "ولكنى سوف آتى لزيارتك غدًا يا تيريزا"

حين وصل فى اليوم التالى كان باب الشقة مفتوحًا ومكسورًا ولم يجد تيريزا أو بن.

ماحدث كان كالآتى: حين أنهت هى وبن تناول طعام الإفطار، وكان كلاهما عصبيًا ومتوجسًا حدوث شىء ما لايعرف كنهه، قالت تيريزا إنها سوف تذهب للتبضع وطلبت من بن أن يبقى فى الداخل ولا يجيب على جرس الباب مالم يكن ألفريدو. أجلس بن نفسه

مطيعًا إلى المائدة وحين زعق جرس الباب "هل أنت ألفريدو؟" ولكن حين تزايدت الضربات على الباب ضجيجًا، صمت بن ، مدركًا أنه ماكان له أن يقول شيئًا. ثم اقتلع الباب واندفع رجلان، أمسكاه من ذراعيه وأوثقا فمه وهو يناضل، واقتاداه جريًا إلى المصعد ثم خارج المصعد إلى سيارة . أغلقا نوافذها وقيدا معصميه وركبتيه وكاحليه وتركاه يتخبط فى المقعد الخلفى للسيارة التى أسرعت إلى داخل التلال.

ثم اضطرا إلى التوقف مرة لأنه تقيأ وكاد الوثاق على فمه يخنقه بالقىء. أزاحا الوثاق وصبا بعض النبيذ الرخيص - لأنه السائل الوحيد الذى كان متوفرًا فى السيارة - لتنظيف فمه، ثم وضعا نفس الرباط على فمه، وفى المعهد، قادا السيارة فورًا ليس إلى المكان الذى أُخذ إليه فى اليوم السابق ولكن إلى "المكان الآخر" الذى أُمر حينها ألفريدو ألا يقترب منه. ليس من الصعب استئجار أشخاص لهذا النوع من العمل فى أى مكان فى العالم، وبالتأكيد فى ريو لم يكن الأمر أصعب منه من الأماكن الأخرى.

حين عادت تيريزا من جولة تسوقها، وجدت الباب مفتوحًا ومهشمًا ولا أثر لـ"بن". اعتصرت المفاجأة حجابها الحاجز ولم تعد قادرة على التنفس. انهارت على كرسى إلى المائدة. ذراعاها ممدودتان ورأسها على إحدى ذراعيها. كان أول ماخطر لها هو أن ألفريدو قادم وسوف يساعدها. ولم تكن تعرف أنه جاء بالفعل وكان فى تلك اللحظات، يقود السيارة

مسرعًا إلى المعهد ليكتشف ماذا حدث. ثم فكرت: ربما سوف يأتى أليكس. ولكنه كان قد هاتفها منذ يومين ليقول إنه فى طريقه إلى رحلة أخرى ليزور قبيلة "هنودى" كما كان يسميهم.

لم يخطر فى بالها أن تكلم السفارة البريطانية للإبلاغ عن اختطاف مواطن بريطانى. لم تكن تعرف أن رعايا الدول لهم حقوق، لا تعرف إلا أن جواز السفر يمثل هوية يحترمها المسئولون. وكانت قد تصفحت مرارًا جواز سفر أليكس بالتأشيرات الكثيرة عليه وهى تفكر: يومًا ما سأمتلك واحدًا مثل هذا. سوف أسافر إلى هذه البلدان أيضًا..

لبرهة من الوقت لم تكن قادرة على التفكير بوضوح، ثم فطنت إلى أن ألفريدو لم يأت، ربما سوف يهاتفها ليخبرها بالسبب. لم تستطع الصبر على الانتظار بهدوء ، تتحرك مضطربة حول الغرفة حتى أعماها قلقها من أن ترى مقعدًا اصطدمت به. فتحت النافذة على مصراعيها ليدخل الهواء الثقيل الدافئ. وببطء تقدمت إنيز، لتملأ أفكارها. نعم إنيز: طلبتها على التليفون وحين سمعت صوتها قالت لها "اسمعى، أنا تيريزا ..." ثم قالت بصوت سريع حاسم " لاتتركى التليفون يا إنيز. لا تفعلى ذلك" سمعت صوت تنفس إنيز وأدركت أنها كانت خائفة، فهتفت بها " أين بن؟ لقد أخذوه. إذًا أين هو ؟"

سمعت "لا أعرف" واهنة ، فقالت بصوت بارد أدهشها "بل تعرفين، تعرفى . هل هو حيث كنا سابقًا؟

قالت إنيز "كلا" ران صمت، كانت كل منهما تسمع أثناءه تردد أنفاس الأخرى. ثم قالت تيريزا "سوف أقتلك. إذا لم تساعدينى، سوف أقتلك" فهمت الآن إنيز ما الشىء الذى جذبها فى تيريزا، ممثلة الحياة المضنية الوحشية للفقراء. اندفعت الإثارة التى بعثها الخوف الذى شعرت به لدى سماعها هذه الكلمات، عبر جسدها حتى أحرقت عينيها. ارتجفت وهى تستمع إلى تيريزا "كنت صديقتى. كنت صديقتى يا إنيز. لماذا فعلت هذا ؟"

"لم أعرف" تدبرت إنيز أن تنطق هذه الكلمات " لم أعرف أنهم يخططون لهذا "

"ولكنك تعرفين الآن يا إنيز ,تعرفين أين هو الآن"

كانت إنيز تعرف لأنها شاهدت السيارة وفيها بن تمر بها. كل من فى المعهد عرف ذلك. تجمع الناس على الشبابيك وسمعوا زمجرات مخنوقة وعويل من السيارة والبعض ادعى أنه رأى بن يتلوى محاولا فك وثاقه، وكانت إنيز - مثل الآخرين - تعرف أين يأخذون بن وانتابها شعور بالغثيان. لم تكن وحدها فى ذلك. أصابت الصدمة مساعدة المختبر التى فحصت بن سابقًا. وماقالته للآخرين قد انتشر وذاع فى المعهد. إنسان الغاب هذا، هذا المسخ، كان صنفًا مهذبًا من المخلوقات، يشبه البشر تقريبًا: يجب ألا يعامل بهذه الطريقة. ماحدث هو أن الانزعاج والخجل اللذين يستشعرها معظم العاملين فى المعهد نحو ما يجرى فى المبانى "الأخرى" اخذ يتبلور الآن حول بن الذى - كما عرف الجميع الآن - قد اختطف.

في هذه الأثناء كانت إنيز تستمع إلى تيريزا تقول لها"عليك أن تأتى الى وتأخذينى إلى حيث بن. يجب أن أجده"

قالت إنيز" لا أستطيع. لا أستطيع أن أترك عملى وأخرج " ولكنها كانت تعرف ما سوف تسمع تاليا. "إنيز ، إنى أعنى ما أقوله لك. سوف أقتلك . سأعرف انك إنسانة شريرة." وأخذت تيريزا تأمرها أن تأتى إلى ريو وتأخذها على أن يكون ذلك الآن "بن لديه جواز سفر. لا يمكنهم أن يفعلوا ذلك به. قولى لهم ذلك "

كانت إنيز أثناء هذه المحادثة فى المختبر. وكانت مساعدة اليوم السابق تستمع وقد قالت غاضبة تخاطب إنيز " لماذا يفعلون ذلك ؟ إنه ليس حيوانًا"

خرجت إنيز إلى سيارتها، بدون أن يلاحظ، كما اعتقدت، المسئول الأعلى لويس، وقادت السيارة إلى ريو، وهى تفكر أنها قد تفقد وظيفتها، وإن لم تكن تعتقد ذلك حقًا. ماكان يحدث، لم يكن قانونيًا. كانت على يقين من أن الخطة هى أبعاد هذا الـ"بن" ـ لم تكن تنظر إليه بعطف، بل لم تكن تعتبره إنسانًا ـ عن المعهد فى مرحلة ما، وحينها سوف يختفى. الناس يختفون. لويس، كلا ليس هو، بل الأمريكى ـ كان يعتمد فى حساباته على شيء، وكان على صواب: فكل شخص فى المعهد يخشى من فقد وظيفته، هذه الوظيفة التى حصل عليها بشق الأنفس، وهكذا سوف يلتزمون الصمت. أما بالنسبة لها، هل هى جريمة أن

تتغيب عن مكتبها فى المعهد لساعتين؟. قادت السيارة بسرعة ووجدت تيريزا فى انتظارها. كانت قد أعدت حقيبة تحوى ملابس بن ونظارته السوداء. لم تكن تدرى ماسوف تفعله حين تجد بن. قبل أن تأتى إنيز، هاتفها الفريدو ليخبرها أنه علم من السائق الذى حل محله فى المعهد أنهم أخذوا بن إلى "المكان السيئ" . وطلب الفريدو منها أن تأتى إليه فى غرفة فى منزل فى قرية لا تبعد عن المعهد كثيرًا. وسوف يقرران كيف ينقذان بن معًا.

كان صعود التلال فى سيارة إنيز رحلة صامتة. راقبت تيريزا جانب وجه إنيز ، باردًا، صافيًا، عدائيًا، وآثمًا. كانت تخشى من فخ ما: هل خططت إنيز لاختطافها أيضًا؟ لمنعها من مساعدة بن؟ وفجأة وبدون ترتيب مسبق، وجهت تيريزا هذه الأسئلة لإنيز التى بدأت فى البكاء وقالت إن تيريزا ظالمة وقاسية، فليست هى التى خطفت بن، أليس كذلك ؟

حين وصلتا إلى حيث كان ألفريدو ينتظرهما، أوقفت إنيز السيارة وسمعت تيريزا تقول وهى تهبط "قولى لهم إنهم ارتكبوا خطأ كبيرًا. هذا خطأ. سيلقون العقاب على أيدى الشرطة. قولى لهم ذلك "

لم يكن فى نية إنيز أن تقول أى شىء ، بل كل ما كانت ترجوه هو أن تعود قبل أن يحس أحد بغيابها.

وقفت تيريزا فى أخاديد ترابية على جانب طريق، والشمس تسوطها بالحرارة، ورأت ألفريدو

يأتى من منزل صغير. وقد عكست ابتساماتهما المتبادلة أبعادًا تتجاوز قلقهما بشأن بن، وأحاطها بذراعه وهو يقودها إلى غرفته.

كان الوقت مابعد الظهيرة والساعة حوالى الثالثة. كان ألفريدو يعرف مكان بن وأخبر تيريزا بذلك. وأكد على التحرك حين يهبط الظلام. فى الليل لن يكون هناك أحد عند "الأقفاص" ، ولكن ربما يكون البعض هناك هذه الليلة ، بسبب بن. كان مخدرًا، كما أخبره السائق الآخر. لقد استمع إلى حديث لويس والأمريكى الآخر فى السيارة. كان لويس مقسم الفكر حول ما يحدث، فقد أثرت فيه كلمة "جواز سفر". أما ستيفن فقد كان عاقد العزم على الاحتفاظ بـ"بن". وقال أنطونيو، صديق ألفريدو"إنه مجنون ، ذلك الرجل" "إنه مثل كلب وجد عظمة. أمسك بها وسوف يحتفظ بها" وكان أنطونيو يعرف ظروف الأقفاص أكثر من ألفريدو. قال إنهما سيحتاجان قاطع أسلاك وأول شىء هو قطع أسلاك جهاز الإنذار، التى تمتد إلى المبنى الرئيسى حيث الحراس الليليون. وبعد ذلك، ماذا كان ألفريدو ينوى أن يفعله؟ أجابه ألفريدو. وهنا قال أنطونيو إنه يجب أن يُشرك فى أى مخطط لتهريب بن، لأنه عاجلا وآجلا سوف يفقد وظيفته حديثة العهد.

هذه الخطط هى التى تناقشها تيريزا مع ألفريدو الآن. إذا استطاعا إخراج بن من ريو، فإن اقتفاء أثره سوف يتوقف. وقال ألفريدو لتيريزا أن

عليهما إبلاغ السفارة البريطانية فى حالة استمرار المطاردة. استمعت تيريزا باهتمام كيف أنه فى بلاد أجنبية يمكن حماية المواطنين من الأذى المحلى. لم تتخيل يومًا درجة من الرعاية تبديها حكومة ما تجاه شخص عادى، مثل شخصها. ولكنهما كانا يواجهان مجنونًا، الأستاذ الأمريكى. لم تفاجأ تيريزا بوصف ألفريدو الأمريكى بالجنون ، فقد كانت هى نفسها تعتقد بذلك، كان يمكنها ان تتخيل بسهولة ذلك الفم الناتئ يرمى بالكلمات إليها فى حين تحملق عيناه الخضراوان دون إبصار، فقد كان جل اهتمام الرجل منصبًا على داخله، على هوسه.

سألت تيريزا ألفريدو" هل الأمر مهم ؟ هل من المهم أن نعرف ماهية بن؟"

"يقولون إنه قد يكون طفرة ـ إلى زمن غابر. زمان قديم جدًا، آلاف السنين. يمكن أن يستنتجوا منه كيف كان أولئك الناس القدماء"

استهوت الفكرة تيريزا ولكن فى جزء من ذاتها يختلف عن مركز اهتمامها العاطفى بـ "بن". كانت تعتقد أن شعورها نحوه كما لو كان طفلا ـ مخلوقًا عاجزًا، على أى حال من الأحوال. لم يكن يعنيها أولئك الناس القدماء. وإنما كانت تحب بن المسكين.

خلال تلك الأحاديث، فى الغرفة الساخنة العارية، وهما يشربان الكوكاكولا، ذكر أحدهما الآخر بمشكلة آنية، صادمة. تصديق بن أن ألفريدو يعرف قومه.

"علينا أن نخبره الحقيقة. "قالت تيريزا ذلك وهى تتذكر ابتهاج بن وكيف أن كيانه كله بدا رحبًا بالزهو والمسرة بمجرد التفكير بقومه. بل لقد شعرت وهى تتحدث بأنها تنفر من إخباره. أن تقول له إن كل ذلك كان وهمًا، وإنها مجرد رسوم على جدار صخرى. .. شىء قاس ورهيب . ولكن يجب أن يعلم.

"هل يمكن أن نأخذه ليرى رسوم الصخر؟ هذا أفضل من لاشىء ، ألا تظن ذلك ؟"

"حين كنت أعمل فى المناجم قرب خوخوى، ذهبت إلى الجبال. فى الأعالى ياتيريزا. أحب أن أنفرد هناك وحدى. فى الجبال. ولكن هذه كانت عالية عالية عالية، لاتشبه جبالنا فى الوطن. ولايصعدها الكثير من الناس. فى صباح أحد الأيام صحوت، وكان الوقت ليلاً والمكان مظلمًا حين غفوت، فرأيت أمامى مباشرة صورًا على الصخور. كانت الشمس تسطع عليها حين تشرق الشمس تستطيعين رؤية الرسوم جيدًا ولكن حين يكون وجه الصخور فى الظلال فلن تريها حتى لو مشيت إلى جانبها.. ولكن علينا أن نذهب إلى هناك"

كانت تيريزا تعرف كم لدى بن من نقود. وكانت قد ادخرت جزءًا منها، ولكنها لن تنفق شيئًا منها أكثر مما يلزم. وكان ألفريدو قد ادخر بعض المال. لديهما الآن أكثر مما يكفى لحجز ثلاث رحلات طيران رخيصة. قال ألفريدو " ليس ثمة مشكلة. سأطلب من صديقى أن يأتى ويأخذنا بسيارته. لدى أصدقاء. لقد

عملت فى المناجم ثلاث سنوات . وسوف أحصل على عمل مرة أخرى. سوف أبتعد عن ريو بعض الوقت. لقد فعلتها سابقًا. سوف أخبرك بكل شىء تيريزا"

كان كلاهما يفكران أنه لو بقى للعملِ فى المناجم وبقيت هى معه ، فإن كل ما بنته فى ريو سيذهب سدى. هل هناك مسارح ، فرق رقص، صانعو أفلام فى خوخوى؟ سألته. كان جواب ألفريدو " أكسب مالا جيدًا فى المناجم وهم يعرفوننى. يمكن أن أعمل هناك لمدة سنة ويمكنك انتظارى فى ريو".

كان هذا أول تفاهم بينهما يترجم إلى كلمات" يمكننا الزواج فى خوخوى، حتى نطمئن، وسوف تمضى السنة بسرعة" كانت تيريزا تفكر بالسنوات الثلاث التى قضتها فى ريو،حافلة بالأحداث والناس، وبدت السنوات لها طويلة جدًا. قال بسرعة وهو يرى ظلال الشك تطوف على وجهها"يمكننا أن نتكلم فى هذا لاحقًا"

أخذ الظلام ينتشر. وفوق التل ومن خلال الأشجار، كانا يريان أنوار المعهد. أمسك كل منهما بقاطع الأسلاك وسارا بهدوء كما لو أنهما فى سبيلهما لزيارة الحى السكنى فى المعهد، حيث يعيش معظم الموظفين، ولكنهما تجاوزاه إلى داخل الغابة التى تحيط المعهد. لم يكن ربيبًا البرية هذان يخشيان أى شىء فى الغابة. تسللا عبر ممشى، قادتهم إليه أقدامهما، مرورًا بالمبانى الرئيسية للمعهد، مخلفينها وراءهما، ثم أمامهما، على بعد عدة مئات من

الياردات، كانت الأضواء تسطع على مجموعة منفصلة من المبانى. منها كان ينبعث عواء وعويل وصرخات. كان هذا مكانا سيئًا: عرفته تيريزا وهمس ألفريدو "لا أحب مجيئنا هنا" .

أين كان بن؟ وقفا عند حافة الأشجار، ينظران إلى المبانى المتناثرة، فى حيرة .

ثم سمعت تيريزا الصوت.. صلصلة حديد وصوت ارتطام رتيب من بعيد، طاخ طاخ، ثم صلصلة مرة أخرى. قالت "إنه هناك ، إنه هناك" وأخذت تعدو عبر فضاء ترابى منبسط إلى المبنى، وأخذ الصوت يعلو كلما اقتربا.. صوت الارتطام الرتيب. كان الظلام قد هبط، وكانت الأنوار تضىء واجهة المبنى، تسللا إلى الخلف وشاهدا نوافذ مفتوحة. هبت رائحة نتنة. تسور ألفريدو حافة النافذة أولا تتبعه تيريزا. ضوء خافت من مصباح يتدلى من السقف. كان ثمة قرود صغيرة وكبيرة، محبوسة فى رفوف من الأقفاص بحيث يتساقط البراز من الأقفاص العلوية على الحيوانات فى الأسفل. مجموعة من الأرانب مقيدة الحركة من رقابها ومادة كيماوية تقطر فى عيونها. كلب هجين ضخم مشروط من الكتف حتى عظم الحوض وقد خيط الجرح خياطة رديئة مرة أخرى. كان ممددًا يئن على قش قذر، وظهره غارق بالبراز. (كان هذا الكلب قد شُرط قبل ستة أشهر وبين حين وآخر يفتح الجرح مرة أخرى لرؤية مصير أعضائه، خاضعًا لتجارب على

هذا الدواء أو ذاك، ثم يخاط ثانية مثل كيس خيش وكانت حواف الجرح ملتئمة جزئيًا عند القشرة ، ومن خلالها يمكن رؤية الأعضاء النابضة). من الأقفاص كانت القرود تمد أذرعها وعيونها البشرية تتوسل الغوث. لم تر تيريزا أيًا من هذا، فقد كانت تحملق فى بن راكعًا على أرضية قفصه ، يضرب رأسه فى القضبان. لم يكن مخدرًا : كان البروفيسور ستيفن يريده واعيًا . كان عاريًا، هذا المخلوق الذى اعتاد على ارتداء الثياب منذ ولادته. وفى زاوية من القفص كان كوم من البراز. قالت تيريزا لألفريدو "الإنذار" فبدأ يبحث عن الأسلاك ، وعند سماع صوتها، اعتدل بن وعوى، رافعًا وجهه إليها. همست له "اسكت يا بن. سوف نأخذك بعيدًا عن هنا" عيناه .. ماذا أصابهما؟ فى الضوء الشاحب، كانتا تبدوان مثل حفرتين عميقتين، ولكنهما مغلفتان بالرعب والشقاء "بن ، بن. لا ترفع صوتك. يجب أن تصمت" سكت ولكن تنفسه كان مثل الأنين. وجد ألفريدو سلك جهاز الإنذار وقطعه ثم تقيأ: الرائحة. تلك الرائحة. كان الجو خانقًا هنا. بدأ يقطع ثغرة كبيرة فى أسلاك قفص بن المهيأ لحيوان قوى. كان السلك سميكًا. انشغلت تيريزا فى النظر إلى قفص فيه قطة بيضاء ممددة ، قطة أم. وثمة أسلاك فى رأسها تخرج من جهاز مثبت فى القفص. وكان ثمة أربع قطيطات يرضعن منها: فى رأس كل منها أسلاك. نظرت القطة إلى تيريزا بنظرة ملؤها الاتهام مما جعلها تغطى عينيها. أصبحت هناك

الآن فتحة كبيرة فى قفص بن ، وهمست تيريزا "اصمت، اصمت . كن هادئًا، يابن"، ووضعت ذراعها حوله تحتضنه. كان قذرًا ، مرتعشًا.. مخلوقًا عاجزًا مقهورًا، قام فجأة بحركة أدهشتهما، قفز من بين ذراعيها إلى خارج النافذة وابتلعه الظلام. ظل يعدو متوغلا فى الغابة، وتيريزا وألفريدو يعدوان خلفه.

"قف يا بن! هناك ناس. لا تبتعد. تعال هنا" تحركت هى وألفريدو تحت الأشجار فى الظلام بحذر دون أن يسمعا أى صوت ولكنها كانت تعرف إنه قريب. "سوف أجلس هنا يابن. وألفريدو أيضًا. إنه صديق. تعال هنا إلى. وسوف نأخذك إلى منزل ألفريدو ثم سوف نسافر فورًا" صمت.. أصوات الغابة الصغيرة . وخلفهما فى المبنى الذى تركاه، عوت القرود، صوت رهيب من أعماق ذلك الجحيم الذى يتسع فى أنحاء العالم، فى كل مكان يصنع البشر حضارتنا.

"بن .. بن .. تعال إلى، بن"

أنبأتهما رائحته إنه يقترب. سمعا صوته" هل ستأخذاننى إلى الناس الذين مثلى؟"

قالت تيريزا وهى تشعر باليأس ليأسه "نعم . نعم . يا بن. سوف نفعل"

جاء إلى جانبهما ، جاثيًا وتعسًا .

"الآن تعال يابن، بهدوء، بهدوء . يابن . لا تحدث صوتًا يابن"

كانوا آمنين فى مخبئهم فى الغابة، ولكن ثمة مساحة مكشوفة، كان عليهم اجتيازها، مع احتمال أن ترصدهم العيون. ولكن لحسن الحظ، كان معظم الناس فى الداخل يتناولون وجبة العشاء. تصل إلى أسماعهم أصوات أجهزة التليفزيون والراديو والأحاديث. قال ألفريدو "اركضا" وقالت تيريزا" اركض بسرعة يابن".

ركض الثلاثة، عبر الظلام الذى تقطعه أنوار تتساقط من المنازل ، وصولا إلى غرفة ألفريدو.

هناك دفعت تيريزا بن إلى الحمام وغسلته. أجرت الماء حتى تجمع صافيًا حول قدميه، ثم أخرجته وجففته وألبسته ملابس نظيفة كانت قد جلبتها معها. قدم له ألفريدو عصير برتقال مع فاكهة ولكن بن كان عازفًا عن الأكل، يريد أن يطفئ ظمأه فقط. كانت عيناه على تيريزا تتوسلانها، مما ذكّرها بعيون تلك القرود، رغم أنها لم تنتبه للقرود فى حينها. سألت ألفريدو "لماذا يسمح لهم أن يفعلوا ذلك؟

كان صامتًا ومتجهمًا ـ وكما استطاعت أن ترى ـ يشعر بالخجل ، وهو يقول" إنه العلم".

لم يعد بن يرتجف، ولكنه لم يكن يستطيع النظر إليهما. جلس رابضًا على مقعده، قبضتاه متدليتان، ورأسه ناتئ الى الأمام، وفى عينيه مازال أثر ذعر أليم.

قالت تيريزا "سوف نأخذك إلى ريو. ثم نركب غدًا طائرة".

"إلى قومى؟".

"نعم" قالتها بعجز، دون أن تجرؤ على النظر إلى ألفريدو. ماذا سيفعلان ؟

عند منتصف الليل تقريبًا، حين غرقت مساكن عمال المعهد بالظلام، وسكن كل شيء، تسللوا خارجين، يستمعون إلى صوت نباح كلب. ووجدوا أنطونيو فى انتظارهم بسيارته. اتجه الأربعة بالسيارة إلى المدينة. كان قد مضى شطر كبير من الليل حين وصلوا الشقة. على الباب ألواح خشبية مسمرة، على الأكثر من قبل البواب. طلبوا من بن أن يذهب إلى الفراش ، ليحاول النوم وألاّ يخاف من شيء.

فى هذه الأثناء، تباحث ألفريدو وتيريزا وأنطونيو. كان الأخير قد عمل فى المناجم أيضًا. أخرج بطاقة الهوية الخاصة به ووضعها على المنضدة قائلا لألفريدو "هل بطاقتك على مايرام؟" أخرج ألفريدو بطاقته من جيب داخلى ووضعها إلى جانب بطاقة أنطونيو، واستطاعت تيريزا أن تفهم أنه كانت هناك بعض المشاكل فيما يتعلق بالبطاقتين ولكنهما الآن على مايرام. نظرا إليها، فأخرجت بطاقتها من حقيبة يدها، ووُضعت الوثائق الثلاثة على جانب بعضها على المنضدة. جال بخاطرها جواز سفر أليكس، وبالمقارنة، تراءى لها أن بطاقات الهوية، هذه الأوراق الثلاثة، أقل قيمة واعتبارًا. قالت لألفريدو "يومًا ما، سوف أحصل على جواز سفر حقيقى" ضحك أنطونيو متعجبًا ولكن ألفريدو الذى بدأ

يضحك، توقف وهو يرى الجد على وجهها. "أريد جواز سفر، مثل كتيب، مثلما يملكه الأجانب، مثل الأمريكان". هز ألفريدو رأسه موافقًا، وانتظرها أن تستمر. أشارت إلى بطاقتها بشيء من الاحتقار قائلة "إنها لا تكفى".

فكر ألفريدو قليلا ثم قال "حسنًا. سوف أصنع لك واحدًا الآن"

نهض. وجد بعض الأوراق فى درج، طواها مثل كتيب، وجاء بها إلى المنضدة. جلس وهو ينظر بحزم إلى تيريزا، وقد هيأ قلمه. كانت وأنطونيو يضحكان. قال أنطونيو "إنكما مجنونان" "مهابيل".

قال ألفريدو بلهجة رسمية صارمة "الاسم ؟"

"تيريزا ألفيس"

"السيدة تيريزا ألفيس. لون شعرك أسود؟"

فيما بعد، عبر حياتهما، كانا يستحضران هذا المشهد، يذكّر أحدهما الآخر بتفاصيله، ويرويان لأطفالهما كيف اكتشف ألفريدو فى حينها أول معلوماته عن تيريزا، فى حين جلس أنطونيو ينود برأسه مبتسمًا، وكان بن ينام فى الغرفة المجاورة.

قالت تيريزا "كستنائى غامق" وقربت منه خصلة من شعرها ليراها.

قال ألفريدو "أسود فى الظل وكستنائى فى الشمس. لقد لاحظت ذلك. سأكتب أسود. أقول إنهم لن يدققوا فيه. هل أكتبه أسود؟"

"هذا يفى بالغرض"

"وأنت ... كم طولك ؟

أخبرته.

"بنفس طولى تقريبًا . طول جيد. هل لديك أية علامات فارقة ؟ إنهم يرغبون دائمًا فى معرفة ذلك "

"عندى شامة صغيرة على .. أسفل ظهرى"

ضحك أنطونيو:

"على مؤخرتك؟"

"نعم.. وأخرى على كتفى هنا " وأزاحت ياقة قميصها عن رقبتها، واختلس النظر إليها.

قال "أعتقد أن علينا أن نحتفظ بالشامتين لأنفسنا. أى شىء آخر؟"

"عندى هذه الندبة حيث سقطت وأنا أقطع القرع الأحمر للماعز. وقد وقعت على صخرة حادة" رفعت ذراعها، كان ثمة ندبة رفيعة بيضاء تمتد من معصمها إلى أعلى راحتها.

قال ألفريدو "لا حاجة بهم لمعرفة ذلك. إذًا.. الطول، لون الشعر، لون العين. هذا يكفى بالنسبة لهم. ما اسم قريتك؟"

"نفس اسم قريتك، قرية الغبار، إقليم الغبار، وطن الغبار. ولكن اسمها كان أليخيكو "

"سنكتب ذلك. تاريخ ميلادك؟"

ترددت محتارة ما إذا كانت تريده أن يعرف أنها أصغر بكثير مما تعلن. رأى ترددها فقال" سأضع السن مثل سنى. الآن نحتاج إلى صورة".

وقدم الورق المطوى إلى تيريزا مع انحناءة وهو يقول "جواز سفرك يا دونا تيريزا" نهضت من مقعدها واستلمت الشىء منه وحيته بكياسة. انقضى الوقت وهم يتسامرون. قال أنطونيو إنه سوف يتبعهم إلى خوخوى وإلى المناجم. سوف يسعده أن يخرج عن نطاق ريو بعض الوقت. حين لاح نور الفجر، شربوا قهوة وغادر الرجلان لترتيب حجز رحلتى الطيران.

دخلت تيريزا على بن فوجدته مستيقظًا، طلبت منه أن يتحلى بالشجاعة والصبر، وإذا حدث أن جاء أى شخص إلى الشقة، فإنها ستضمن ألا يقترب منه. سوف تقفل عليه الباب ويجب ألاّ يخيفه هذا. قالت كل ذلك لأنها كانت على يقين من أنهم سوف يأتون فى طلبه، ولأن الباب كان محطمًا، فلم تكن ثمة طريقة لمنعهم. قدمت له عصيرًا ونصحته أن ينام وألاّ يحدث صوتًا فى حالة قدوم أحد ما.

لم يمض وقت طويل حتى سمعت صوت رجلين فى الخارج. فتحت الباب وهى تقول"هل تريان مافعله اللصوص بهذا الباب؟" قالت ذلك لتحويل أنظارهما مع أنهما كانا مثل رجلى شرطة يطاردان مجرمًا. قالت "اجلسا من فضلكما" وجلست وهى تلاحظ استراقهما النظر إلى غرفة بن.

جلس لويس على رأس المائدة، آخذًا موقع الصدارة والقيادة كالعادة، وجلس الأمريكى قبالة تيريزا ، وعيناه الباردتان تجحظان ببوادر غضب. وبدأت تيريزا تتحدث "مافعلتماه كان شيئًا سيئًا. أن تخطفاه من هنا. إنه ليس شيئًا تملكانه" كانت تحدث لويس ولكنه قال " ليس ذنبى. لا علاقة لى بما حدث. ذلك القسم من المعهد لاعلاقة له بالبرازيل. إنه تحت سيطرة دولية منفصلة". انتظر أن يتكلم ستيفن جوملاك ولكنه لم يفعل، كان يلوى جسده محدقًا فى باب بن.

قالت تيريزا وهى تمسك بزمام الموضوع" ولكنكما هنا معًا" .

قال لويس "أنا صديق قديم للبروفسور جوملاك"

"ولكنك كنت تعرف بقدوم أولئك الرجال لاختطاف بن".

"أعتذر نيابة عن بروفسور جوملاك" وألقى مرة أخرى نظرة موحية لزميله الذى تجاهلها "لقد تم تجاوز التعليمات. لم يكن من الضرورى تحطيم الباب"

"ولكن إذا كنتما تتوقعان أن نسلمكما بن فلماذا أرسلتما مجرمين؟ لقد كانوا مجرمى شوارع" واستطردت قبل أن يستطيع أى منهما الرد ـ وإن كان يبدو على الأمريكى أنه لا ينوى الإجابة "ـ ووضعتما بن فى قفص عاريًا مثل حيوان".

قال لويس ماكادو "قلت لك لا علاقة لمعهدنا بذلك، ولكن من الواضح أنه كان ثمة سوء فهم".

قالت تيريزا: "أعتقد أن سوء الفهم هو عدم توقعكما أن نجده على تلك الحالة"

هز لويس رأسه مقرًا بصوابها، وفى الوقت نفسه كان معجبًا بصمودها فى مواجهتهما، مع أنها كانت تعرف، لابد أنها كانت تعرف من إنيز أهمية مركزه !

ثم تكلم ستيفن جوملاك كما لو أنه لم يسمع شيئًا من تلك المحادثة "لايمكنك الاحتفاظ به. إنك لا تفهمين .. أليس كذلك ؟"

"أعرف أنك تريده لتجاربك. أعرف. رأيت بأم عينى" وأشارت إلى عينيها بسبابتيها.

مال نحوها عبر المائدة وقبضتاه مضمومتان، ووجهه مظلم بالغضب "هذه .. العينة.. يمكن أن تجيب على أسئلة. أسئلة مهمة، مهمة للعلم. لعلم الكون. يمكنه أن يغير مانعرفه عن تاريخ البشرية"

هنا شعرت تيريزا بأن الهجوم أصبح مباشرة هجومًا على احترامها وتبجيلها للمعرفة والتعليم، ذلك الفضاء الذى يطل مثل نافذة على سماوات مجهولة حيث كان يمكن لها أن تركع وتتعبد... وانفجرت باكية، وهى تؤكد لنفسها غاضبة أنها تبكى بسبب إرهاقها، ولكنها كانت تعرف الحقيقة .

أما لويس فقد حسب أن هذه الفتاة الجاهلة أحست بالرهبة من السلطة التى تواجهها والورطة التى وقعت بها، ولأنه يعرف بروفسور جوملاك جيدًا ولم يكن يحبه ، فقد تراءت له تيريزا مثل فأرة قررت

أن تقف على قائمتيها الخلفيتين لتهديد قطة. أما البروفسور فقد أزعجه بكاء تيريزا. وظن الرجلان أن تيريزا - بانهيارها - قد هزمت. كان يمكنها أن تتمسك بتوجيه الكثير من الاتهامات الخطيرة ولكنها لم تفعل: فقد تم انتهاك العديد من القوانين ولكنها لم تكن تفكر بالآثار القانونية حين قالت ماقالته.. ولكنه ذلك الوجه المتنمر الكريه الذى يقف أمامها وتلك العينان الغاضبتان الباردتان، فى حين تملأ ذاكرتها صورة بن وهو يعوى عاريا فى قفصه وتلك القطة البيضاء والبراز يتساقط عليها من القفص العلوى. قالت بالبرتغالية " voce e gente ruim" وكان الحقد فى صوتها قد وصل إلى خصمها حتى لو لم يفهم كلماتها. ثم قالت بالإنجليزية "أنتم أشرار. أنت إنسان شرير" لم توجه هذا إلى لويس، ليس لأنه حلّ المعهد من أى ذنب، ولم يكن فى ذهنها أفكار سياسية من أى نوع - مثل أن الأمريكى ينتمى إلى أقوى دولة فى العالم - هذا النوع من الأفكار. لم تكن تهتم بالسياسة. كلا. لقد نفرت من ستيفن، بشكل غريزى، كما سبق أن حكمت على أليكس بايل بأنه عطوف ولكنه ضعيف، أحسن إليها طالما كان معها، ولكنه نسيها فى اللحظة التى غادرها. لقد أدركت أن هذا البروفسور المشهور الذى يضع أسلاكًا فى رأس قطة وصغارها ليقيس مشاعرها وهى ترضعهم فى حين يتساقط على شعرها براز حيوان آخر فى القفص العلوى، والذى يحقن القرود بالمرض - وتراءت لها

بجلاء كامل، المخالب الصغيرة وهى تمتد إليها تتوسل الخلاص- هذا الرجل يمكنه أن يفعل أى شىء دون أن تخطر بباله المعاناة التى يسببها للحيوانات، كان وحشًا ضاريًا.

ولكنها كانت لا تزال تبكى بسبب الصراع الذى يمزقها.

قال لويس "تقولين إن بن يتبع.. ماذا كان اسمه ؟"

"إنيز صديقتك أليس كذلك ؟ لابد أنها تعرف الاسم: أليكس بايل. إنه صانع أفلام أمريكى وسيكون بن بطل الفيلم "

" ولكنى فهمت أن الفيلم قد ألغى"

"ليس أكيدا. اليكس الآن فى...." وذكرت اسم القرية الصغيرة التى كان أليكس وباولو يعملان فيها على السيناريو أو السيناريوهات، وهى تعلم أنه من غير المحتمل أن يعرف لويس القرية "إنه فى موقع العمل الآن والجو سيئ والاتصالات مقطوعة. سوف أخبره بما حدث حين يهاتفنى وسوف أقول له إنك تريد أن تكلمه بخصوص بن" كان صوتها منتظما الآن . نهضت قائلة "أعذرانى . لدى عمل أقوم به."

ببطء نهض الرجلان. كان لويس كالعالدة هادئًا مبتسمًا. أما الرجل الآخر فقد كان لا يزال يحدق فى باب بن. كان يشبه نملة حمراء: أدركت فجأة هذا الشبه الذى كانت تبحث عنه فيه.

قالت "بن نائم. إنه ليس على مايرام بعد ماتعرض له" ووقفت أمام باب بن.

قال ستيفن مهدئًا مهيمنًا :"إياك أن تأخذى بن خارج البلاد"

قالت "إنه يستطيع أن يذهب أينما يشاء. لديه جواز سفر"

قال لويس لستيفن "علينا أن نذهب" وأوحى صوته لكل من ستيفن وتيريزا أن فى رأسه خطة ما.

غادر الرجلان، وانفجرت تيريزا تبكى ارتياحًا. كان جسدها يهتز مما سببته لها تلك المواجهة. كانت تعرف أن هذين الرجلين ـ لم تكن تميز بينهما بالتفكير أن أحدهما مسئول والآخر غير ذلك، فكل منهما يملك السلطة ولا فرق بينهما ـ سوف يفعلان شيئًا للحصول على الحق القانونى لاحتجاز بن . وهذه المرة لن يتم الأمر خطفًا، فالقانون سوف يكون فى صفهما. سوف يعتقل بن بتهمة أو بأخرى.

استغلت تيريزا الوقت قبل رجوع ألفريدو وأنطونيو لحزم ملابس بن، وظلت تدخل غرفته وتخرج منها بهدوء لئلا توقظه. كان يتأوه فى نومه. وضعت له قميصًا صوفيًا وغطاءً للرأس ونفس الشىء لها. حين عاد ألفريدو وأنطونيو وسمعا ماحدث ، أدركا ضرورة التحرك بسرعة.

قالت تيريزا "إسرع يابن ، سوف نركب طيارة بعيدًا عن هنا" جلس بن على فراشه مذعورًا ثم قال بحماسة "إلى قومى ؟ الآن ؟

قال ألفريدو "هيا يابن" وعبرت النظرة التى تبادلها مع تيريزا عن يأسهما. كيف يمكن لهما إنهاء هذا التوق ؟ ومع ذلك كان عليهما فعل ذلك.

تركت تيريزا رسالة على المائدة موجهة إلى أليكس قالت فيها إنها وصديق مخلص سوف يأخذان بن إلى مكان آمن، دون أن تفصح عنه ،لأنها كانت تعرف أن أليكس لن يكون أول من يقرأ الرسالة. وكانت قد طلبت من البواب أن يبلغ الشرطة بكسر الباب وحادث الاقتحام وأن يصلح الباب.

وهكذا تركوا شقة أليكس وركبوا سيارة أنطونيو إلى المطار. وهناك ودعهم على أن يلتقى بهم قريبًا فى (هوماهوكا) حيث سيجد ألفريدو عملا. كانت على بعد ساعتين بالسيارة من خوخوى.

كانت الطائرة ضخمة من النوع التى يركبها الناس للسفر من قارة إلى أخرى، ولكن فى ساو باولو ركبوا طائرة أصغر، كان ركابها من نوع مختلف تمامًا حيث يبدو عليهم أنهم رجال أعمال. حلقت هذه الطائرة على ارتفاع منخفض كاشفة المناظر تحتهم، ملقية ظلها على تضاريس وعرة حيث كان أناس مثل تيريزا يسيرون وينظرون إلى الأعلى لرؤية طائرة، لا يحلمون بركوبها، تمر فوق رءوسهم. ولكن تيريزا أيضًا لم تحلم

يومًا بركوب طائرة. كان ينظر إلى الأسفل باستمتاع. فباستثناء تلك الجولة فى الطائرة فوق لندن مع جونستون، كانت هذه هى المرة الأولى التى يكون فيها يقظًا على طائرة ويستطيع أن يرى ماحوله. فى بادئ الأمر وجد من الصعوبة أن يفهم ماتقوله له تيريزا "انظر ، ذلك النهر الكبير فى الأسفل" أو " تلك سلسلة تلال" كان يسأل "نهر ؟ هل هذا نهر؟" أو "تلك تلال؟ ولكنها تبدو منبسطة" ثم تكيف عقله واستوعب الأمر. وكان سعيدًا وفخورًا بأنه يفهم. ولكن تلك التكشيرة الصغيرة على وجهه، ليست العريضة المذعورة، كشفت لتيريزا وألفريدو عما يفكر به.

"هل سنجد قومى اليوم؟"

"كلا ليس اليوم يابن. إنهم بعيدون فى الجبال"

"تلك الجبال فى الأسفل"

"كلا هذه جبال صغيرة بالمقارنة بالأخرى الكبيرة. سوف ترى بنفسك"

هبطت الطائرة فى باراجواى وركب ناس ونزل ناس، ومارأوه تحتهم كان سهولا خضراء وصفراء وماشية، كانوا على وشك الوصول إلى هوماهوكا. وكان أنطونيو وألفريدو قد اتفقا فيما بينهما أن النزول هنا بين أصحاب المناجم والمهندسين والعمال أفضل من النزول فى خوخوى، حيث يدققون أكثر بوثائق السفر، وبينما اخذت الطائرة فى الهبوط ، كان يمكن رؤية أفواج من الناس تحتهم متجهين نحو المناجم.

لا أحد يثير ضجة هنا حول عبور الحدود، أناس لا حصر لهم، كانوا يعبرون الحدود التى لاتشكل فى أذهانهم سوى حواجز وهمية .

فى المطار الصغيراستعدت تيريزا لإبراز بطاقة هويتها ولكن الموظف وراء المكتب تعرف على ألفريدو فقد عمل هو نفسه سابقًا فى المناجم، وقال له ألفريدو إن تيريزا أخته. ولكن الرجل ألقى نظرة فاحصة على بن قبل أن يشير له بالمرور، فهذا المارد لم يكن شديد التميز وسط هذا الحشد المتنوع من المسافرين .

فى هذه الأثناء ، أقلعت الطائرة التى جاءوا على متنها فى طريقها إلى خوخوى، ومعظم ركابها من عمال مزارع التبغ. كان ألفريدو قد هاتف صديقًا له يطلب منه أن يأتى بسيارته إلى هوماهوكا لاستقبالهم. لم يكن قد وصل بعد. جلسوا على كراسى تحت شجرة، سعداء بالظلة، فقد كان الجو قائظًا. قالت تيريزا إنها تعانى من صداع بسبب ارتفاع مستوى المكان عن سطح البحر. قال بن إنه على مايرام. ولم يبد عليه أنه يستوعب مفهوم الارتفاع حتى أشار ألفريدو إلى الأنديز وقال له إن عليه أن يتخيل البحر فى سفح الجبال ، ثم يتخيل نفسه يتسلق وهو يعد خطواته.

"هل ذلك هو المكان الذى سنلتقى فيه بقومى؟"

"نعم إنه هو" . جلس بن مبتسمًا، مطلقًا صوتًا

أجش خافتًا، هو طريقته فى الغناء، لو كنت على معرفة جيدة به. كانوا يتفرجون على الناس وهم يمرون بهم فى طريقهم إلى المناجم. قال ألفريدو "المناجم تحتاج إلى عمال وهم لايسألون أسئلة كثيرة هناك"

سألته تيريزا "وما الأسئلة التى قد يسألونها؟" وكانت تشعر أنها على حافة اكتشاف كارثة. "ماذا يخيفك فى مطار خوخوى؟"

"حين قبلونى فى المعهد سألونى أين عملت سابقًا، فقلت خوخوى. لم أقل هوماهوكا، نظريتى هى "لاتعط معلومات بأكثر مما يلزم"، ولهذا إذا أرادوا الإيقاع بى بسبب إنقاذ بن من الأقفاص ونقله إلى ريو، فإنهم سوف يبلغون خوخوى. ولكنى أعتقد أنهم لن يزعجوا أنفسهم بذلك. أنا على يقين من أنهم يدبرون خططًا أفظع لـ "بن". كانا يتكلمان باللغة البرتغالية، وسمع بن اسمه فسأل "ماذا تقولان؟".

"كنا نقول فقط إننا أنقذناك من ذلك المكان". واستأنف ألفريدو الحديث باللغة البرتغالية مستخدمًا اللهجة المحلية التى يتشاركان بها، والتى يصعب على الغريب فهمها، كما لو كانا يخشيان وجود من يتصنت عليهما، رغم إنه لم يكن ثمة من هو على مرمى السمع. "ولكن هناك شيئًا آخر ياتيريزا. حين أتيت هنا إلى المناجم، كان ذلك بسبب وقوعى فى مشاكل. قبل سبع سنوات. ولكنهم يحتفظون بسجلات. كان اسمى مسجلا لدى الشرطة فى ذلك الوقت"

وروى لها قصة شعرت أنها سمعتها مرارًا حتى لتنطبق كلماته عليها. كان الخروج من (أكواخ الجبل) صعبًا بالنسبة له كما كان لها. كان عضوًا فى عصابة شوارع وقد ارتكب جنحًا صغيرة عديدة ، وكان معروفًا لدى الشرطة. فى إحدى الليالى وقعت مشاجرة بالسكاكين بينه وقائد العصابة. لم يقتل الولد ولكنه أصيب إصابة بالغة وقد اتهم ألفريدو مع أنه هو الذى بدأ العراك. قرر ألفريدو بعدها أن يبتعد عن ريو، وبعد ثلاث سنوات وبالمال الذى ادخره والخبرة التى اكتسبها من المناجم، عاد. كانت عصابة الشارع التى انتمى إليها سابقًا قد اختفت ومات الولد الذى أصابه، ولكن فى معركة أخرى.

كان ألفريدو قد بلغ مبلغ الرجال، شاعرًا بالمسئولية والمهارة: وهكذا حصل على عمل بسهولة انتهى به إلى المعهد.

جاء الدور على تيريزا الآن لتروى له قصتها، وكان الأمر صعبًا. ظل صوتها ينخفض ويتعثر ويختنق. كان عليها أن تخبر هذا الرجل الذى تحبه أنها كانت بائعة هوى. شعر ألفريدو بالإحراج وظل يتململ فى جلسته بل كان على وشك أن ينهض فيمشى بعيدًا "تيريزا أخبرينى بذلك فى وقت آخر. أخبرينى حين ترغبين بذلك "

" ولكنى يجب أن أخبرك . يجب أن أخبرك"

"اسمعى تيريزا. إنك تنسين أنى أتيت من الأكواخ مثلك تمامًا. أعرف عن... عندى أخت مازالت هناك.

لم تخرج بعد. فيما بعد سوف أساعدها." مال إلى الأمام مبتسمًا، رغم إنها كانت تعلم صعوبة ذلك عليه، وأمسك يدها "سوف نساعدها معًا ياتيريزا"

قال بن مرة أخرى "هل تتكلمان عنى؟"

قالت تيريزا بالإنجليزية "كلا .. عنا نحن"

وصل خوسيه صديق ألفريدو بسيارته وأخذهم مسافة تسعين كيلومترًا إلى خوخوى. جلس الاثنان فى المقاعد الأمامية يتحدثان وجلست تيريزا مع بن فى الخلف. كانت تعلم أنه سيصاب بالغثيان: كانت سيارة قديمة مهتزة. ارتفعت الجبال على يمينهم وألقت عليهم ظلالها.

سأل بن "هل سنذهب غدًا؟"

"كلا، علينا شراء بعض الأشياء التى سنأخذها معنا"

"متى نذهب؟"

"ربما بعد غد"

كانت تحاول إجبار نفسها على القول "انظر يابن. إنك لا تفهم. لم نشرح لك جيدًا...." ولكنها لم تستطع التلفظ بالكلمات. كانت تسأل نفسها: ماذا سنفعل؟ كيف سنخبره؟

كان خوسيه قد عمل مع ألفريدو فى هوماهوكا. وحين غادر ألفريدو وأنطونيو، دخل دورة دراسية فى هندسة المناجم رفعته من طبقة عمال المناجم.

كان لديه منزل صغير فى خوخوى وزوجة تعمل هناك، وكان يأتيها فى معظم إجازات آخر الأسبوع. لم تكن الزوجة فى البيت فى ذلك اليوم بل كانت فى زيارة لبعض أقاربها.

كان منزلاً أنيقًا من ثلاث حجرات ومطبخ وحمام. كان ثمة تليفزيون وراديو. كان يشبه المنزل الذى عاش فيه ألفريدو مع آخرين قرب المعهد. مثل منازل أناس من نوعهم فى أرجاء العالم.

تناولوا طعام العشاء والتليفزيون مفتوح ولكن لا أحد يتفرج عليه. كان بن غارقًا فى أحلامه، والرجلان يتحدثان، وتيريزا تستمع إليهما، سعيدة بأن يكون لألفريدو مثل هذا الصديق الطيب - أن يكون له صديقان.. فهذا أمر فى صالحها. كانت تعلم قيمة أن يكون للمرأة زوج له أصدقاء مخلصون. كان لوالدها أصدقاء فى ذلك الزمن البعيد، فى قريتهم النائية، ولكن منذ نزوحهم إلى الجنوب، لم يعد لديه صديق إلا زوجته، وهكذا لم يكن لديه من يجالسه فى الأكواخ أو يتحدث إليه، فاتجه إلى إدمان الشرب وحده حتى الثمالة.

أدركت تيريزا أن عبئًا كبيرًا انزاح عن كاهلها منذ أن التقت ألفريدو حتى أصبحت - بعد وقت قصير من التقائها به - تجد صعوبة فى تخيل كيف كانت تمضى فى حياتها من قبل دون شخص آخر تعتمد عليه.

حين جاء وقت النوم، لم يكن ثمة شك فى أن ألفريدو سيقضى الليل فى غرفة خوسيه، وليس

السبب أنهما لم ينهيا تبادل الأخبار فحسب. . لو كانت وحدها فى البيت مع ألفريدو.. لكنه رفع يده لها بابتسامة، كما لو كانت تحية المساء وذهب مع خوسيه. كان عليها أن تكون مع بن لأنه لا يثق إلا بها. خطر لها أنه فى منزل أليكس كان لـ"بن" غرفة خاصة به، ولكن هنا كان ثمة سريران متلاصقان. ارتدت ملابس النوم فى الحمام ، وخرجت لتجد بن متمددًا بكامل ثيابه على السرير. كانت تدرك أن ذلك لأنه ـ فى خياله ـ كان قد شرع فى رحلته إلى الجبال. كان بن ينظر إلى السقف مبتسمًا وسألها "هل ننطلق مبكرًا؟"

"ليس غدًا يابن. لقد أخبرتك" وأطفأت النور عند الباب ودخلت سريرها وهى تفكر أنها منذ أن عرفت بن كان فى معظم الوقت مريضًا أو خائفًا أو خانعًا. لم تره سعيدًا وواثقًا. وحتى فى الغرفة نصف المعتمة كانت تستطيع أن تتبين وجهه المبتسم. لقد حانت اللحظة التى يمكنها أن تقول له فيها" انظر يابن. حدث خطأ ..." ولكن اللحظات مرت ثم الدقائق، وهى صامتة. "سوف أبحث الموضوع مع ألفريدو وخوسيه أيضًا وسوف نجد طريقة لإبلاغه" ولكن أى هراء هذا! فكرت مع نفسها. كان بن يتوقع أن يرى قومه ولن يسمح لحلمه أن يتلاشى. إذا قالوا له "ولكن يابن، من الأفضل لك ألا تراه . إنهم قوم فقراء بائسون" فسوف يزداد رغبة فى لقائهم. إذا تظاهروا بأنهم وجدوا موطن قومه فى الجبال ثم قالوا له "يبدو أنهم ارتحلوا إلى مكان آخر" فسوف يستمر فى البحث

عنهم، لأن حاجته للقائهم كانت عظيمة. حاولت تيريزا أن تتخيل وقع الأمر حين تكون الشخص الوحيد من نوعك فى العالم، مدركًا غربتك، معتمدًا على لحظات تعاطف بالصدفة، أن تُستغل ثم تُهجر، ولكنها لم تستطع تصور سوى شعور مذعور بالخواء والوحدة يعتصرها، فتحس بالقشعريرة والغثيان "ولكن لابد أن نخبره. لابد من ذلك". رددت ذلك مع نفسها مرارًا حتى غلبها النوم واستيقظت فجأة لترى بن يقف فوقها. فى الخارج كان القمر يسطع نورا أصفر قويًا يضىء الغرفة. كان بن قد خلع سترته وبنطلونه، ومارأته فى يده، جعلها تنهض جالسة وهى تقول بحدة "كلا يابن، كلا. توقف" كان منحنيًا فوقها ولم تعرف إذا كان ينوى أن ينظر إليها فقط أو.. اعتدل وأفلت من يده قضيبه المنكمش. قالت "يجب أن تعود إلى سريرك يا بن".

فعل ذلك مطيعًا وتمدد يقظًا. وهكذا فعلت. قال بغضب "كانت ريتا تحبنى. كانت تحبنى. أنت لا تحبيننى"

"بل أحبك يابن. أنت تعلم أنى أحبك" واستمعت إلى تنفسه، مثل تنفس طفل يوشك على الانفجار بالبكاء. فكرت أن هذا.. الذكر .. أيًا ما كان، قوى وملىء بالحيوية حين لا يكون بائسًا. كان مفعمًا بالغرائز. وماذا كان يفعل لدى احتياجه للجنس؟ لأنثى؟ لقد مضى على علاقته بريتا وقت طويل. عدة أشهر. كانت تعرف أنه يتمدد هناك يتنشق بصوت

مسموع، ربما يمنى النفس بلقاء امرأة من قومه حين يجتمع بهم. بعد قليل، تغير وقع تنفسه، لقد استغرق فى النوم الذى جافاها. وحالما طلع الفجر، نهضت وارتدت ملابسها وذهبت إلى المطبخ لإعداد القهوة التى أيقظت رائحتها الرجلين. كان باب بن مغلقًا ومع ذلك فقد همست وهى تتحدث مع الرجلين قائلة إن عليهم توضيح الأمور لـ"بن" فمن القسوة الاستمرار هكذا. قال ألفريدو "سوف يكتشف بنفسه. سوف يرى بنفسه".

"أنا خائفة" قالتها دون أن تعنى نفسها أو تعنيهما، ولكن ألفريدو طمأنها أولا كما فعل خوسيه قائلين إنهما - إذا ثارت ثائرة بن - فسوف يدافعان عنها وعن نفسيهما. رأى ألفريدو أن ذلك لم يخفف عنها فقال لخوسيه أن تيريزا مولعة بـ"بن" " وأنا أيضًا .. إنه .. ليس مجرد.. وحش"

قالت تيريزا "أنه يشعر .. مثلنا"

وهنا دخل بن مبتسمًا، متحمسًا ليوم جديد مثل طفل، وقبل أن يسأل "هل يمكن أن نغادر اليوم؟" أخبرته بأن اليوم مكرس للتسوق.

ذهبوا جميعًا فى سيارة خوسيه لشراء ملابس دافئة للجبال وأوعية من البلاستك للماء وبطانية لكل منهما، وطعام .. استغرق الشراء الصباح بطوله.

ثم اشتكت تيريزا من الصداع. كان الارتفاع يسبب لها الدوار. خمّر خوسيه شاى الكوكا وأجبرهم

جميعًا على شربه، لعلاج الدوار. نامت تيريزا طوال فترة مابعد الظهر ، بينما ذهب الرجلان للقاء أحدهم، وظل بن يتململ قلقًا فى غرفة الجلوس. عند العشاء أبلغ ألفريدو وخوسيه تيريزا بأن لديهما خطة لها. يمكنها أن تبقى فى هذا المنزل مع زوجة خوسيه التى تعمل فى خوخوى وتتمتع بإجازة نهاية الأسبوع لاستقبال خوسيه حين يعود من هوماهوكا. وفى ذلك الصباح كان الرجلان قد ذهبا للقاء صديق يعمل فى محطة تليفزيون محلية ـ محطة صغيرة ليس مثل تلك المنشآت الفاخرة فى ريو، وإذا صبرت فسوف تجد لها مكانًا فى هذه المحطة. وفى هذه الأثناء هناك متحف الآثار حيث يمكنها أن تبحث عن عمل هناك. كانت مدينة خوخوى تستقطب رجال التبغ ورجال المناجم والخبراء من كل نوع وهم يحتاجون أشخاصًا مثل تيريزا للعناية بهم. مارأيها ؟ هل تبقى فى خوخوى؟ سألها ألفريدو وردت فورًا : نعم . كان بن يستمع إلى المحادثة كما يفعل طفل حين لا يتعلق الكلام به، ولكن تيريزا كانت تفكر للمرة الأولى.. ماذا سوف نفعل مع بن ؟ إذا أرسلناه إلى أليكس ، فسوف يضع بروفسور جوملاك يده عليه. لا يمكننى أن أطلب من زوجة خوسيه أن تأويه أيضًا. لم يتسن لهم الوقت من قبل للتفكير فى مصير بن، فقد كان همهم الأول إبعاده عن ريو، عن الخطر. كان الأمر يبدو وكأنها ـ وذلك يعنى ألفريدو أيضًا (ولكن لماذا يوافقها؟) ـ المسئولة الآن عن بن ، أو ربما يجب إعادته إلى لندن ، إلى ريتا التى يتحدث عنها ؟

سأل بن "فى أى وقت نذهب غدًا؟"

قال خوسيه "حين نضع كل الأشياء فى السيارة "

"هل نأخذ الأشياء لقومى ؟"

"كلا، نحن نحتاجها لأن الجو هناك بارد"

"لماذا يعيشون فى مكان بارد؟"

قال ألفريدو "سوف ترى" ، بعد وهلة، حين تلاقت عيون الثلاثة وانفصلت فورًا لئلا يلحظ بن قلقهم، ولكنه كان قد رأى .. نعم .. كان بن يفهم أكثر مما يتصور الناس. سأل "لماذا تقولها بهذا الشكل ؟ هل هناك علّة ما بهم ؟"

قالت تيريزا "كلا" وتدخل خوسيه مذكرًا إياهم أن الساعة لم تبلغ الثامنة بعد، فلماذا لايذهب أربعتهم لزيارة فندق معين لمشاهدة حياة الليل فى خوخوى؟

قال بن إنه لا يرغب فى ذلك وذكرته تيريزا بأنه كان قد أحب الجلوس على الأرصفة فى ريو والفرجة على الحياة الصاخبة، أليس كذلك ؟

كان الفندق مبهرجًا ، ويختلف تمامًا عن الواجهات الرصينة الفخمة على طول السواحل المشهورة فى ريو. أنوار ملونة تميزه عن بقية المنطقة. كانت الصالة الرئيسية براقة ومزدحمة وصاخبة. لم يجذب دخول الأربعة انتباه أحد، أما بن، فقد كان المكان يعج بالرجال الأقوياء ضخام الأجسام. كان

الطعام يصل إلى الموائد ولكن البار الذى يملأ جدارًا، كان هو منطقة جذب الرواد. وعند البار يزدحم رجال معظمهم من مزارع التبغ يحملقون بالنساء الصغيرات الجريئات، الزاعقات اللاتى جئن من أجل هؤلاء الرجال. وجد الأربعة مائدة شاغرة انحشروا حولها. لم يكن بن سعيدًا فالضوضاء كانت تزعجه، كما كانت تزعج تيريزا فى حالتها الراهنة، حيث الصداع والغثيان مؤجلان قليلا وفيما كانت تراقب الفتيات كانت تؤكد لنفسها أنها لم تكن يومًا بهذه الجسارة أو هذا الضجيج. كانت متأكدة من هذا، كما كانت تفكر إنهن ربما ـ مثلها ـ لهن عائلات يعيلنها. وقد تمنت لو لم تأت. ثم رأت شابة كانت قد التقت بها عند مائدة المقهى خارج الفندق الأول الذى ارتادته فى فستانها الجديد. أصابها الذعر من أن تتعرف الفتاة عليها وتحييها، فيفهم خوسيه حقيقة ماضيها مما يحرج ألفريدو. انكمشت تختبئ خلف ألفريدو الذى لاحظ ذلك وتطلع حوله ليعرف السبب وقال لها إنهم لن يطيلوا المكوث.

فى هذه الأثناء كان خوسيه عند البار، يتحدث إلى فتاة يبدو أنه يعرفها جيدًا . كانا يتبادلان عذب الكلام.

سألت تيريزا "كم مضى على زواج خوزيه؟" وحين ضحك ألفريدو قالت "لو كان علىّ انتظارك فى ريو، فسوف تنتابنى الغيرة " .

تصورت أن بن لن يفهم ولكنه سأل "لماذا ياتيريزا؟ لماذا تغارين من ألفريدو؟"

قالت تيريزا "كنا نمزح" وهى تراقب خوسيه مع المرأة ثم همست لألفريدو "كلا لم أكن أمزح" قال ألفريدو "ولكنك سوف تبعدينى عن المشاكل"

هنا عاد خوسيه مع بيرة لنفسه ولألفريدو وعصير لـ"بن" وشاى الكوكا لتيريزا. قال لها "غداً سيكون الأمر صعبًا. سوف نصعد ارتفاعات أكثر وستشعرين بالمرض إذا لم تشربى هذا الشاى"

قال بن "هل يشرب قومى هذا الشاى؟"

قال خوسيه "بالنظر إليك، لن يحتاجوا إليه. من أين حصلت على هاتين الرئتين ؟" ثم ضحك بطريقة تآمرية وقال "قلت هذا كما لو أنهم موجودون" قالها بالبرتغالية وهو يشرك تيريزا وألفريدو بمزحته القاسية. ولكن بن فهمها. فهم شيئًا "لماذا تضحك؟" سأل خوسيه. كان صوته طافحًا بالشك. قال خوسيه بـ الإنجليزية "إننا نروى نكات قبيحة" ثم قال بالبرتغالية "هذا البِن سريع الفهم".

"لماذا قلت هذا ؟ لماذا نطقت اسمى؟ ماذا تقول عنى ؟"

قالت تيريزا "لاشىء" وفكرت أن خوسيه عديم الإحساس بمشاعر الناس، ليس مثل ألفريدو. يجب ألاّ يكتشف بن الحقيقة بهذه الطريقة القاسية .

"ماذا هناك؟" أصر بن على أن يعرف وهو ينظر فى الوجوه واحدًا بعد آخر.

كانت هذه هى اللحظة التى يمكنها أن تقول فيها "بن .. كان هناك سوء فهم .." ولكنها لم تستطع نطقها. ظلت صامتة . وبدا على ألفريدو عدم الارتياح. لاحظت الأسف يلوح على وجهه وكما لو أن هذا الارتباك يؤذيها هى وليس بن . عاد خوسيه إلى البار ليقول شيئًا للمرأة، إحدى معارفه أو أكثر من ذلك. طمأنت تيريزا نفسها بأن خوسيه ليس ألفريدو. قال ألفريدو لخوسيه إن عليهم المغادرة فقد كان يعرف أن تيريزا لم يعجبها المكان. خوسيه لم يكن ليلاحظ ذلك. فى هذه الأثناء كان بن يجلس نكد المزاج يتطلع حوله بعينين مرتابتين كما لو أن جميع الحاضرين كانوا أعداء له وليس الثلاثة فقط. مرت تيريزا بالفتاة التى تعرفها من ريو وهى تشعر بأن ماضيها يشدها بمجسة مدّها إليها. وفيما كان الاثنان يسيران نحو السيارة وبن يتبعهما يراقبهما بارتياب، وضع ألفريدو ذراعه حولها وقال "ولكنك سوف تبقين معى ياتيريزا ؟ هل توافقين ؟ وحين ننزل من الجبال سوف نتزوج" قال هذا بالبرتغالية ثم بالإنجليزية موجهًا الكلام إلى بن "أنا وتيريزا سوف نتزوج" .

لم يرد بن، وفكرت تيريزا "وماذا عن بن؟ لن يريدنى ألفريدو إذا اعتقد أن على أن أرعى بن"

حين وصلوا منزل خوسيه، قال بن إنه يريد أن ينام ورافقته تيريزا، مراعاة لمشاعره. وتمددت فى

الظلام. لم ينم بن . كانت تستطيع أن ترى ومضات القلق فى عينيه . ولكنه ظل صامتًا.

كانت تتصنت لما يقوله الرجلان خارج الغرفة وهى تراهما فى خيالها. كانا مختلفين تمامًا. خوسيه نحيف مشدود القامة، ذو وجه حاد العظام وعينين حذرتين. كان لون جلده شاحبًا تحت سمرة الشمس. لم يكن نحاسى اللون مثلها ومثل ألفريدو. فكرت "سننجب أطفالا رائعين يشبهوننى وألفريدو.. إننا وسيمان. خوسيه قبيح لأنه لم يتغذ جيدًا فى مرحلة ما من حياته. عرفت هذا من ملامح معينة غير مكتملة فى وجهه. على الأقل، نحن، أنا وألفريدو، عرفنا الشبع قبل أن يبدأ الجفاف الشديد. سيكون أطفالنا أصحاء. تخيلت وجه ألفريدو حين يرى طفلهما الأول. وبينما كانت أفكارها الواثقة والفخورة تنثال على رأسها كان قلبها يدق فى جنباتها قلقًا على بن.

فى الصباح، ظل بن صامتًا ولم يسأل أية أسئلة. وفى حين كان يتم ترتيب الحقائب فى السيارة، وقف محدقًا بالجبال وبين حين وآخر يستدير لينظر إليهم، وعيناه الحائرتان حذرتان.. فجأة شرع يرقص دابكًا بغضب وهو يطلق زمجرات هياج قصيرة، واستمر فى رقصه حتى انتهى نقل الأشياء إلى السيارة وأقفل المنزل. ثم توقف محدقًا بتلك الذرى ، تلك الذرى الجامدة، الشامخة، الداكنة. رأت تيريزا فى وجهه شيئًا جعلها تذهب إليه وتضع ذراعها حوله برقة، خوفًا من غضبه. ولكنه لم يستجب ليدها الحانية. لم

يتحرك. كان يحدق فقط وعيناه تغشاهما حلكة الألم والخسارة.

فكرت تيريزا: إنه يعرف.. بشكل ما.. كان يدرك كل شيء.

فى السيارة، جلست تيريزا فى المقدمة خشية إصابتها بالدوار والغثيان. ومع معرفته بأن بن قد يتقيأ أيضًا، جلس ألفريدو معه، ومن طريقة جلسته، عرفت تيريزا أنه مستعد للتعامل مع بن إذا انفجر غضبه مرة أخرى .

كان الطريق الذى سلكته السيارة عريضًا فى البداية يشق مدنًا على جانبيه، وثمة فندق منفرد، ثم ضاق وبدأ يصعد. كان الهواء رقيقًا ومنعشًا، وامتنعت تيريزا من القلق ولم تبق إلا شعورها بالدوار وصداع الارتفاعات الذى يلطم رأسها بموجات باردة.

تلوى الطريق صاعدًا بمحاذاة التلال ثم هابطًا، إلى سفوح التلال، حيث تحتشد الأشجار التى أخذت بالتناقص حتى لم يبق هناك بقع ظلال على الطريق. صعدت السيارة إلى مافوق خط الأشجار. كان الجو أكثر برودة فى الأعالى. أوقفوا السيارة لارتداء ملابس ثقيلة. وقف بن إلى جانب السيارة وتطلع إلى الأعلى والأعلى ثم حوله إلى التلال والقمم والوديان الصخرية حيث اختفى البشر والمنازل. فى وقت متأخر من الأصيل، وصلوا إلى آخر فندق على ذلك الطريق... الذى تحول بعده إلى ممر ترابى وعر.

كان الفندق يؤمه رجال الأعمال ومتسلقو الجبال والمساحون. كانوا هم النزلاء العاديين الوحيدين فيه. كان همّ تيريزا الوحيد أن تتوقف الحركة لتستطيع أن تجلس ثابتة بعينين مغمضتين. ظل بن صامتًا. يتنقل إلى جانب النوافذ، الواحدة بعد الأخرى يتطلع منها إلى الأعلى . ذهب ألفريدو ليطلب الصنف المناسب من الطعام: وجبة خفيفة بسبب دوار الارتفاع. وصلت أيضًا صينية عليها شاى الكوكا. شربوه ممتنين . كانوا على ارتفاع ١٦٠٠٠ قدم وكان الوحيد الذى لم يتأثر بالارتفاع هو بن.

قال خوسيه: بسبب صدرك هذا!. فى هذه المنطقة، الجميع لديهم مثل صدرك، حيث يحتاجون لرئات واسعة بسبب قلة الهواء فى الأعالى.

سأل بن: من الجميع ؟ أين هم ؟ لا أرى أحدًا .

كانت ليلة باردة والغيوم تمر عبر النوافذ: ولاشىء يمكن رؤيته. ذهبوا للنوم مبكرين : خوسيه مع ألفريدو وتيريزا مع بن. ظلت تيريزا مسهدة بسبب صداعها وكان بن مستيقظًا.

الغرفة معتمة وخانقة ولكن بياض الضباب فى الخارج ينيره مصباح معلق على المدخل كان يرسل ضياء شاحبًا هزيلاً إلى غرفتهما.

فكرت تيريزا بأنها إن أخبرت بن الآن بأن قومه لا وجود لهم ، فلن يكون ذلك مفاجئًا له .

استيقظوا مبكرين، يغمرهم هواء منعش مثير، والشمس تضرب بقوة على الصخور والقمم. كان الجو صافيًا، خاليًا من الضباب أو السحاب.

أثناء تناولهما الفطور وصل رجلان كانا قد عزما على الانطلاق إلى قمم الجبال ولكنهما عادا قبل الظلام قائلين "ليس مكانًا مناسبًا للتيه حين يهبط الظلام"

حان وقت إعادة ترتيب المعدات والممتلكات. احتفظوا بغرفة واحدة وضعوا فيها كل مالن يحتاجوه لأن عليهم من الآن فصاعدًا السير على الأقدام. أقفلت السيارة وتركت فى حراسة أصحاب الفندق.

حمل كل منهم حقيبة ظهر مليئة بالملابس الثقيلة والماء والطعام وكان مع خوسيه موقد صغير وقدر للطبخ.

لن يصعدوا كثيرًا وإنما سيبقون فى نفس المستوى. وأضاف خوسيه بحذر وعينه على بن "ليس هذا اليوم على الأقل" . استمع بن إلى خبر إرجاء بقية الرحلة إلى الغد بصمت: لم يكن من السهل قراءة وجهه وهو يحدق فى الخواء الهائل من حوله. ولكن ما ظنت تيريزا أنها رأته فى ملامحه، دفع بالدموع إلى عينيها وأشاحت بوجهها عنه.

قبل الانطلاق، راقب الأربعة المتسلقيْن الجديدين يغادران صاعديْن إلى بروز صخرى حاد الانحدار، كان يظلل الفندق.

توقعوا فى تلك الليلة إيجاد كوخ مما يستخدمه المتسلقون على أن يبحثوا فى صباح اليوم التالى عن الصخور التى يتذكرها ألفريدو. ارتدوا كل ملابسهم الثقيلة ووضعوا نظارات سوداء. فى بادئ الأمر كان الطريق عريضًا يتسع لحمار أو بغل، كانت ثمة ممرات بعضها فى الظل وبعضها فى الشمس. ظل ألفريدو يتوقف بين فينة وأخرى عند تقاطع الدروب ليتأكد من الطريق. وكان خوسيه يجادله بأن عليهم اختيار الممرات التى يطرقها الناس لأنها هى التى يستخدمها "رجال الصخور" ويقصد الآثاريين وعلماء الإحاثة الذين يكتشفون أشياء فى الجبال تملأ المتحف فى خوخوى. سأل ألفريدو لماذا لم يُكتشف بعدُ، ذلك الصخر الذى يسميه (جاليرى) ؟ قال ألفريدو " سترى بنفسك".

كانا يتحدثان بالإنجليزية أمام بن، ولكنه لم يطرح أسئلة، وإنما اكتفى بالسير خلف خوسيه الذى يتبع ألفريدو . كانت تيريزا تسير خلف الجميع لتراقب بن. كانت شبه متأكدة من معرفة بن الحقيقة ولكن على ذلك الوجه الملتحى كانت ثمة نظرة حنين ودهشة كما لو على وجه طفل ينتظر معجزات موعودة، ثم اختفت تلك النظرة وحل محلها حزن فحسب.

كان يومًا صعبًا للجميع رغم أنهم لم يتسلقوا الأعالى. أحيانًا كانوا يتنقلون على ممرات مظللة بين نتوءات الصخور العالية وأحيانًا يسيرون على الحافات. كانت صدروهم - ماعدا بن - تضيق،

ويعصف بهم الصداع رغم وصفة شاى الكوكا التى كان خوسيه يوزعها من قارورة حافظة. توقفوا فى منتصف النهار لأنهم وجدوا كوخًا، ليس أكثر من ظلة بدائية مصنوعة من جذوع الاشجار التى لابد حُمّلت على الحيوانات لانعدام وجود الأشجار هنا. قال ألفريدو إنه يتذكر الكوخ حين كان فى حالة أفضل.

كانت ثمة فجوات بين الجذوع وقد انزلقت بعض ألواح السطح. لم يستخدمه أحد منذ زمن طويل، سوى بعض الحيوانات الصغيرة التى تركت مخلفاتها. نظفوا المكان ورصوا أشياءهم حول الحائط. جمع خوسيه بعض الأغصان اليابسة والحطب لإيقاد نار، ولكن لقلة ماجمع فقد تقرر ادخاره للظلام. هبط الليل مبكرًا بسبب ارتفاع القمم حولهم ولكن كان هناك وقت كاف لألفريدو ليحدد خارطة طريق اليوم التالى. تسلق بين الصخور متوقفًا عند صخرة ما أو حافة .. وحين هجم البرد واختفت الشمس عن الأعين ، كانوا فى الداخل وبطانياتهم مرصوصة حول النار الصغيرة ، ورءوسهم تطن من الارتفاع ولم يرغب أحد منهم تناول الكثير من الطعام. كان الثلاثة ينتظرون وأعصابهم متوفزة لسؤال بن "أين قومى ؟ أين سينجدهم؟"

كان مع ألفريدو راديو صغير لكنه لم يكن يعمل جيدًا .. صدحت موسيقى من مكان ما فى الأسفل يبعد آلاف الأقدام. أصوات ذكور وإناث تختلط مع جمل من أخبار، مقاطع من أغنية ، كلمات من خطاب. أغلقوا الراديو.

كانت النار صغيرة، مجرد لهب يتراقص على حيطان الجذوع. ومن شقوق تلك الحيطان كان يمكن رؤية ضياء بارد. غادروا الكوخ إلى الخارج.. وقفوا جميعًا مأخوذين. كان الهواء نقيًا والنجوم تعكس بريقًا باردًا يومض نيرانًا زرقاء وحمراء وصفراء نحوهم، ودرب التبانة يتمدد عبر السماء مثل طريق إلى مكان ما . كانت رؤية تلك النجوم .. مثل استعادة ذكرى.. نظيفة وجلية وواضحة . وقفوا صامتين خاشعين، ثم سمعوا بن يغنى بصوت أجش بدون لحن، ورأوا أنه بدأ يتحرك راقصًا، يغنى للنجوم. هتف "إنهم يتحدثون ! إنهم يغنون لنا ".

حاول الثلاثة أن يرهفوا السمع لما يمكن أن ينفرد بن بسماعه، وبدا لهم وكأنهم يسمعون هسيسًا شفافًا صاخبًا، وصلصلة صغيرة ، ولكن بن كان منتشيًا "النجوم تغنى .. إنها تغنى".

انطلق راقصًا، ينحنى وينثنى ويمد ذراعيه إلى النجوم ويدبك ويضرب قدميه ببعضهما، ويدور حول نفسه، ويدور فى أرجاء المكان.. يدور ويدور .. والآخرون يراقبونه مرتعشين متلفعين بالبطانيات.

مضى يرقص حتى حسبوا أنه سيقع أرضًا من الإرهاق، هناك خارج الكوخ الصغير المبنى بين الصخور والنتوءات التى تخرق ذراها حقول النجوم.

لاح لهم وكأن ساعات كثيرة مرت وهم يرتعشون إلى حد الجنون، ثم تراجعوا إلى داخل الكوخ طلبًا

للدفء .. دخلت تيريزا أولا ثم الرجلان، ومن داخل الكوخ ومن خلال شقوقه ظلوا يرقبون "بن" وهو يتحرك فى ضوء النجوم ويستمعون إليه يتضرع للسموات.

فيما بعد، هدأ، وسُروا لرؤيته واقفًا وذراعاه ممدودتان ورأسه إلى الخلف صامتًا ينظر إلى أعلى وأعلى . كانت النجمات المضيئات قد غيرن أنماطهن فى الأعالى وقد ألقين بظلالهن عبر المساحة المكشوفة حيث كان بن واقفًا. كان فى غيبوبة أو ذروة نشوة .. ثم أخيرًا ترك ذراعيه تسقطان ووقف متسمرًا مرتعشًا. أدخلته تيريزا الكوخ ودثرته بالبطانيات. وجلس حيث طلبت منه ، يحدق فى بقايا النار، ثم بدأ يترنم بأغنيته البدائية الهامسة مرة أخرى . كان بعيدًا عنهم، نائيًا عن الإحساس بهم.

تحدثوا بأصوات خافتة لئلا يخرجوه من الحالة التى كان عليها . ولم يغفوا ليلتها، ظلوا ساهرين معه.

فى الصباح حين فتحوا الباب ، كان الكوخ لايزال فى العتمة ، فى حين كانت السماء تترامى بين قمم الجبال ذهبية وقرمزية.

ادفئوا أنفسهم بشاى ساخن، وتمشوا حول الكوخ لتمرين عضلاتهم. إلا بن ، فقد كان لا يزال تائهًا فى أحلامه، التى لايعلمون شيئًا عنها. تركوا كل شىء فى الكوخ وساروا فى طابور على ممر ضيق يحيط به من جانب حرف صخور شاهقة ، ومن الجانب الآخر

منحدر صخرى أسود ينتهى إلى واد صخرى سحيق. وفوقهم كان يحلق نسر كوندور يقود مسيرتهم على الممر الزلق. بعد نحو ساعتين قال ألفريدو :" إنه هنا. أتذكر المكان"، واستدار بحدة إلى اليمين من خلال شق فى الحرف الصخرى حيث كان عليهم أن يزحفوا ويتسلقوا الطريق بجهد ساندين أنفسهم على حافات ونتوءات الصخور، ثم وجدوا أنفسهم فى فضاء منسبط واسع ، تحيطه صخور وأمامهم صخرة شاهقة. كانت الساعة حوالى العاشرة صباحًا. كانت أشعة الشمس على الجانب الآخر من حاجز الصخور التى عبروا من خلاله، وفوقهم كانت السماء مشرقة براقة. كان ألفريدو يتحرك عند سفح الصخرة القائمة .. يقف قربها ، يتراجع إلى الوراء، يتقدم مرة أخرى، يهز رأسه .. يتململ من هذا الجانب إلى ذاك، قائلا "كلا ليس هنا.. نعم إنها هنا "ابتعد ثم عاد وفجأة تسلل شعاع خائر فوق القمة ، ثم سرعان ما اشتد، ووصل حافة الصخرة القائمة.

فجأة برز أمام أعينهم شخص من أعماق الصخرة السوداء اللامعة، حيث كان أشخاص آخرون مغمورين فى بريق الشعاع، كانوا ينتظرون ضياء الشمس لإبرازهم. تحول الشعاع إلى فيض نور وفجأة كانوا جميعًا هناك.. جاليرى الصور.. قوم بن. كان قد تقدم خطوة إلى الأمام ، ثم أخرى ، ووقف أمام الصخرة ، فى حين بقى الثلاثة الآخرون خلفه، حتى يتمكن من احتواء المشهد. سطعت الشمس قوية على

الصخرة ، وكانت مزدحمة بالصور.. أربعون على أقل تقدير، والكثيرون كانوا يشبهون بن ، فيما عدا مايرتدونه. هل تلك شرائط لحاء نخيل؟ أم جلود؟ كانت ملابس حقيقية، من نسيج مرن يتدلى فى طيات، مزموم عند الخصر بحزام ومثبت على الكتف بأبزيم معدنى. كانت الأردية ملونة، ليس فقط اللون الرمادى أو البنى وإنما الأحمر والأزرق والأخضر. كان شعر هؤلاء الناس يصل إلى الأكتاف أطول من شعر بن الآن، وكانوا مثله عريضى الصدور. ولهم لحى، ولكن ليس كلهم ، كلا ، لابد أن هؤلاء إناث، الأشخاص بدون لحى وذوى الأجسام الأصغر والأدق بنية رغم أن تلك الشخوص كانت تقف بصلابة على أقدامها. لم تكن تحمل أسلحة ، بل بعضهن كان يحمل أشياءً أشبه بآلات موسيقية. ظل بن يحدق. لا يعرف الآخرون بما كان يفكر به فى تلك اللحظة، ولكن قلوبهم كانت تدق بعنف ليس فقط بسبب الارتفاع ولكن خشية مما قد يكون يشعر به. مال بن إلى الأمام وربت على رسم أنثى كانت ـ كما يبدو ـ تبتسم له. ثم انحنى عليها ومرغ أنفه فيها، ثم حك لحيته على كل خطوطها، مطلقًا صرخات قصيرة مثل تحية.

الصمت حينذاك كان رهيبًا، رهيبًا. يؤكده صوت تنفسهم العميق و الثقيل. وكان بن لا يزال يدير ظهره للآخرين ، واقفًا هناك مربتًا على الأخرى التى كانت ترد له ابتساماته من أعماق الصخر الأسود. وقد أخذت الشمس تشحب منزلقة ومتسللة عن الصخرة،

وعندها كان الناس يختفون الواحد إثر الآخر. وسرعان ما بقى القلة منهم على الحافة ، فى حين كان بن يتلمس المخلوق الأنثى. ثم غادرتها الشمس أيضًا وسمعوا عواءه وهو يرمى بنفسه على الصخرة يحتضنها.

رفعت الشمس نفسها عن المشهد وقد اختفت الصور. وفيما وراء جسم بن المنزوى عند الصخرة، كان باستطاعتهم أن يروا - إذا حدقوا بثبات كاف فى الصخرة اللامعة - خطوطًا باهتة لما كان قبل قليل قويًا يمور بالحياة.. من السهل إدراك كيف أن المارين بالصخرة قد لايرون ماعليها - لا شىء إلا إذا صادف حظهم فى تلك اللحظة سقوط أشعة الشمس فى زاوية معينة.

اعتدل بن ، وظهره لا يزال إليهم: سوف يأخذ وقته قبل أن يواجههم. لقد ضحكوا عليه بفظاعة. هؤلاء الثلاثة الذين يزعمون أنهم أصدقاؤه - لاشك أن هذا ماكان يشعر به. وكانوا خائفين مما سوف يرونه. ولكنه لم يستدر. كان يبدو معلقًا بتلك الصخرة، إحدى قبضتيه تستند إليها. ثم استدار بتثاقل، استطاعوا أن يروا صعوبة ذلك بالنسبة له. بدا أضأل مما كان ، المخلوق المسكين. عيناه لا توجهان إليهم الاتهام .. لم يكن يراهم.

تجرأت تيريزا على أن تذهب إليه وتضع ذراعها حوله ولكنه لم يحس بها، بل لم يعرف بوجودها. تعثر وهو يمشى إلى جانبها على الممر الطويل إلى الكوخ.

وفى الطريق ذى النتوء الصخرى البارز، توقف لحظة ونظر إلى الأسفل، ولكنه استمر فى المشى حين لمسته تيريزا. فى الكوخ ألقموا النار المزيد من الحطب وصنعوا شايًا قدموا له بعضًا منه ولكنه لم يكن يراهم. ثم ـ وكان الأمر مفاجئًا حتى لم يستطيعوا التحرك لأول وهلة ـ تركهم وعاد يركض على الطريق الذى جاءوا منه لتوهم . صمت. ثم أدركت تيريزا مايحدث ، وكانت على وشك أن تهرول خلفه، ولكن ألفريدو أحاطها بذراعه قائلا لها "تيريزا ، اتركيه"

سمعوا صرخة ثم انزلاق حصى صغيرة ، وصمت.

قاموا ببطء، وببطء تبعوه. اتجهوا إلى حيث انزلاق النتوء الصخرى وتساقطه عن الطريق. بن كان هناك، فى الوادى السحيق، كومة من ملابس ملونة. شعره الأشقر مثل حزمة من عشب الجبل.

تمايل الثلاثة على الحافة وهم ينظرون إلى أسفل، وأذرعهم تتشبث ببعضهم البعض خوفًا من فقدان التوازن. . هبة ريح انطلقت من الطريق الذى ينعطف فى زاوية ، أمامهم، كانت الريح قوية دفعتهم إلى الرجوع إلى هذا الممشى الذى لم يكن أكثر من إفريز على فضاء، ليقفوا وظهورهم إلى الصخرة. الآن لم يعد بإمكانهم رؤية بن، وإنما فقط الجانب الآخر من الوادى الصاعد بشكل صخور بارزة.

قال ألفريدو "حين نعود إلى تليفون الفندق، يمكن أن نتصل بالبروفسور جوملاك ونخبره بما حدث"

قال خوسيه" سوف أتصل به أنا. لن يعرفنى ولن أذكرك أو تيريزا"

قال ألفريدو "سيغضب منك. ولكن قل له : حتى الحيوان من حقه أن ينتحر"

قال خوسيه:" سوف يستغرق الوصول إلى الوادى يومًا أو يومين ، وسوف يحتاجون بغالا"

قال ألفريدو :" لن يترك النسور شيئًا منه"

وكان هناك نسر. ظهر من فوق الجبل خلفهم وحلق هابطًا يحوم حول الوادى. كانت الشمس تسطع على ظهره.

قال خوسيه:" لا يهم . يمكنهم أن يتعرفوا على شخص كامل من مجرد قطعة من عظم الإصبع"

قال ألفريدو" سوف يريدون أن يعرفوا ماذا كان يفعل هنا"

قال خوسيه "هل ستريهم صور الصخرة؟"

قال ألفريدو" دعهم يكتشفونها بأنفسهم"

هبط نسر آخر من قمم الجبال إلى الوادى.

لم تشارك تيريزا فى هذا الحديث.

قال خوسيه "تيريزا ، من السخافة البكاء. إنه أمر جيد ، مافعله بن"

قال ألفريدو " ولكن تيريزا تعلم هذا "

قالت تيريزا "نعم" وأضافت " واعلم أننا سعداء لموته.، ولن يكون علينا أن نفكر به"


صدر من هذه السلسلة

١ ـ «ملكة الصمت» للكاتبة الفرنسية «مارى نيمييه» ـ رواية ـ جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر» للكاتب الفرنسى «بيير بيجى» ـ رواية ـ جائزة «إنتر».

٣ ـ «موال البيات والنوم» للكاتب المصرى «خيرى شلبى» ـ رواية ـ جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد عفيفى مطر» ـ سيرة ذاتية ـ جائزة «سلطان العويس».

٥ ـ «اللمس» للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله» ـ مسرح ـ جائزة «أبها».

٦ ـ «عاشوا فى حياتى» للكاتب المصرى «أنيس منصور» ـ سيرة ذاتية ـ «جائزة مبارك».

٧ ـ «قبلة الحياة» للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» ـ رواية ـ «جائزة التفوق».

٨ ـ «ليلة الحنة» للكاتبة المصرية «فتحية العسال» ـ مسرح ـ «جائزة التفوق».

٩ ـ العاشقات ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٠ ـ نوّة الكرم، للكاتبة المصرية نجوى شعبان، رواية، «جائزة الدولة التشجيعية».

١١- «الفسكونت المشطور» للكاتب الإيطالى - إيتالوكالڤينو. رواية (عدد خاص) جائزة «فياريچيو».

١٢- القلعة البيضاء / للكاتب التركى أورهان باموق - رواية - «جائزة نوبل».

١٣ - أين تذهب طيور المحيط/ للكاتب المصرى إبراهيم عبدالمجيد - أدب رحلات - «جائزة التفوق».

١٤ - قرية ظالمة / للكاتب المصرى محمد كامل حسين - عدد خاص - «جائزة الدولة للأدب».

١٥ - الرجل البطىء / للكاتب الجنوب أفريقى ج . م . كوتسى - رواية - «جائزة نوبل».

١٦ - طحالب / للكاتبة الجنوب إفريقية مارى واطسون - متتالية قصصية / «جائزة كين» .

١٧ - شوشا / للكاتب البولندى اسحق باشيفيس سنجر/ رواية / «جائزة نوبل».

١٨ - شارع ميجل/ للكاتب من ترينداد/ ف. س. نايبول. رواية/ «جائزة نوبل».

١٩ - الحياة الجديدة - للكاتب التركى «أورهان باموق» - رواية - «جائزة نوبل».

٢٠ - عشر مسرحيات مختارة - للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» - مسرح - «جائزة نوبل».

٢١ - الآخر مثلى - للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» - رواية - «جائزة نوبل».

٢٢ ـ المستبعدون ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

٢٣ ـ الأنثى كنوع ـ للكتابة الأمريكية «جويس كارول أوتس» ـ قصص ـ «جائزة بن مالامود».

٢٤ ـ ثلاثة أيام عند أمى ـ للكاتب الفرنسى «فرانسوا فايرجان» ـ رواية ـ «جائزة الجونكور».

٢٥ ـ اسطنبول.. الذكريات والمدينة.. للكاتب التركى «أورهان باموق».. «جائزة نوبل».

٢٦ ـ الطوف الحجرى.. للكاتب البرتغالى «جوسيه سارامارجو».. رواية.. «جائزة نوبل».

٢٧ ـ نار وريبة.. للكاتبة الألمانية «بريچيتّه كروناور» مختارات جائزة «چورچ بوشنر الكبرى».

٢٨ ـ الذكريات الصغيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو» .. سيرة ذاتية.. «جائزة نوبل».

٢٩ ـ إليزابيث كُستّلُو.. للكاتب الجنوب إفريقى ج. م. كوتسى .. رواية.. «جائزة نوبل».

٣٠ ـ السيدة ميلانى والسيدة مارتا والسيدة جيرترود.. للكاتبة الألمانية بريچيته كروناور .. قصص.. «جائزة چورج بوشنر الكبرى».

٣١ ـ حين تقطعت الأوصال .. للكاتبة المكسيكية أمبارو دابيللا.. قصص.. «جائزة بيريباروبيا».

٣٢- مارتش.. للكاتبة الأمريكية «جيرالدين بروكس» رواية.. «جائزة البوليتزر».

٣٣ - اغتنم الفرصة.. للكاتب الكندى «سول بيللو».. رواية.. «جائزة نوبل للآداب».

٣٤ - البصيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو».. رواية.. «جائزة نوبل».

٣٥ - بريك لين.. للكاتبة الإنجليزية البنغالية.. «مونيكا على».. رواية.. «جائزة البوكر».

٣٦- بريد بغداد.. للكاتب التشيلى «خوسيه ميجيل باراس».. رواية.. «الجائزة الوطنية للآداب».

٣٧ - عن الجمال.. للكاتبة البريطانية «زادى سميث» رواية.. «جائزة الأورانج».

٣٨ - العار.. للكاتب الجنوب إفريقي ج. م. كوتسى.. رواية.. «جائزة نوبل».

٣٩ - قبلات سينمائية.. للكاتب الفرنسى إيريك فوتورينو.. رواية.. «جائزة الفيمينا».

٤٠ ـ هكذا كانت الوحدة.. للكاتب الإسبانى خوان خوسيه مياس.. رواية.. «جائزة نادال».

٤١ ـ الشلالات.. للكاتبة الأمريكية چويس كارول أوتس.. رواية.. «جائزة الفيمينا».

٤٢ ـ العشب يغنى.. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. «جائزة نوبل».

٤٣ ـ العالم.. للكاتب الإسبانى خوان خوسيه مياس.. رواية.. «جائزة بلانيتا».

٤٤ ـ ميراث الخسارة.. للكاتبة الهندية كيران ديساى.. ر واية.. «جائزة البوكر».

٤٥ ـ الطفل الخامس.. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. «جائزة نوبل».

يصدر قريباً من هذه السلسلة

١ ـ ثورة الأرض.. جوزيه ساراماجو.. جائزة نوبل ١٩٩٨.

٢ ـ ملك أفغانستان لم يزوجنا.. انجريد توبوا.. جائزة الرواية الفرنسية الأولى ٢٠٠٧.

٣ ـ الكهف.. جوزيه ساراماجو.. جائزة نوبل ١٩٩٨.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص.ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس

WWW. egyptianbook. org. eg

E - mail : info @egyptianbook.org. eg